كمال أتاتورك

بقلم

محمد محمد توفيق

عنيت بنشره
دار الهلال بمصر
سنة ١٩٣٦

marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخِصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملآى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

كمال أتاتورك

محمد محمد توفيق

عنيت بنشره
دار الهلال بمصر
سنة ١٩٣٦

اهداء الكتاب

الى الرجل الذى خلق تركيا ، وأيقظ الشرق ، وتنمر للغرب

الى رجل السياسة والحرب :

كمال أتاتورك

من مصرى يرى فيه المثل الأعلى للمجاهد الكامل ، ورجل الدولة الكامل

صورة الغلاف

يجد القراء على غلاف هذا الكتاب رسماً قد يكون غريباً على بعضهم ، ولذلك نشرحه فيما يلي :

هو شعار حزب الشعب الجمهوري الذي يعتبر تجسيما ماديا لفلسفة كمال أتاتورك ودستوره في الحياة . والأسهم الستة تمثل مصادر قوة هذا الحزب ، وهي : الوطنية ، والشعبية ، والجمهورية ، والقومية ، والثورية ، والعلمانية . وهـذه الأسهم تنطلق من الشمس التي هي الحزب ، وتشرق على رابية فوقها قلعة تركية حصينة

وقد أصبح هذا الشعار رمزاً لتركيا الجديدة ، كما ان العلم الأحمر ذا الهلال والنجمة رمز الجيش التركي الباسل

مقدمة

اشتغلت صحفياً منظماً مدة طويلة ـ وسعدت بمعاونة مؤلف هذا الكتاب مدة طويلة ـ فلئن حالت شخصيته بكلمة واحدة فهى أنه كله : روح . . .

والشخصيات ذوات « الأرواح » الحية الفوارة تعمل العمل البدنى بأعصابها . وتعمل العمل الذهنى بدمها وشرايينها . فاذا ما قبضت على القلم لتكتب وتحلل لى ولك من القراء . قرأت « ثورة » و « صراحة » و « وضوحاً » و « حياة » لأن الكاتب الدموى الروحى الحيوى لاينتاب أسلوبه الفتور ولا البرود ولا الجمود ، بل تلعب الفاظه أمامك وتتحرك ، فتجمع بين المبنى والمعنى في آن واحد . وكلما اهتزت أمامك الألفاظ والجمل والاساليب والمعانى ، اهتززت معها لحركة الكاتب بروحه المتحركة روحك ، وبيدنه الثائر بدنك ، وبعقله المستشعر عقلك ، فأتممت كتابه وقد بلغت قمة التأثر والاهتزاز . فكان الكتاب هو الاعجاز ! . . .

***

فما بالك والمؤلف « تركى الاصل » وموضوع التأليف بطل الأتراك القوال الفعال: مصطفى كمال ؟ !

الموضوع نفسه يتقمص « مصطفى كمال » موضوع ثورة ، ووطنية ، ومغامرة ، واقدام ، وبلاغة ، وأهوال ، ودماء ، ووفاء . . ثم نجاح ! . .

تلك هي عناصر « اللذة » المتنقلة من قصص ، إلى سياسة ، إلى حرب ، إلى مؤامرات ، إلى اصلاحات ، وقد جمعها كلها كتاب واحد فجاء أروع ما قرأت من كتب هذا العام . . .

***

وطالما تناقشت أنا وصاحبي في موضوع طريف : أى العتاة الجبابرة العالميين الثلاثة أشد عتواً وأكثر جبروتا ؟ ؟ . . . موسولينى ـ أم هتلر ـ أم مصطفى كمال . . . وقد تحتدم المناقشة وقد يختلف الرأى ولكن البطل التركى كان دائما فى نهاية الأمر يرفع رايته على هام زميليه ويظفر بالاجماع !

ان «موسوليني» زحف وسط دولة من الدرجة الأولى ، لا على جيش خارجي مسلح ، ولا على مؤامرات دولية متحالفة ضده ، وانما على مجتمع محطم مهشم ، وعلى عمال عبثوا بالدولة فاستطاع أن يظفر بهم بسهولة . ثم ساعدته موارد بلاده وثقافتها وثروتها على الاصلاح . . .

و « هتلر » برز بين شعب متعلم ، متألم ، ووجد سواعد قوية تشد أزره ، وأمة فتية تحمي ظهره ، وأذهانا جبارة تمونه وتغذيه فنجح . . .

نضال هذين الفحلين نضال هين في الواقع . ولكن نضال البطل التركي كان نضالا مع الدول بأسرها — فهو نضال ضد جيش وصل الى الصميم من آخر مقاطعات تركيا ، نضال ضد حكومته وخليفته وسلطانه ، نضال ضد مؤامرات ودسائس أهلية ، نضال ضد الفقر والجوع والافلاس والبؤس المقيم ، نضال ضد أصدقائه وأصحابه وضد الدنيا بأسرها في الداخل والخارج . . .

كان مطلوباً اليه أن يكون جنديا يحارب فعلا في الميدان ، وقائداً يرسم الخطط وينظم الدفاع ثم الهجوم ، ومحصلا يجمع الاعانات والاكتتابات ، وخطيباً يؤثر في النواب والجماهير ، وكاتباً يدعم مبادئه بيراعه ، ودساساً يدفع بالمؤامرات والمناورات خطط السلطنة والخلافة والحكومة ومنافسيه ، وثعلباً يراوغ ويماطل حتى يظفر ، وثائراً متهماً بعداوة الدين عند البسطاء ، لا داخل المملكة بل في العالم الاسلامي ، وسياسياً يستطيع أن ينتصر في مناورات المؤتمرات : كل ذلك العبء الثقيل المختلف الوزن والنوع كان ملقى على عاتقه في أدق وأخطر مواقف التاريخ . ومع ذلك صبر وجالد حتى ظفر ! . .

* * *

واستطاع زميلي القدير الاستاذ « محمد محمد توفيق » أن يبرز كل هذه المواهب الرهيبة لا بقلمه وأسلوبه ، وإنما بأعصابه وشرايينه ودمه . فاستطاع أن يلم شمل كل ذلك الدور الخارق للعادة ، الذي قام بها المارد التركي في مدة وجيزة . ثم أخذ يحلل غريزته وسليقته تحليلا دقيقا ، وأهمل الصفات المشتركة بينه وبين سائر الناس ، وأبرز الصفات الممتازة التي احتكرها الرجل العجيب : انظر الى بطل الدردنيل كيف استقل برأيه وسط الميدان ووسط النار ، فنفذ خطته على مسئوليته ، ولم يرجع لأمر القائد الألماني فنجح وسحق الانجليز ! انظر اليه كيف أنه في أوج عزة حكومة الاتحاديين

يعارضهم فى الخطط وفى الاتجاه ولا يخشى بأسهم المستفحل ؟ انظر اليه كيف كان لا يخفى على الالمان أنه يراهم مدحورين منهزمين ، وكيف بلغت به الجرأة أن يناقش هندنبرج ولوندروف بل الامبراطور فى المصير ؟ ! هذا رجل جبار يحترم عقله وهو رجل فذ يعطى المثل الأعلى « للزعماء » عندما يكونون الرأى مغامرين بحياتهم ، معتمدين فقط على عظمة « قوة اليقين » . .

وانت لا تقرأ فى هذا المؤلف الثمين قصص بطولة عسكرية رعاها الله وحياها وباركها ، وانما تقرأ « جهاد أمة » بأسرها ، وتعجب كيف استطاع الجندى المتفوق أن يكون كاتباً متفوقاً ، وسياسياً متفوقا ، وخطيباً متفوقاً ، ومصلحاً اجتماعياً متفوقاً ، وكيف استطاعت يد الرجل الحديدية أن تضع أناملها الرقيقة والصلبة والدقيقة على كل هذه النواحى فتبرز الداء ، وتمنح الدواء ، وتضمن الشفاء . . .

وبعد ، ألا ترى أنها معجزة من معجزات القدر أن يهيء الله لمصطفى كمال خلق دولة فتية قوية رهيبة الجانب عتيقة الطلعة من بين أنقاض امبراطورية أفناها العمر ، والعداء الأوربى ، ونخر فى عظامها سوس الحكام السابقين . . .

إن الكتاب الذى بين يدى كتاب لذيذ ولكنه يصلح جدا أن يكون مدرسة للزعماء الذين يصدرون حركة البعث والنشور فى أوطانهم . فلئن نصحت للاطفال ، والفتيان والفتيات ، والرجال والنساء ، بقراءته مراراً وتكراراً ، فانى أنصح قبلهم « لزعمائنا » بالاستفادة مما جاء فيه . . .

***

ما أحوج ثقافتنا القومية ، وتربيتنا الوطنيـة ، ومدارسنا ومعاهدنا المصرية ، إلى مؤلفات من هذا الطراز : تنفث الروح ، وتشحذ الهمم ، وتستفز النفوس ، وتثير الدم لتسرى « الرجولة » فى أبداننا وأذهاننا فى وقت نقول فيه اننا ننشىء « وطناً جديداً » . . .

اهنىء القراء قبل المؤلف بهذه التحفة الرائعة وارجو أن يكون صديقى وزميلى موفقاً مثل هذا التوفيق فى اختيار الموضوع فى مستقبل حياته الأدبية دائما ان شاء الله

فكرى اباظه

المحامى

مقدمة المؤلف

ترددت طويلا قبل أن أصدر هذا الكتاب . ولعل السر فى ذلك هو أنى رغبت فى قراءة كل ما كتب أو روى عن « كمال أتاتورك » قبل أن أطبع صورته التى رسمتها له فى أذهان القراء

وأنا فى هذا الكتاب شخصيتان متناحرتان : شخصية « الرجل الجامعى » الذى يعتمد على أوثق المراجع والمصادر ويحاول أن يصبها فى كتابه صباً ، وشخصية « الصحافى » ، أو « الأديب » ، أو « الفنان » ـ سمه ما شئت ـ الذى يروض نفسه على مقاومة النزعة الجامعية بشدة ، ولو أنه يبنى على دراستها كل سطر يخطه فى كتابه ـ حتى يقدم للناس دراسة وافية دقيقة بأسلوب عصرى سلس

وليس من شأنى فى هذا الكتاب أن أسجل أعمال الجهورية التركية باسهاب ، فهذا موضوع كتاب آخر سوف أصدره عما قريب . ولكني هنا « رسام » . . نعم « رسام » يرسم لوحة فنية لرجل من عظماء التاريخ

ويسرنى إذ أستعيد ذكرى دراساتى الطويلة ، أن أقدم فروض الشكر لكل من ساعدونى فى انجاز هذا العمل ، وأن أذكر فى أول قائمة الشكر سيدة جليلة أعترف بفضلها على منذ الساعة التى فكرت فيها فى كتابة هذا التاريخ ، وهي سليلة الامارة وذات القلب الكبير العميق بايان شريفة صالح كورخان . ثم لا يفوتنى أن أحيي ذكرى المرحوم الحاج عادل بك وزير داخلية تركيا سابقاً ، فقد كان له رحمه الله رحمة واسعة فضل كبير فى إرشادى الى أحسن المصادر . وكذلك أشكر شاعر تركيا الأكبر محمد عاكف بك والرجل الكبير رءوف بك الذى تفضل فأضاف الى كتابى بمعلوماته القيمة الثمينة ينبوعا جديداً ، وأفضى إلى بما لم ينشر بعد من أسرار الحركة الوطنية التركية

محمد محمد توفيق

تصدير

يا له من رجل !

عظام وجه ناتئة . جبهة بارزة . حاجبان كثيفان أشعثان . عينان زرقاوان متألقتان كعيني الذئب ، فيهما السحر ، والروعة ، والدهاء ، والقساوة ، والغدر

وأعصاب من فولاذ ، وإرادة من حديد ، وروح من نار تارة وأخرى من جليد ، وصوت كالرصاص المصبوب ، ونظر بعيد وقريب

متوسط الطول ولكن يخيل اليك أنه جبار مريد . خلق ليسود بالنار والحديد طريقه أشبار وأمتار . وجولاته بكار يدار

لا فرق عنده بين الميلاد والموت : الطفل يولد فيقذف به فى خضم الحيـاة . والرجل يلبس ثياب الحرب فيقذف به فى خط النار

يجلس الى مكتبه كما يجلس الى خرائطه الحربية . ويسوق قومه الى المدنية كما يسوقهم الى ميادين القتال . وهو فى كلتا الحالتين كتلة صماء من الحديد الجليد

سيد مذ كان فى الجيش فتيا :

حدثنى أحد زملائه القدماء قال : « كنا جالسين ذات ليلة فى قهوة « يونيون بار » بسلانيك . وكنا نشرب الجعة والعرق ونتحدث فى شئون الثورة ووجوب خلع عبد الحميد . وكان فى القاعة التى نجلس فيها فريق من قواد الجيش وكبار ضباطه . وبينا نحن فى أحاديثنا وأسمارنا ، اذا بالباب يفتح ، وإذا بوجه غامض رهيب يطل علينا ، وإذا بمصطفى كمال يدخل القاعة فتسرى فينا قشعريرة كتلك التى تسري فيك إذ ترى ثعبانا هائلا ينساب من بين أعشاب الغاب . . فصمتنا . . فدنا منا وجلس . ثم شرع يتحدث بصوته الرصاصى . فأرهفنا الآذان . وأقسم لقد أرهف كبار ضباطنا آذانهم أيضا ليسمعوا كلام هذا الشاب الذى يتحدر المنطق من فمه كالرصاص المصبوب

« ولست أذكر فيم كان يتحدث . ولكنى أذكر أنى رأيت فيه منذ تلك الساعة الزعيم المنشود ! »

* * *

المنطق عنده مطرقة يهوى بها على كل شيء . .

حدثنا هو فى مذكراته قال : « كان جمال بك (باشا فيما بعد) قد حرر مقالة نشرت بدون توقيع فى إحدى صحف سلانيك . وكنا قد خرجنا معاً من دائرة عملنا وركبنا الترام فى طريقنا الى نادى « أوليمبوس » . فمد جمال بك يده وناولنى تلك الصحيفة قائلا :

— هل قرأت هذه الافتتاحية ؟

— كلا . .

— اذن اقرأها . .

« وعندما أتممت قراءتها سألنى عن رأيى فيها فأجبته :

— افتتاحية عادية لصحفى عادى . .

« فقال : ما هذا التغابى ؟ انها افتتاحية بقلمى . .

« فأجبته : أرجو منك الصفح . ما كنت أعلم ذلك . وكنت أتمنى ألا يكون ذلك . اياكم يا جمال بك والسير فى طريق اكتساب اعجاب بعض صغار الأحلام بأمثال هذا الأمر وأشباهه ، فانه ليس لهذا العمل قيمة ولا قدر . عليكم أن تعنوا النظر فى موقفنا الحاضر ، وعليكم أن توافقونى على أنه من الضرورى على المرء أن يتفانى فيما هو سالكه من المذاهب . أما اذا تنازلتم الى استمداد القوة من رضا هذا وإعجاب ذاك ، فلا أدرى ماذا تكون حالكم ، وإنما أؤكد لكم ان مستقبلكم لن يقوم على أساس متين ، لأن أمامنا عالما واسعاً لم تصطدم فيه بعد بالحوادث . وفى هذا العالم كثيرون متشبعون بخيالات لم تنضج بعد . العظمة هى ان تسير فى طريقك دون أن تلتفت الى أحد ، دون أن تلجأ الى اغواء أحد . ضع نصب عينيك الكمال الذى تطلبه البلاد ، وسدد سهام جهودك نحو الهدف غير هياب ولا وجل . وسوف يعترض سبيلك أناس يحاولون صدك عن غايتك ، فكن معهم شديد البأس صلب العزيمة فى موقفك إذ ذاك ، وذلل هذه العقبات وأنت مؤمن بأنك ضعيف ، عاجز ، صغير ، يائس من معونة أى انسان ، لا على اعتقاد منك بأنك كبير تستطيع اتيان عظائم الأمور . فاذا قيل لك بعد كل ذلك : أنت عظيم . . فاسخر مما يقولون . . »

* * *

عملى . بارد . قبل أن يكون خيالياً متحمساً :

روى عنه أحد ضباط الترك القصة التالية : « كان ذلك وحرب البلقان في إبانها ، إذ برز كمال الى ميدان القتال ممتطياً جواده ، فرأى زميلا له يقفز بجواده فوق المرتفعات قفزاً . . فناداه :

— الى أين ؟

— الى خط النار . .

— لماذا ؟

— لقد صدر إلى الأمر بالتوجه في مهمة سرية خطيرة

— هل أنت مجنون ؟

— لماذا ؟

— أتذهب الى خط النار وأنت عالم أنك ميت مائة في المائة ؟

— وماذا عساى أن أفعل . ؟ انه أمر عسكري ، وما على الجندي الا الطاعة

« فصاح مصطفى كمال :

— أنا لا أفهم الاوامر العسكرية التي من هذا الطراز ، ولا أسمح بتلك المهازل تمثل أمامي . .

« ثم عاد مسرعاً الى خيمة القيادة العليا ودخل على القائد وهو لا يكاد يتمالك نفسه من فرط الغضب ، وبعد بضع دقائق خرج من عنده وقد ألغى (الأمر الجنوني) على حد تعبيره . . »

* * *

كان رجال الاتحاد والترقي لا يطيعونه . ولكنهم ـ لفرط اعجابهم به ـ كانوا يستشيرونه في جلائل الأمور

استمع اليه إذ يحدثك عن علاقته ـ وهو الضابط الناشيء ـ بطلعت باشا الصدر الأعظم :

« ما أنكد حظك يا طلعت باشا . . عندما نمى إلى أنه قتل في أزقة برلين برصاصة شقي من أشقياء الأرمن تأثرت أيما تأثر . . فقد زرته ذات يوم من أيام تربعه في منصب الصدارة العظمى في ديوان صدارته ، وتجاذبت معه أطراف الحديث في مسألة حيوية ، وكان هو على اعتقاد بأنه تمكن ـ بأجوبته الديلوماسية ـ من اقناعي بطريقة التهرب السياسي ، بل انه أظهر اغتباطه بهذه الحادثة عندما تقابل مع أحد اصدقائي

المتصلين بي - وذلك بعد ساعة من مقابلتنا ، غير انه لم يمض على هذه الحادثة يومان حتى وقع في مشكلة سدت عليه منافذ التدبير ، فاستدعاني الى منزله في منتصف الليل ملتمسا ان أمده بالرأي والنصح . وقد كان صديق الذي نقل إلى اغتباط الصدر الأعظم حاضراً في مجلسه في تلك الليلة . فاكتفيت إذ ذاك بقولي :

— انكم تسألونني الآن أن ابدي لكم رأيي . ولكني أرجو المعذرة إن أنا احجمت عن ذلك ، لاني سبق أن عرضت عليكم رأيي الخاص في مسألة حيوية منذ ثلاثة أيام فقط ، فتهربتم سياسيا وظننتم أنكم تمكنتم بهذه الطريقة من اقناعي . . وقد أظهرتم سروركم وقتئذ من هذه النتيجة التي وصلتم اليها . .

« فقال لي : لم يحصل ذلك . .

« فأجبت : الشخص الذي افضيتم اليه بمكنون قلبكم جالس الآن بجانبكم . . »

* * *

آمن الناس بزعامته قبل أن تتاح له الزعامة :

فهذا شاب تركي متحمس يدعى « يعقوب جميل » ، ركب رأسه ذات يوم وعول على الفتك باعضاء الوزارة القائمة « لأن الذين نحسبهم كباراً ظهر أنهم صغار جداً ، وأن سلامة الوطن لتقضي باعدامهم جميعاً . . وسأفعل ذلك ! »

فلما سأله بعض أصدقائه من المعتدلين :

— إن القتل سهل . ولكن من الذي يصلح للحكم بعد ذلك ؟

أجاب :

— مصطفى كمال . . .

ثم راح يسعى إلى الآستانة وفي منطقته السدس . ولكن قبض عليه وسيق الى حبل المشنقة قبل أن يصل الى مآربه . . .

ولما بلغ نبأ اعدامه مصطفى كمال - وكان اذ ذاك قائداً في منطقة ديار بكر قال :

« لقد شنق يعقوب جميل . والسبب في ذلك قوله إنه لا سبيل الى النجاة مالم تسند وزارة الحربية ووكالة القيادة العامة لمصطفى كمال . فلو فرضنا أن هذا الرجل فاز بأمنيته ، وسمعت أنا أن يعقوب جميل شق عصا الطاعة في الآستانة لهذا الغرض ونجح في مسعاه : أكنت تظن انى اتنازل لقبول المنصب ؟ . . نعم انى لا أتردد في قبول الحالة كما هي ، ولكن بشرط : هو الذهاب الى الآستانة وتوقيع الجزاء على يعقوب جميل . . فاني

لا اعتبر نفسي رجلا إن انا وصلت الى كرسى الرئاسة بتوصية من ذلك الرجل وأمثاله ! ! »

***

إذا آمن بفساد شيء بتره بترا ولم يعمد الى اصلاحه

عين ذات مرة في صحبة ولى العهد « وحيد الدين » في زيارته للميدان الغربي . ولم يكد يدخل عليه لأول مرة ويراه ناعس العينين بادى الغباء حتى قال :

« وأعترف انى شعرت فى الحال بأنى واقف وجها لوجه مع شخص مجذوب . .

« وخرجنا بعد السلام . وكنا فى عربة فخمة من عربات السراى . واذكر انه دار بينى وبين ناجى باشا الحديث التالى :

« قلت : انه لمسكين سيء الحظ جدير بالشفقة . . ما الذى ينتظر من هؤلاء ؟

« هو ما تقول . . .

« سيكون هذا المسكين فى الغد سلطانا . . فماذا ينتظر منه ؟

« لا شيء . . .

« ونحن الذين أوتينا عقلا وإدراكا وفهمنا حالة البلاد وما تخبئه لها الأيام والاقدار ، ما الذى نستطيع أن نعمله ؟ . . .

« أمر عسير . . . ! »

بيد أن الأمر لم يكن عسيراً على مصطفى كمال كما سترى فى هذا الكتاب

***

متكبر كالشيطان . ولكن كبرياءه قائمة على اعتداد بالنفس

كان هو ووحيد الدين وناجي باشا فى المانيا . وفى ذات ليلة دخل عليهم الامبراطور الجبار ، ودار بينه وبين وحيد الدين حديث خرج منه الأمبراطور بأن مصطفى كمال أقنع ولى العهد بأن المانيا لا شك منهزمة . . فثارت ثائرته وقام ليخرج . .

قال مصطفى كمال : « ومشى الامبراطور نحو باب القاعة . فقمنا نحن ووحيد الدين نشيعه حتى خارج الباب . وكان الامبراطور يتجه نحو ممر على اليسار . ولما كنت أدركت انى لم أنل حظوة فى نفس الامبراطور ، فقد وقفت بعيداً من الممر المعكوس . فصافح الامبراطور ولى العهد ، ثم ناجى باشا الذى كان على مقربة منه ، وبعد أن نظر الى سار قليلا فى استقامة الممر

« لم يكن قد صافحني بعد . وقد كان محقا فيما فعله ، إذ هل من المعقول أن يسعى بنفسه إلى جنرال يرافق ولي العهد ليصافحه ، أم ان على الجنرال أن يتهافت مسرعاً في التقرب من الأمبراطور لينال شرف مصافحته ؟ واني اعترف بهذا الخطأ . ولا أدري لماذا وقفت إذ ذاك موقفا ساكنا ينم على الذهول ! . ولكن الأمبراطور بعد أن خطا خطوتين أو ثلاثا دنا مني وقال : « عفواً . . لم أصافحكم بعد ! »

***

منطقه العسكري لايجاري :

في ذات ليلة وقف مع هندنبرج في صالة مجاورة لقاعة الطعام حيث أقام الأمبراطور وليمة لولي العهد . فقال لهندنبرج بصوته الرصاصي المعهود :

« ما سأحدثكم به قد يكون مخالفا للتقارير التي تصلكم . ولكن يمكنكم أن تعتقدوا أنها الحقيقة بلا مراء . إن الحالة في سوريا لم تصلح بعد (وأخذ يشرح له حقيقة الحال في سوريا) . ثم إن لي سؤالا يا جناب المارشال : انتم اليوم تقومون بهجوم عام . ولا أظن انكم على ثقة تامة من النتيجة . والا فهل تخبرونني عن الغاية والهدف اللذين تؤملون في الوصول اليهما ؟ »

فصمت هندنبرج صمت أبي الهول . .

وهنا يقول مصطفى كمال : « ولكن هل يجيبني هذا الجندي العظيم المحترم عن هذا السؤال ؟ أما كان الأحرى ألا أنتظر ذلك منه ؟

« وقد أظهر المارشال أنه مصغ لأقوالي بانتباه شديد . . ثم أجابني إجابة بسيطة تطفح بروح المرح . . فقد تقدم إلى منضدة صغيرة في وسط الصالة عليها أنواع شتى من لفائف التبغ ، فتناول إحداها قائلا :

« هل أستطيع أن أقدم لكم لفافة من هذه يا صاحب السعادة ؟

« كان المارشال بهذه الجملة قد أجاب عن كل سؤال . فتقدمنا إلى المنضدة حيث قدم لي بيده لفافة من اللفافات . ويظهر أن الأمبراطور كان مهتما بما كان دائراً بيننا من الحديث ، فسأل المارشال بالألمانية : « ماذا يقول ؟ »

« فأجاب هندنبرج : بعض اشياء . . . »

فاذا ما انقضت سنوات الحرب العظمى وجلس هندنبرج إلى مذكراته يكتبها ، قال في معرض الكلام عن الهجوم الذي سأله عنه مصطفى كمال : إنه كان هجوماً موضعياً

لا يرجى منه خير إلا تحريك فرق الجيش والتغلب على السام واليأس الذى أصابها من جراء المقام الطويل فى عالم الخنادق ! !

وقد نسى المارشال العظيم ان يذكر كمالا فى مذكراته . . .

* * *

اغتر العالم كله بكلام ويلسون المعسول . اما هو فقد ابتسم له ساخراً عندما تراجع بجيشه من الجبهة السورية وخط حدود بلاده امام الانجليز بحد سيفه اسمعه يقول عن ويلسون إذ ذاك :

« رحماك يا ويلسون . . . كأنك لم تدرك أن الحدود التى لا يدافع عنها السيف او القوة او الشرف او العزة ، لا يمكن الدفاع عنها بأية نظرية اخرى ! »

* * *

اليأس يتخذ سبيله إلى قلوب الناس . اما هو فهيهات ان يقنط !

كان في ابانّ حرب الاستقلال مقيما وحده فى انقرة . . فقد ذهب نواب المجلس الوطنى الكبير إلى استامبول رغم نصائحه المتكررة بعدم مغادرة انقرة . واحتل الانجليز العاصمة . وألف الخليفة جيشاً عرمرماً للقضاء على الحركة الوطنية . وصدرت فتوى تعتبر كمالا مارقاً وتبيح دمه . . .

فى تلك الايام السود دخل عليه موكب أسود من نساء انقرة . . .

وهتفت النساء مولولات :

« ماذا تصنع هنا ايها الرجل الذى يمثل لنا عزرائيل على وجه البسيطة ؟ هل ما زلت مصمما على الحرب لتدفع بأبنائنا وأفلاذ اكبادنا إلى الموت ؟ ! ألم يكفنا هذا السواد الذى نلبسه ، فتحاول ان تقلب بلادنا مأتما أو مناحة ؟ كفى كفى . . واذهب إلى حيث يطيب لك المقام . . اما هنا فقد سئمنا الحرب وسئمنا المآتم . . .

وخرج الموكب الاسود مولولا صائحا . . وبقى الذئب الزعيم وحده . .

فهل أصاخ السمع إلى ولولة الامهات الناكلات ؟

كلا . . انه ظل يتحدى القدر ويغالب القنوط ، حتى ظفر !

* * *

صارم الى أقصى حدود الصرامة :

أخطأ احد الوزراء فى حضرته مرة واحدة ، فصاح فى وجهه : « واأسفاه ! .

كنت احسبك إنساناً ، اما الآن فقد سقطت من نظري كالسان »
ومنذ تلك الساعة اقصى الوزير عن مناصب الدولة

***

خطوط سبعة تطلعنا على حقيقته :

فالخط الأول يبدأ حيث تستعر نار الحروب ، ثم يمتد فى عالم السياسة والاقتصاد الى مدى الأفق البعيد

والخط الثانى يبدأ حيث تبدأ حدود تركيا ، وينتهى الى حدودها الأخرى ، فهو « تركى » ، وتركى وحسب

والخط الثالث يبدأ حيث يظهر عجز الشرق عن التمشى مع المدنية الغربية القائمة على حق القوة والسلاح ، وينتهى الى أرق ما أبدع العقل الغربى من اختراعات وخطط جهنمية وغير جهنمية

والخط الرابع يبدأ حيث ترين التقاليد العتيقة على الحركات القومية ، وينتهى الى المدنية التى تتجدد وتلبس لكل يوم لبوسه

والخط الخامس يبدأ حيث الديموقراطية الصحيحة ، ولا ينتهى الى الدكتاتورية بل يتراوح بين الديمقراطية « ودكتاتورية الفكرة » أو « دكتاتورية الشخصية »

والخط السادس هو خط الحذر ، والتوجس والحساب الدقيق ، وتحين الفرصة المواتية للقيام بأى عمل من الأعمال

والخط السابع قد يبتعد بكمال فى عرف الكثيرين عن عالم التقى والورع . ولكن هذا الابتعاد ، فى رأيى ، ساهم الى حد كبير فى تكوين شخصيته الكبيرة . فدنيا القرن العشرين ليست دنيا الأخلاق الفاضلة وحسب ، بل دنيا الأخلاق غير الفاضلة أيضا . ولو أن كمالا كان « فاضلا » و « ورعا » و « تقيا » لأصبح فى نظر الأتراك « وليا » من أولياء الله الصالحين ، ولما استطاع ان يسوق شعبه فى « دنيا القرن العشرين » بخيرها وشرها

***

وبعد . .

هاكم « كمال اتاتورك » كما اعرفه ، وعلى ضوء هذه الخطوط اصح لقرائى ان يدرسوا حياة هذا الرجل الكبير



أمومة . . وشباب . .



« زبيده » ام كمال اتاتورك، والمرأة الوحيدة التى كانت حياتها الخيط الوحيد الذى ربط كمالا بالبشر وعواطف البشر
(تصوير وايدرج)



صورة تاريخية نادرة لمصطفى كمال ابان حرب طرابلس ، وقد أطال لحيته وانقلب ذئباً من ذئاب الصحراء (تصوير وايدرج)



صورة لعلها أغرب صور كمال أتاتورك ، ويرى فيها بملابس تركية قديمة في إحدى الحفلات التنكرية التي دعي إليها وهو ملحق عسكري بسفارة تركيا في صوفيا

(مصور واعبرج)

بطل الحرب العظمى



الذئب واقف على رابية مشرفة على معركة الدردنيل ، ولعلك توافقني على أنه هنا «بشر فوق البشر» (تصوير واعبرج)



توءما الحرب والسياسة: كمال اتاتورك وعصمت اينونو في جبهة القوقاز (تصوير واشبرج)



هذه كومة من جماجم الأتراك والأستراليين الذين قتلوا في معركة الدردنيل وصفت هكذا لكثرتها .. وهي لا تزال هكذا إلى الآن . (تصوير واعمرج)

بطل حرب الاستقلال



أول مجلس عسكري عقد في أزمير برئاسة مصطفى كمال عقب طرد اليونان منها مباشرة . . .
(مصور واضح)

ذلك القره هو وزوجته لطيفة هانم وأركان حربه في معركة « دملوبونار »
(مصور واضح)





الصورة الوحيدة التي تمثل مصطفى كمال هو وزوجته لطيفة هانم في وضع هو أقرب ما يكون الى أوضاع صور العرس ..

(صورة واضحة)

ذئب انقرة وامضاؤه..



هنا يحنى الذئب بوجهه عبابر وعينه المتأهب ، وترى عن يمينه توقيعات اعظم رجال تركيا ، ومنها توقيع كمال نفسه ، وذلك بمناسبة عيد الجمهورية لاول (صور واعترح)

وقيع تركي باهر للغازي مصطفى كمال بالحروف العربية (صور واعترح)

حملة محمد كمال باور رجها ووقعه ، وقد كتب بالحروف اللاتينية حديثه

(صور و عرح)



رءوس

طربة، وبالقلق ، والقبعة ..

(تصوير واعيرج)



في عهد الامتيازات
الاجنبية المنقرضة ...
محكمة مختلطة تركية نجد
فيها القاضي الافرنجي
والقاضي الشرعي
والقاضي المطربش ...
(تصوير واعرج)

مع أتاتورك

في منزله الخاص



كان يشرب القهوة ويبحث في ساعة من ساعات الفراغ ، وإذا بيد تمتد إليه بأمر من أمور الدولة الخطيرة ...
(تصوير واعمرح)

منظر عام لمسكن كمال أتاتورك في منزله بأنقرة ، ونرى الأثاث مصنوعا على الطراز العربي الجميل
(تصوير واعمرح)





«كمال أتاتورك» يشرب القهوة في جلسة
هادئة بمنزل المشرف على القصر ..
(تصوير واعيرج)



كمال أتاتورك يتناول طعامه على مائدة غاية في البساطة .

(صور و تعرج)

ثالوث الحرب والسياسة



« عصمت اينونو » رجل الحرب والسياسة ، رئيس الوزارة التركية ، والرجل الذي لا يتكلم ولكن يعمل .. (تصوير وايجبرج)



« رشدي آراس » وزير الخارجية ، وداهية السياسة (تصوير وايجبرج)

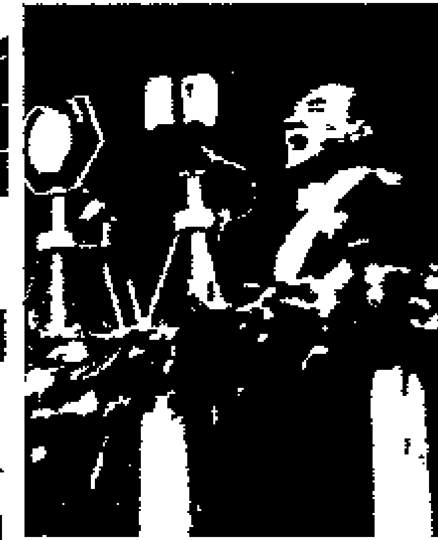


« فوزي » رئيس اركان حرب الجيش التركي ، والرجل الذي يعرف ارض بلاده شبراً شبراً .. (تصوير وايجبرج)



أول وزارة تركية في عهد الجمهورية ، ويتوسط الوزراء
كمال أتاتورك رئيس الجمهورية التركية (تصوير واعدج)





المجلس الوطني الكبير في أنقرة . ونرى في أعلى الصورة منظرا خطابيا رائعا لكمال أتاتورك

(مصور واعمرح)



كمال أتاتورك يستقبل
شاه العجم رضا خان
بهلوي ، وترى على
وجهي الرجلين
إبتسامة الود والمحبة
(مصور واضح)



الذئب أمام السبورة
وتراه يكتب الحروف
الجديدة ويعلمها
للجماهير إبان التحول
من الحروف العربية
الى الحروف اللاتينية
(مصور واضح)

الكتاب الاول

سلطنة تنهار

« إنه ضابط بارع . . . إنه زعيم ! »

لجاده فورد ساندرس

سنة ١٩١٥

طفل متمرد

سلانيك فى سنة ١٨٨٠

على رضا افندى رجل رقيق الحال يقوم بعمل كتابى صغير فى الجمرك

وزوجته « زبيدة » تمثل المرأة التركية إذ ذاك أصدق تمثيل ، فهى لا تعرف من العالم الا منزلها وطفلها الصغير « مصطفى » ، ولا تعرف من شئون السياسة والحكم الا أن الخليفة هو ظل الله فى الأرض ، وان له قوة سبعة من الأولياء !

وتمر السنون ، ويشب مصطفى عن الطوق ، فيلحقه أبوه بمدرسة صغيرة ملحقة بمسجد سلانيك ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، ثم يلحقه بمدرسة أخرى كان يديرها أحد الشيوخ ليحفظ القرآن ويتخرج فيها مقرئا من مشاهير المقرئين !

وبعد بضع سنوات يترك على رضا أفندي وظيفته فى الجمرك ويشتغل بالتجارة ، فتسوء حاله ويوشك على الافلاس ، ولا يحتمل جسمه المضنى تلك الصدمة القاسية فيموت قبل أوانه ، وتنتقل أرملته بعده الى قرية بجوار سلانيك

وهناك فوق نجاد القرية ووهادها يقضى مصطفى جانباً من طفولته فى اللعب واللهو ورعى الغنم ، ويكاد يصبح هملا بين الشبان ، لولا أن ترأف خالته بحاله فتأخذ على عاتقها أمر تعليمه وترسله الى مدرسة فى سلانيك

ويسأم مصطفى دروسه ويحن الى رعي الغنم فى القرية ، فيفر من عصا الشيخ التى لا ترحم ، ويعود الى أمه وخالته وقد صمم على نبذ المدرسة ، إلا أن تكون مدرسة حربية !

وبعد لأى تنقاد أمه لعناده ، ويوفده أحد ذوى قرباه الى المدرسة الحربية بسلانيك

ولا يكاد مصطفى يلبس الملابس العسكرية حتى يتقمصه روح جديد : روح الجندى الذى يهوى الصدام ويجد مثله الأعلى فى خوض غمار الحروب والموت تحت ظلال السيوف . ويحبه أساتذته لذكائه وتفوقه على أقرانه فى الفنون العسكرية والعلوم الرياضية ، ويذيعون عنه تفوقه هذا فيشار اليه بالبنان كلما مر فى طرقات سلانيك ، حتى لقد روى المؤرخ « شليكلين » * عن صديقه توفيق بك انه قال : « كنت أسير مع أبى فى طرقات المدينة ، فاذا رأينا مصطفى كمال أشار اليه أبى وقال لى : أترى هذا

---

* M. J. Schlikiin فى كتابه : "Angora : L'Aube de la Turquie Nouvelle"

الفتى ؟ سيكون له شأن أى شأن فى بلادنا العثمانية » . . .

وفى السابعة عشرة من عمره يتم مصطفى كمال دراسته فى مدرسة سلانيك ، فيلحق بمدرسة أرقى منها فى موناستير ، وهناك يتجلى نبوغه فى أروع مظاهره ، فاذا أقبلت العطلة الصيفية يعود الى سلانيك حيث يعكف على دراسة الآداب الفرنسية ، ويقرأ لفولتير وجان جاك روسو وفيكتور هوجو وغيرهم من أئمة الكتاب ، ويحرر المقالات الحماسية وينظم القصائد النارية فى الحرية والعدالة والمساواة ووجوب التحرر من نير الأجانب وعسف الخليفة عبد الحميد

ثم توفده ادارة المدرسة الى استامبول ليلتحق بمدرستها الحربية العليا ، وتذكره فى تقريرها عنه بالخير وتمتدح صلابة عوده وعبقريته . فيذهب الى استامبول حيث يتم دراسته العليا فى سنة ١٩٠٥ . ثم يلتحق بمدرسة أركان الحرب ليتخرج فيها ضابطاً كبيرا

ليسقط عبد الحميد !

ثلاثة أعوام بقيت للطاغية عبد الحميد . .

الضباط الملحقون بمدرسة اركان الحرب ساخطون متذمرون ، والثورة يوشك أن يندلع لهيبها . .

ضباط مدرسة اركان الحرب يجتمعون ذات يوم ويقررون تأليف جمعية ثورية تدعى « جمعية الوطن » . ويكون مصطفى كمال على رأس هؤلاء الثائرين

وتعمل الجمعية في الخفاء بضعة اسابيع حتى يكتشف الجواسيس أمرها ويرفعوا به تقريراً مسهباً إلى عبد الحميد . فتثور ثائرته ويقول : « حتى الضباط الذين غمرتهم بفضلي واحساني . . . » ثم يصدر أمره بتشتيت أعضاء الجمعية ، فيذهب اسماعيل حقي باشا مدير الادارة العسكرية إلى المدرسة ويحاول عبثا أن يتهم أحداً دون غيره بالتآمر على نظام الدولة ، فهم جميعاً أعضاء في الجمعية الثورية دون أن يثبت عليهم شيء . وأخيراً يصدر أمره إلى مدير المدرسة بالعمل على القضاء على تلك الجمعية الخطرة . .

ولكن هل يقف الامر عند هذا الحد ؟

كلا ! فان الاعضاء يعقدون اجتماعاتهم في الخارج ، ومصطفى كمال يدير تلك الاجتماعات بدقة تبرهن على تضلعه في الحركات الثورية والعمل من خلف الستار . أما في أوقات الفراغ فهو يحرر صحيفة الجمعية بقلم من نار . .

وأخيراً يضيق عبد الحميد ذرعاً بضباطه المتمردين ، فيصدر أمره بالقبض عليهم في حالة التلبس بالجريمة ، وسرعان ما يدهم الجنود مقر الجمعية ويحملون أعضاءها ـ وفي مقدمتهم مصطفى كمال ـ إلى السجن حيث يظلون بضعة أسابيع

ثم يأمر السلطان بالافراج عنهم وتشريدهم في مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية ، فتكون دمشق من نصيب مصطفى كمال

وهناك يؤسس مصطفى كمال فرعا لجمعية الوطن فينضم اليه عدد كبير من ضباط سوريا ، ويعمل الجميع سراً على خلع الطاغية عبد الحميد

ولما تهتز الاسلاك البرقية باشتداد ساعد الثورة التي كان يديرها رجال الاتحاد والترقي في سلانيك ، وبقرب زوال شبح الخليفة المستبد ، يصمم مصطفى كمال على اللحاق باخوانه في الجهاد ، فيخرق القوانين العسكرية ، ويغادر دمشق خفية وقد تزيا بزي أحد التجار ، ويعود إلى سلانيك عن طريق مصر فاليونان

ولكن أنى له التخفي وجواسيس الخليفة في كل مكان ! وهل تغفل عنه عيون السلطان وهو أخطر متآمر في جمعية الوطن ؟ هيهات . . فان الجواسيس يكتشفون فراره من دمشق فيرفعون تقاريرهم بذلك إلى الباب العالي ، فيصدر الأمر من الخليفة بالقبض على هذا الضابط المتمرد « الذي خرق النظم العسكرية بطيشه وغروره ... » ولولا أن صديقاً له ينذره بالخطر قبل وقوعه لكان يظل في غيابة السجن حتى ينجاب عهد الظلم ويخلع عبد الحميد . فيبادر بالسفر إلى اثينا ، ثم يعبر البحر إلى يافا حيث يهربه حاكمها من السفينة كما تهرب الممنوعات ، ثم يبرق الى الباب العالي زاعماً أن مصطفى كمال لم يغادر دمشق ، وأنه يؤدي واجبه كأحسن ما يفعل الجندي الساهر على تنفيذ إرادة ظل الله في الارض . . .

ويقيم مصطفى كمال في دمشق زهاء عام يقضيه في تأديب الدروز وتدخين النارجيله في قهوة صغيرة من قهوات دمشق . وان الذي يراه ليلمس فيه تلك الثورة النفسية التي كانت تجيش في قلوب الملايين من رعايا عبد الحميد

ولما تحسن التقارير التي يرسلها الجواسيس عنه إلى المابين ، يقتنع الخليفة بان

الضابط المتمرد عاد الى رشده واقلع عن أفكاره الجهنمية . ويسعى اصدقاؤه بدورهم في نقله ما وسعهم ذلك ، فيصدر الامر أخيرا بنقله إلى سلانيك . . إلى قلب الثورة . . برتبة (صاغ قول اغاسى)

لتحي الحرية !

هذا النقل أمنية مصطفى كمال الكبرى التى طالما سعى فى تحقيقها ، فهو محقق لآماله ، باعث أحلامه من عالم الخيال الى عالم الحقيقة . فيسافر الى سلانيك حيث يقيم فى منزل كبير ورثته والدته عن زوجها الثانى

سلانيك زاخرة بالضباط والجنود الثائرين . بيد أن هذه الثورة لا تزال مودعة فى قالب من الرصانة التركية خشية جواسيس المابين . وقد اتخذ أعضاء جمعية الاتحاد والترقى هذه المدينة مركزاً لثورتهم ، فالسائر فى أزقتها وطرقاتها يرى نفراً من أبرع المتآمرين وأخصبهم قريحة وأوفرهم حيلة

ولما كانت الجمعية قائمة على نظم مثيلاتها من الجمعيات السرية ، فهى تقصر أسرارها على أقدم الأعضاء ممن برعوا فى التآمر . أما مصطفى كمال وغيره من الضباط فلا يصلون الى (قدس أقداسها) بل يظلون فى فنائها الخارجى

فهل يقنع مصطفى كمال من الجمعية بنصيب (النفر) المجاهد ؟

كلا . . لقد جبل على أن يكون رئيساً ، فاذا قدر له أن يكون مرءوسا فليرأسه من يفوقونه ذكاء وحمية . . أما أنور ، وطلعت ، وجمال ، ونيازى وغيرهم فليسوا أهلا للرئاسة فى نظره . . .

وها هو ذا يجلس فى قهوة (يونيون بار) بسلانيك فيسمع نقاشاً بين الضباط موضوعه الزعامة ، ثم يرشحون لهذه الزعامة جمالا الذى لا يعترف هو بتفوقه بل يرى فيه رجلا أجوف يحاول أن يصبغ تصرفاته بصبغة العظمة الكاذبة فلا يفلح ، فيقول : « انهم لا يرون الرجل العظيم . . وإن رجلا يرى أن فلاح بلاده متوقف على جهوده ، ثم يبحث عن القدوة ليتشبه بها مؤمناً بأن نجاة البلاد لا تتم الا بهذا التقليد ، هيهات أن يكون رجلا فى نظرى . . . »

على أن عدم تقديره للقائمين بأمر الثورة لا يحول دون العمل على اذكاء نارها . .

فالثورة فى صالح بلاده . والحرية لا تنال إلا بالدماء . لذلك تراه يواظب على حضور الجلسات العامة ، كما يعقد جلسات خاصة فى منزل والدته التى تحبه وتخشاه : تحبه لأنه وحيدها ، وتخشاه لأنه ضابط لا يصيخ الى نصائح أمه الذهبية . . .

— مابالك يا بنى تتعرض للخليفة بسوء .. ألا تعرف أن له قوة سبعة من الأولياء ؟

فيجيبها مصطفى كمال :

— ان الرجل الذى تعتقدين فيه قوة سبعة من الأولياء لا يملك من القوة شيئاً . ونحن نجتمع هنا لننقذ الوطن من ظلم الظالمين ، وأنت يا أماه لا يصل إدراكك الى مثل هذه الامور . فهل يا ترى تنسين ابنك عندما تحاولين الاتصال بالأولياء السبعة ؟

موقف غريب ! . . .

فهذه الأم أصاخت السمع فى ليلة ليلاء ، فسمعت ابنها وإخوانه من الضباط يتهامسون ويتآمرون على خليفة المسلمين . . . وهى — لفرط حبها لابنها — تنصحه بالعدول عن هذا التآمر . . وهو — لفرط يقظته وتوجسه — يخشى أن تفضح أمه أسرار الجمعية لفرط سذاجتها وإيمانها بقوة السبعة الأولياء . . .

وأخيراً تتنهد أمه وتقول :

— انكم يا ولدى لا تلتمسون الحيطة لأنفسكم . . .

ثم تمر الأشهر سراعا . . . وتتعاون القوى الوطنية على القضاء على عهد الاستبداد وفى ٢٤ ابريل سنة ١٩٠٨ يخلع عبد الحميد ويجلس بعده على عرش الخلافة السلطان محمد الخامس

خيبة الامل . . .

قضى على الطاغية . وأعلن الدستور . وهتف العثمانيون : « لتحي الحرية ! » واستولى الثائرون على مقاليد الحكم

ووقف الذين حملوهم على الاعناق ينتظرون . . فطال انتظارهم . . ولم يروا إلا سلسلة من النكبات بدأت بثورة الالبانيين ، واضطرار الخليفة الى التوقيع على الاتفاق النمسوى التركي . وبه اعترف بضم البوسنة والهرسك إلى تركيا في مقابل سنجق نوفي بازار وتعويض مالي لا يكاد يذكر ، واعلان فردينند ملك بلغاريا

استقلاله التام ، ومطالبة جزيرة كريد بالانضمام الى اليونان ..

حكومة الاتحاد والترقى تفاجئها الحادثات فترتبك . والساخطون عليها لا يرحمون. يقولون : « ألهذا خلعنا عبد الحميد ؟ » فيقول أنصارها : « أليس عبد الحميد مسئولا عن تلك التركة المثقلة التى ورثناها عنه ؟ »

أما مصطفى كمال فنى مقدمة الساخطين الناعين مجد آل عثمان . ونقده يهوى على الحكومة كالمطارق . . والحكومة مضطرة ــ ازاء ذلك ــ إلى نقله الى مقدونيا حيث الحقته بالفرقة الثالثة

وهناك ينسى مصطفى كمال كل شيء إلا الواجب ، فتراه عاكفا على جنوده يدربهم ويبث فيهم روح البسالة والتضحية ، وعلى كتبه الحربية يستخلص منها أحدث فنون الحرب

وفي سنة ١٩١٠ توفده الحكومة إلى فرنسا في بعثة عسكرية برئاسة على رضا باشا لتمثيل تركيا في المناورات الحربية السنوية في (بيكاردى) ، فيرى الجيوش الاوربية الحديثة لاول مرة ، ويقف ــ مع زملائه الملحقين العسكريين بالسفارات الاجنبية ــ ليعرض الفرق . ويتناقش الملحقون في خطط الغداة : فيجمعون أمرهم على أن العدو سيكون غدا في المكان الفلانى . . فيعارضهم مصطفى كمال ويعين للعدو مكانا آخر . . وكم تكون دهشة الجميع عندما تصدق فراسته هو ويخيبون !

وينتهز فرصة وجوده بالقرب من باريس فيزور مدينة النور زيارة قصيرة ينهل فيها من مسرات العاصمة ويعب عباً

ثم يعود إلى تركيا فيجد قراراً من وزارة الحربية بتعيينه مديراً للمدرسة الحربية في سلانيك ، فيأخذ على عاتقه أمر تنظيمها ، وتتجلى قدرته التعليمية في أروع مظاهرها، ويعاوده سخطه على حكومة الاتحاد والترقي فيبث في طلبته روح الثورة عليهم : فهم يسوقون الوطن الى الدمار ، ويبيعون التراث الذى اغتصبوه من عبد الحميد بيعاً بخساً ، ويحنون الهام للنفوذ الالمانى ليتغلغل في صميم القومية التركية : في الجيش ، وفي السياسة . . .

ويشعر الصدر الاعظم محمود شوكت باشا بخطر هذا الثائر المتمرد ، فيبعده من المدرسة الحربية ويعينه قائدا للاورطة الثامنة والعشرين المشاة في سلانيك . . وهنا يترك مصطفى كمال الطلبة ويبث روح التمرد في الجنود . . فتثور ثائرة وزارة الحربية ،

ويطالب وزير الحربية بفصل مصطفى كمال ومحاكمته أمام المحكمة العسكرية . . ولكن أنى له ذلك وليس ثمة دليل واحد على ادانته !

لا . . الافضل نقله إلى وزارة الحربية في استامبول: ففيها يجد القائد الثائر نفسه أمام آلاف مؤلفة من الاتحاديين انصار الحكومة ، وفي هذا المحيط يعجز عن نشر مبادئه الثورية

وفي وزارة الحربية يرى مصطفى كمال عجباً : فالاتحاديون يستخدمون الخبراء الالمان بكثرة مخيفة . والالمان مهيمنون على وزارة الحرب . وفي كل يوم تستقدم طائفة منهم . .

مصطفى كمال لا يقبل هذا بحال . . فهو يرى أن تركيا للاتراك ، وان كان لا بد من استقدام الخبراء الالمان ، فليكن استخدامهم في المصالح الحكومية الاخرى لافي وزارة الحرب ، ورئاسة اركان الحرب !

ها نحن أولاء نراه كالبركان الثائر . ولكن من ذا الذي يعبأ بأقواله وكل شيء في يد الاتحاديين ؟

انه يجد طائفة من الضباط الساخطين على الالمان مثله . ولكن لعنة الله عليهم فهم يكتفون بالنقد همساً فاذا وجب اعلان الرأى ، مجدوا أولى الامر ورفعوا من شأنهم . . .

البدار البدار الى طرابلس !

٢٦ سبتمبر سنة ١٩١١
أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا . .

الخليفة ورجال حكومته يعجبون ، ويتساءلون : لماذا تعلن ايطاليا الحرب علينا ؟ ألم يصرح وزير خارجيتها فى ٩ يونيو الماضى بأن حكومته تعمل على سلامة الأملاك العثمانية فى افريقيا ؟ ألم يزر ولى عهد الخلافة مدينة روما فترحب به الحكومة الايطالية أجمل ترحيب ؟ ألم تقف ايطاليا موقف المحايد ابان الثورة الألبانية ؟ ما السبب إذاً ؟ !

لو أننا كنا نعيش فى ذاك الوقت لقلنا بلسان عصرنا الحاضر : ليس هناك سبب إلا الطمع الأشعبي . ففرنسا احتلت تونس والجزائر ، وايطاليا تريد أن تحتل طرابلس . . وما دامت الامبراطورية العثمانية مفككة الأوصال فويل للضعيف !

الاسلام يستنفر المجاهدين للحرب . .

أنور يسبق المجاهدين الى طرابلس

فتحى بك الملحق العسكرى فى باريس يعبر البحر الأبيض على مركب للصيد

ومصطفى كمال يخترق الأناضول ، فسوريا ، فمصر ـ وهنا تحاول انجلترا منعه ومنع جميع المجاهدين من اللحاق باخوانهم فى طرابلس ، ولكن الخديو السابق يفسد عليها خطتها ويهرب مصطفى كمال وزملاءه الى الحدود الغربية على خيول مطهمة ، وهناك تصدر الأوامر السرية الى ضباط الحدود بالسماح لهم بالمرور

وفى صباح ذات يوم يدخل مصطفى كمال خيمة القيادة العليا فى عين المنصور ، فيقوم له أنور ويصافحه بحرارة ، ويقول ان العداوة الشخصية شيء والجهاد شيء آخر ، وأنه ـ رغم كل شيء ـ معجب به وبكفاءته الممتازة ، ولذلك سيعينه قائداً للفرقة المواجهة لدرنة

لله على تلك الأيام الغراء وعلى مثلها العليا فى الجهاد والتضحية !

جيش من العرب مفتقر الى المؤونة والسلاح ، وعلى رأسه نفر من الضباط الأتراك يساعدهم السنوسى الكبير الذى دوخ الفرنسيين وها هو ذا يدوخ الايطاليين ، هذا الجيش يقاوم ايطاليا ذات الأسطول والعدد العديد والسلاح الذى لا ينفد والأمداد التى كانت تصل من ايطاليا بدون انقطاع . . عاماً كاملا دون أن يتيح لها شبراً واحداً من الأرض !

والأسطول الايطالى رابض على الساحل والعساكر الايطالية معسكرة فى الخنادق تحت ظلال الأسطول . ومع ذلك فالعرب والأتراك يكرون عليهم المرة تلو الأخرى فيزلزلون الأرض تحت أقدامهم فيفرقون . .

ولكن القدر الساخر يأبى إلا أن يمنح ايطاليا نصراً ساخراً ، فقد اندلع لهيب الثورة فى البلقان بفعل فاعل فى أكتوبر سنة ١٩١٢ فتخلت الحكومة العثمانية عن طرابلس وبرقة لتنقذ نفسها وترد العدو الهاجم على عاصمتها

أنور يعود مع السيد السنوسى فى غواصة ألمانية . ومصطفى كمال يعود عن طريق أوربا

أنور رجل الساعة

البلقان الآن ملتهب تكاد ناره تلفح استامبول

والدول البلقانية تطالب باستقلالها الذى مهدت له معاهدة برلين المشئومة فى سنة ١٨٧٨ ، وتعمل على إرواء حقدها الصادى من دماء الأتراك العثمانيين

والروسيا من خلف البلقان تسوق دويلاته إلى المعمعة

النكبات تتابع على الحكومة العثمانية : فالبلغاريون حاصروا ادرنة ووصلوا إلى (مصطفى باشا) و (قرق كليسه) وأشرفوا على العاصمة . . واليونانيون احتلوا معظم مقدونيا . . والصربيون استولوا على معظم ألبانيا ودخلوا موناستير . . ثم عاد اليونانيون فدخلوا سلانيك . . ولم يبق فى يد العثمانيين من أملاكهم الأوربية إلا أدرنة واشقودرة ويانيا ولسان غاليبولى والاقليم الواقع بين شاطلجة والبسفور . . .

ولو لم تتدخل دول أوربا فى الأمر وتقف رحى القتال لما بقى لتركيا شبر واحد فى الأرض الأوربية

ولكن تدخل الدول الأوربية زاد الطين بلة ، فقد عرضت على تركيا معاهدة صلح لا قبل لها باحتمالها . ودعا الصدر الأعظم كامل باشا مجلس الوزراء للموافقة عليها استسلاماً للأمر الواقع

وعندئذ يثور أنور الذى عاد من طرابلس أخيراً ليرى بعينيه وطنا يهان ، وامبراطورية يتقلص ظلها ، فيقرر أحد أمرين : إما استرجاع الاملاك البلقانية ، وإما ضياع الوطن نفسه . . !

وهكذا كان أنور على طول الخط !

هوذا يدخل ديوان مجلس الوزراء فى طليعة الضباط المتحمسين . . هوذا يقتحم باب الوزراء فى أثناء توقيعهم شروط الصلح .. فيعترضه ناظم باشا وزير الحربية ، فيطلق عليه رصاصة من مسدسه تصرعه لتوه . . .

الوزراء يهرولون إلى الخارج وقد ملأ قلوبهم الذعر . . وأنور يعدو خلفهم مصوبا فوهة مسدسه إلى ظهورهم

حتى إذا ما خرجوا من ديوان الرئاسة اعلن سقوط الوزارة ، وتولى شوكت باشا رئاسة الوزارة الجديدة . أما هو فيحجز لنفسه وزارة الحربية

ويجتمع مجلس الوزراء فيقرر رفض شروط المعاهدة ، والدفاع عن الوطن المنكوب إلى النهاية . .

ويضع أنور خطة حربية لتخليص ادرنة من البلغاريين ، خطة جريئة ليس فيها شيء من التعقل . ويكون مصطفى كمال أول من يعترض عليها ويثبت فسادها . بيد أن أنور لا يقبل النقاش ، فتسير جحافله لملاقاة جيش البلغار ، وسرعان ما تفر أمامه كما تفر الانعام . . .

وفي ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ تسقط ادرنة في يد البغاريين بعد دفاع جليل باسل . وتشرف استامبول نفسها على الضياع

فتتدخل الدول الأوربية مرة أخرى وتملي على حكومة شوكت باشا شروط صلح اثقل من الشروط التي أملتها على الحكومة السابقة ، فتقبلها رغم انفها

ويتساءل مصطفى كمال : ماذا فعل أنور ؟

بيد أن المنازعات لا تلبث أن تقوم بين دول البلقان ، وتبدأ الحرب بين بلغاريا والصرب واليونان ، فينتهز أنور تلك الفرصة ويفاجيء ادرنة بقوات كبيرة فيدخلها دخول الظافر في موكب تاريخي تحف به الأعلام والأكاليل

ويسير مصطفى كمال كاسف البال في موكب النصر وكأنه يقول للمرة الثانية :

— أجل . . ماذا فعل أنور ! ؟

عناكب الالمان

قوبل استيلاء أنور على أدرنة بفرح شامل وسمت شخصيته حتى بلغت أوج العظمة

وأنور — كما نعلم — صديق للألمان يرى فيهم المثل الأعلى للمدنية الأوربية المادية

ومن ثم بدأ الالمان يلعبون دورهم بمهارة فائقة ، إذ كانوا على أبواب حرب طاحنة ، وكانوا يريدون الوثوق من تركيا واتخاذها حليفة لهم وتكأة يعتمدون عليها في الميدان حتى تكون شوكة في ظهر انجلترا والروسيا ودول البلقان المعادية

فتقرب سفير المانيا في استامبول الى أنور وأصبح نديمه وجمع أسراره ، وحاز ثقته العمياء بعد أن أقسم له على أن المانيا ستقف دائماً في صف حليفتها تركيا . ثم أطلعه على ما كانت انجلترا تحيكه من خيوط الدسائس منذ سنة ١٩٠٨ ، وكيف أنها حاولت

القضاء على حكومة الاتحاد والترقى الناشئة ، كما حاولت بث روح العداء والشقاق بين أعضاء الجمعية أنفسهم مما أدى الى خروج بعضهم عليها وتقريبهم الى السياسة الانجليزية

والحق يقال ان تركيا كانت فى ذاك الوقت مزرعة خصبة لسياستين متضادتين : السياسة الانجليزية ، وترمى الى احباط الأتراك ودفعهم الى مواطن الضعف والتورط ، والسياسة الالمانية التى كانت تحارب الانجليز وتحاول أن تتخذ من تركيا حليفة لها فى الحرب المقبلة

واجتمع مؤتمر السفراء فى سنة ١٩١٢ ليصدر قراراته ضد تركيا . فلم يرتفع فيه صوت منصف الا صوت سفير المانيا البارون فون مارشال ، فقد قام يدافع عن تركيا ويحاول أن يثبت أن أساليب المؤتمر لا شك فاشلة . ولما سقطت وزارة كامل باشا (التى خلفت حكومة الاتحاد والترقى ـ وكانت انجليزية النزعة) تحت تأثير الرأى العام يدفعه الألمان من وراء ستار ، كان هذا فوزاً جديداً للسياسة الالمانية

وقد بلغ نفوذ الالمان أوجه فى سنة ١٩١٤ عندما رفضت انجلترا تسليم المدرعتين التركيتين « سلطان عثمان » و « رشيدية » المصنوعتين فى الأحواض الانجليزية ـ ولم تكن تركيا قد دخلت الحرب بعد ـ فقد اعتبر هذا الرفض عمــلا عدائياً من شأنه أن يقضى على نفوذ انجلترا فى تركيا قضاء مبرما ، وأن يدفع الأتراك الى أحضان المانيا التي احتضنتهم وتبرعت لهم بمدرعتين (هما جوبن وبرسلاو) . . وسرعان ما دخلت المدرعتان المياه العثمانية وسط عاصفة من الهتاف لالمانيا الصديقة . . .

وبهذه المناسبة نذكر أن جمــال باشا صرح فى مذكرته بأن المانيا لم تتبرع بهاتين المدرعتين بل اضطرت لذلك اضطراراً ، فقــد أعلنت الحرب العظمى والمدرعتان بالقرب من الميــاه التركية ، فدخلتاها للاحتماء فيهــا ، ومن ثم قامت مشكلة دولية : فتركيا لم تدخل الحرب بعد ، وسفيرا انجلترا وفرنسا يطلبان تسليم المدرعتين ، وسفير المانيا يأبى الا أن تتحمل تركيا تبعة هذا الموقف الشاذ ولو بدخول الحرب فى صف المانيا ــ ولعل ذلك كان غرض المانيا من إرسال المدرعتين الى المياه التركية فى تلك الأزمة العصيبة ــ فمال أنور الى قبول الدخول فى الحرب ضد الحلفاء ، ولــكن أعضاء الوزارة نصحوه بالتريث ، واقترح أحدهم أن تتظاهر المانيا بأنها باعت المدرعتين لتركيا قبل الحرب ، وأنها الآن تسلم البضاعة . . وفعلا وافقت الحكومة الالمانية على هذا الاقتراح العجيب ! . . .

وشاعت فى تلك الأثناء اشاعة ـ أيدتها المصادر الرسمية ـ بأن المطالب التى قدمتها تركيا ـ نظير انضمامها للحلفاء ـ (وهى الغاء الامتيازات ، وإرجاع الجزر العثمانية ، وإزالة الشبح الروسى ، وحل المسألة المصرية) لم تجب ، وأن استامبول منحت للروسيا نظير مساعداتها للحلفاء ، فزاد ذلك فى سرعة التقرب بين المانيا وتركيا

وفى ذات يوم زارت خالدة أديب جمال باشا وزير البحرية ، فقالت له فى معرض الحديث عن الحرب : « أخشى أن أقول يا باشا ان حكومتنا مندفعة نحو الحرب . . » فضحك جمال باشا وقال : « لا يا خالدة هانم لن ندخل الحرب . . . » فقالت : « وأنى لكم ذلك ؟ » قال : « ان لى من القوة ما يرغمهم على عدم الدخول فى الحرب . واذا فشلت فسأستقيل . . ان الحرب عمل جنونى . . . »

وكان جاويد بك وزير المالية على هذا الرأي أيضاً

على أن الصدر الأعظم سعيد حليم ومعظم رجال وزارته كانوا يميلون الى الحرب. بل قيل ان التحالف التركى الألمانى تم فى ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ ـ أى قبل أن تدخل تركيا الحرب بأكثر من شهرين ، ولم يكن حياد تركيا المؤقت إلا ذراً للرماد فى العيون . ولو أنها كانت تريد البقاء على الحياد لما استبقت الضباط الالمان فى خدمتها بعد دخول المانيا الحرب

وكأن الالمان كانوا يريدون أن يكون الاجماع تاماً على دخول تركيا الحرب ، فأوعزوا الى الصدر الأعظم أن يقنع جمالا بوجهة نظره ، وقابل البارون فون فانجنهايم سفير المانيا جمالا بنفسه وقال له : « يا جمال باشا . . ألا ترى ما أداه الضباط الالمان لكم من الخدمات الجليلة فى وقت قصير ؟ ان لديكم الآن جيشاً يقارن بأحدث الجيوش نظاماً ، وإنا واثقون من الظفر اذا استطعنا أن نكون حلفاء لأمة مثل امتكم لها مثل هذا الجيش ! »

ولكن جمالا أصر على رأيه ، وكذلك فعل جاويد بك . فأمضى التحالف التركى الالمانى سراً دون أن يطلع عليه هذان الوزيران . بل قيل ان معظم الوزراء لم يطلعوا عليه إلا بعد أن أصبح حقيقة لا مفر منها . .

ثم انضمت بلغاريا الى صف المانيا فتعزز مركزها فى البلقان . وتلت ذلك هزيمة المارن فتعزز مركزها فى غرب أوربا . وأخيراً نشبت معركة ـ لا زالت حقيقتها غامضة ـ بين السفن التركية والسفن الروسية فى البحر الأسود ، وكانت السفن

الروسية تضع الألغام فى المياه التركية ، فأعلنت تركيا دخول الحرب فى صف ألمانيا تحت ضغط كل هذه الظروف فى ١٨ أكتوبر ١٩١٤

واستقال جاويد بك وبعض الوزراء . أما جمال باشا فلم يستقل ! *

من صوفيا .. إلى جناق قلعة

شهد مصطفى كمال الصراع الهائل بين التيارين : الألمانى والانجليزى ، وكان لا يميل إلى دخول الحرب فى صف ألمانيا وحسب ، بل يرى فى الحرب كارثة عظيمة تحيق بالامبراطورية العثمانية

فلما برم به أنور ، تخلص منه بأن عينه ملحقا عسكريا بسفارة تركيا فى صوفيا ــ وكان السفير إذ ذاك فتحى بك الذى عرفناه فى حرب طرابلس

والآن ــ وتحت ضغط الظروف القاهرة ــ يذهب مصطفى كمال إلى صوفيا وكأنه ذاهب إلى المنفى .. وسرعان ما تعلن تركيا دخولها الحرب .. فيقع عليه هـذا الخبر وقوع الصاعقة ، ويقول فى مذكراته واصفا هواجسه :

« كنت إلى ذلك العهد غير مصدق ما حدث ، ولم أكن اعتقد أن تركيا ــ التى يستدعى دعوة جيشها إلى حمل السلاح شيئاً كثيرا من الروية ــ تدخل الحرب بتلك السرعة أثر حادثة بسيطة وقعت فى البحر الاسود ، ولا أعلم إلى اليوم كيف وقعت .. وكنت أشكو من دخولنا الحرب ، ولكن شكواى كانت تقابل بفتور ، وضرب بتنبؤاتى عرض الحائط ، لأنى لم أقتصر على التأفف من دخولنا الحرب ، بل كنت أقول بهزيمة ألمانيا وحلفائها الذين دخلوا الحرب معها .. وكانت أقوالى فى ظرف يكذب ادعائى : لأن ألمانيا كانت تتقدم بخطوات واسعة قوية نحو باريس .. فى هذا الظرف الغريب ، وفى هذا الزمن الذى اصبح الناس فيه يلهجون تلين بنتيجة الفوز المحقق لالمانيا وحلفائها ، يقوم ملحق عسكرى فى صوفيا فيبدى ملاحظات غريبة لرجال عديدين فى الآستانة ، ويسود لهم صفحات مطولة محاولا اقناعهم بأن تركيا تأتى أمرا

---

* بعد كتابة ما تقدم قابلت رءوف بك فى زيارته الأخيرة للقاهرة وسألته عن أسباب دخول تركيا الحرب فى صف المانيا ، فذكر من الأسباب ما لا يخرج عما ذكرناه آنفاً ، وزاد عليها أن تركيا ــ بدخولها الحرب مع المانيا ــ انما كانت تدافع عن كيانها ، ولو أنها بقيت على الحياد لراحت للأعداء غنيمة باردة

منكراً بدخولها الحرب . ألا يكون مثل هذا الرجل مجنونا ؟ وهل يستحق غير هذا الحكم في مثل هذا الزمن ؟ »

بيد أنه ـ رغم كل ذلك ـ ابن بار لوطنه ، وما دامت تركيا دخلت الحرب فلابد له من دخولها ، وليست « حياة الصالونات » ـ على حد تعبيره ـ تتناسب مع رجل الحرب والكفاح . .

إذاً لابد من العودة إلى الوطن ، وقيادة الجيوش في ميادين القتال ..

هانحن أولاء نراه جالسا إلى مكتبه يحرر طلبا بالعودة إلى وظيفته في الجيش العامل .. ولكن القيادة العامة لا ترتاح إلى هذا الطلب ، وأنور لا يرحب بعودته ، بل يرجو منه أن يظل في صوفيا « نظراً لأهمية وجوده فيها . . »

فيجيب مصطفى كمال بقوله : « لا توجد وظيفة أشرف أو أجل من الوظائف العملية للدفاع عن الوطن . وأنا لا أستطيع أن أظل هنا ملحقاً عسكريا بينا أرى إخواني وزملائي يقومون بواجبهم في ميادين الحرب وخطوط النار . . »

ولكن الرد يتأخر .. فتثور ثائرته ، ويصمم على خرق القانون والعودة إلى وطنه دون إذن من القيادة العامة ، ولو أدى ذلك إلى أن يذهب إلى ميادين القتال كجندي متطوع . . .

وأخيراً تصله برقية تقضي بتعيينه قائدا للفرقة التاسعة عشرة ، وتطلب عودته على جناح السرعة . .

فيعود إلى الآستانة . ويسرع إلى وزارة الحربية حيث يتقدم إلى كبار موظفي الوزارة ليتعرف على فرقته ، فيقولون ـ أي والله هكذا . . . ـ انهم لا يعرفون فرقة تدعى « الفرقة التاسعة عشرة » !

ويصبح الموقف شاذا غريباً :

قائد بلا فرقة . . وموقف كموقف الرجل النصاب المزور ..!

على أنه ـ بعد البحث الطويل ـ يصل إلى فرقته . . ثم يذهب لمقابلة ليمان فون ساندرس رئيس هيئة أركان حرب الجيوش التركية بناء على طلبه ، فيسأله فون ساندرس أن يدلي بمعلوماته ـ كملحق عسكري في سفارة صوفيا ـ عن سبب احجام بلغاريا عن دخول الحرب في صف المانيا ، فيجيبه مصطفى كمال بكل بساطة :

ـ لأن بلغاريا كانت تشك في نجاح المانيا . . .

فينفعل ليمان فون ساندرس ويسأله عن رأيه الخاص ، فيعرب له عن تنبئه بفشل المانيا ! !

بطل الدردنيل

كان نلسون يقول : « كل بحار يهاجم القلاع أبله . . »

بيد أن المجلس الحربى الذى تألف فى ١٣ يناير سنة ١٩١٥ من ونستون تشرشل اميرال البحر ، وكتشنر وزير الحربية ، وفيشر ،ولويد جورج ،واسكويث ، لتقرير حملة الدردنيل لم يعبأ بكلمة نلسون . . وقد يكون معه بعض الحق ، فقلاع الدردنيل عتيقة لا تقوى على مدافع البوارج الانجليزية الضخمة

ثم إن الروسيا كانت فى شبه عزلة . وكان ما يقرب من مليون جندى فى حاجة ملحة إلى السلاح . فكان لا بد من النفوذ اليهم : إما من بحر البلطيق ، وإما من الدردنيل . وكفة الدردنيل هى الراجحة

وافتتحت الجلسة بكلمة من تشرشل فى وجوب الموافقة على حملة الدردنيل . ثم تلى تقرير مدير الأعمال الحربية الذى قال ان هذه الحملة تتطلب نفقات هائلة وعدداً من الجنود لا يقل عن ٦٠ الف جندى . ثم تلى تقرير آخر من الاميرال جاكسون قال فيه : « ان من البلاهة أن ندخل بحر مرمرة قبل أن يحتل جنودنا شبه جزيرة غاليبولى وتقضى على كل مقاومة للاعداء .. ولابد من احتلال استامبول وما جاورها أيضاً . . » ثم قرىء رأى الاميرال كاردن ونوقشت خطته الحربية التى تقضى بالتقدم على دفعات متتالية

وعقد اجتماع ثان فى ٢٨ يناير فكان كالاجتماع الأول ، وان تكن الروح المعنوية فيه أشد هبوطاً . . وران على المجتمعين الشك المريب ، وظهر على اميرالات الاسطول التردد ، وهدد فيشر بالاستقالة . . فأخذه كتشنر إلى ركن من قاعة الاجتماع وتحدث إليه ملياً ، ثم دفعه إلى كرسيه فى شىء من الخشونة . .

وأخيراً تقرر القيام بحملة الدردنيل : بالبوارج !

* * *

فبراير سنة ١٩١٥

مياه الدردنيل ساجية وشواطئه لا ترى عليها أثراً لجندى أو مدفع . . فاذا أمعنت النظر فى المياه رأيت تسع شبكات من الالغام ، وفى الشواطىء رأيت القلاع والجبال تخفى عشرات الألوف من الجنود

البوارج الانجليزية « اندوميتابل » و « انديفا تيجابل » و « جلوشستر » و « وورپور » و « دبلن » و « كوين اليزابث » و « ترايمف » و « نلسون » و « أغا ممنون » الخ الخ . . . . والفرنسية « سفرر » و « فريق » و « لوجالوا » و « شارلمان » و « سانت لويس » مرابطة على أبواب الدردنيل

وفجأة يصدر الامر بالهجوم على القلاع : فتصب البوارج قذائفها على قلعتى « سد البحر » و « ارطغرل » على الشاطىء الأوربى ، و « قوم قلعة » و « أوزانية » على الشاطىء الاسيوى ، ويحاول الاسطولان الانجليزى والفرنسى انزال الجنود إلى الشاطىء ، ولـكن هيهات : فقلاع الدردنيل العتيقة تصد البوارج ، وهاهى ذى كلمة نلسون تتحقق إذ تثبت بلاهة مجلس الحرب . .

ولـكن هل اقتنع تشرشل وكتشنر ولويد جورج واسكويث ؟

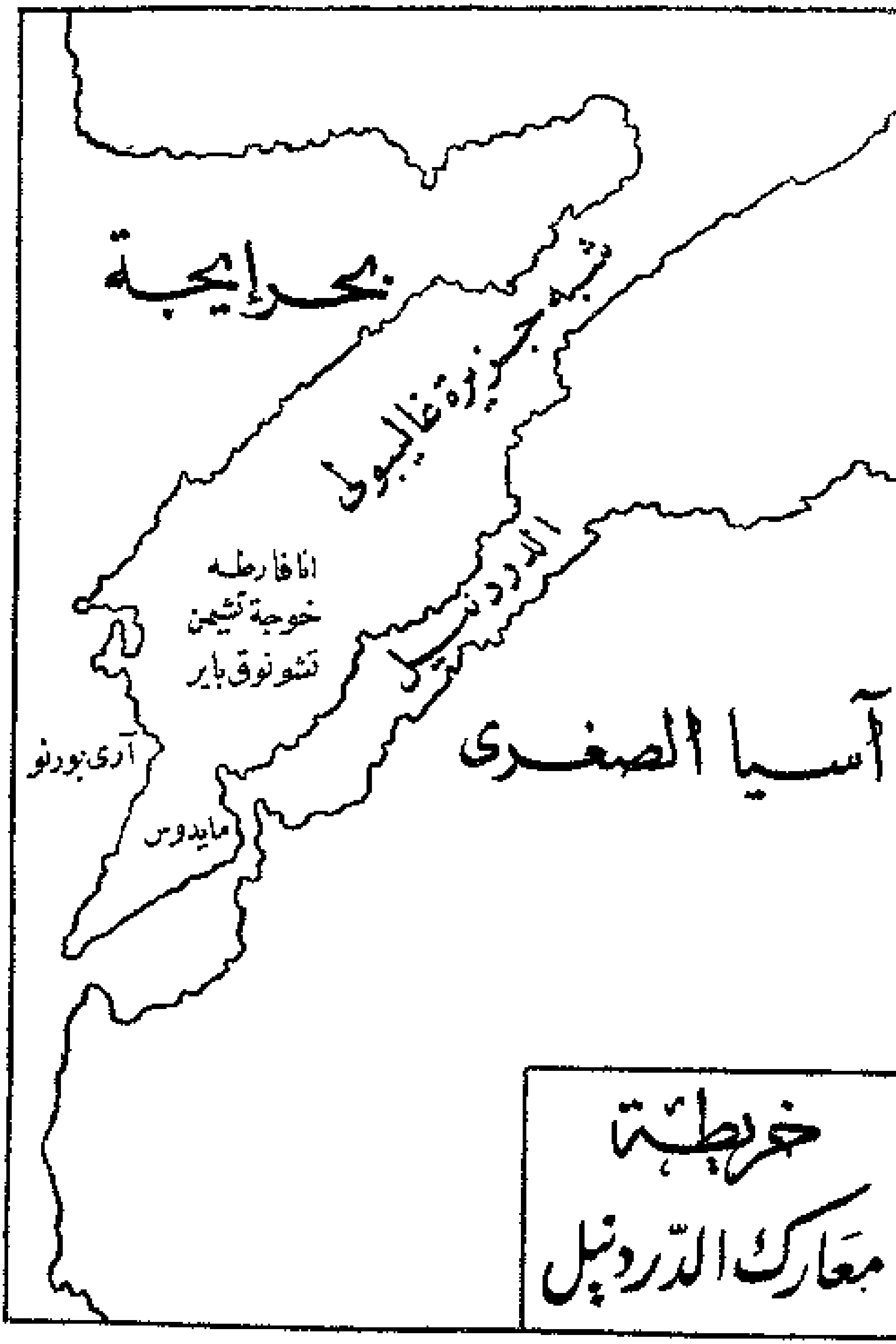
كلا . . فها هى ذى برقية من تشرشل تقول : « إذا لم يكن من الخسائر بد فان الغاية تبرر ضياع بعض قطع الاسطول . . » لأنه « لابد من شطر الامبراطورية العثمانية إلى شطرين وتغيير وجه التاريخ . . » ومن الواجب « اسكات قلاع المضيق بكل ما لديكم من المدافع . . »

الاميرال كاردن يعود الى مالطة لأنه مريض ، فيتسلم القيادة الأميرال روبك ، ويظل فى حيرة من أمره فتنتهز المدمرات التركية تلك الفرصة لتعاود تلغيم الدردنيل

وفى صباح ١٨ مارس يصدر الأمر إلى قطع الاسطول بالهجوم ، فتدنو من الطوابى التركية تصب عليها نيرانها أكثر من ثلاث ساعات ، فتصيبها بعطب كبير ، ولـكن الطوابى من ناحيتها تغرق وتعطل ست بوارج كبيرة

وفى منتصف الساعة الثالثة تتقدم قطع أخرى من الأسطولين ، فتصاب قطعتان منها بقذائف الأتراك وتغرقان . . .

وفى منتصف الساعة الثامنة يعود الأسطولان : الانجليزى والفرنسى الى عرض البحر وقد خسرا ثمانى قطع من أكبر قطعهما ! !


بحر إيجة
شبه جزيرة غاليبولي
الدردنيل
انافارطه
خوجة تشمن
تشونوق باير
آري بورنو
مايدوس
آسيا الصغرى
خريطة
معارك الدردنيل

فثبتت حماقة مجلس الحرب للمرة الثانية

ويبرق قواد الأسطول الى لندن ملحين فى طلب القوات البرية

وأخيراً يقتنع تشرشل وكتشنر بضرورة الهجوم البرى ، فيوفد كتشنر زميله الجنرال أيان هاملتون الى الدردنيل لقيادة القوات البرية ، ويقول له : « لا أريد منك أن تكسب موقعة واحدة ، بل يجب أن تكسب الحرب كلها . . . »

ثم يأمر الجنرال بيردوود قائد القوات الاسترالية فى مصر بالتوجه الى الدردنيل بقواته الهائلة

ويرى ايان هاملتون أن جنوده ينقصهم التدريب العسكرى ، فيرسلهم الى الاسكندرية حيث يدربون ويعودون الى ميدان القتال

وتمر بضعة أسابيع فى نقاش طويل وجدال فى وجهات النظر ، وأخيراً يقر القرار على انزال الجنود فى البر فى يوم ٢٥ ابريل

وفى صباح هذا اليوم يخطب هاملتون فى الجنود قائلا :

« يا جنود فرنسا ! يا جنود الملك ! نحن مقبلون على عمل لم يسبق له مثيل فى الحرب الحديثة . وسنتعاون مع اخواننا بحارة الأسطول لانزال قواتنا الى شاطىء مفتوح أمامه مواقع يحاول أعداؤنا أن يثبتوا أنها لا تنال بالحرب . فاذا وضعتم أقدامكم على شبه جزيرة غاليبولى فقاتلوا حتى ننتصر نصراً حاسما . . العالم كله يتطلع الى تقدمنا فأثبتوا أننا بالثقة العظيمة التى وضعت فى جيشنا جديرون . واطمئنوا دائماً الى دعاء الملك »

* * *

والآن لندع الأسطول الانجليزى الفرنسى يستعد للمعركة ، ولنتجه صوب الساحل فأين نرى مصطفى كمال ؟

نراه فى الجزء الجنوبى من شبه جزيرة غاليبولى قائداً لجيش من الجيوش المدافعة عن الدردنيل ، ونسمع مشاحنات لا تنقطع بينه وبين ليمان فون ساندرس ، ثم نسمع ليمان يقول رغم ذلك : « انه ضابط بارع . . انه زعيم . . . »

ويعود أنور من حملة الروسية الفاشلة ويعرف أن غريمه كمالا يقود جيشاً فى الدردنيل ، فيغضب ويأمر فون ساندرس بابعاده . . . ولكن فون ساندرس يفرق بين الخصومة والمنفعة ، ولذلك نراه لا يعبأ بأمر أنور ويعين كمالا قائداً للفرقة التاسعة

عشرة فى منطقة مايدوس على شاطىء غاليبولى ، فى المنطقة التى ستبدأ فيها المعارك . .

. . . .

فجر يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩١٥

البحر ساكن لا تتحرك فوقه مائجة . والساحل هادىء فى انتظار عشرات الألوف من القتلى الذين سيدفنون فيه

الانجليز يقتربون من الساحل بمدرعاتهم ، ويوجهون قلب هجومهم الى المنطقة التى ينتظر فيها مصطفى كمال

ولكن التيار قوى . . وهو يدفع النقالات من جهة (قاباتبه) الى (أرى بورنو)

ويجد الاستراليون أنفسهم فى مواجهة مرتفعات (تشونوك باير) فيتسلقونها

وبمحض المصادفة يكون مصطفى كمال على مقربة من تلك القمة . فيرى الجنود الأتراك فى حالة تشبه المهجوم . فيسألهم : ما الخبر ؟ فيقولون ان الانجليز شرعوا فى الهجوم . .

فهل يتردد مصطفى كمال ؟ وهل ينتظر الأوامر من رئيسه الأعلى فون ساندرس ؟

كلا . فالدقائق تمر سراعا . وكل دقيقة تمهد لانتصار الانجليز

إذاً ليأخذ المسئولية على عاتقه وحده

« هلم أيها الضباط إلى قمة (تشونوك باير) ! »

ويسير فى الطليعة والضباط خلفه يتعثرون فى الصخور . حتى يبلغ القمة فيرى منظراً مفزعاً : فالاستراليون أوشكوا أن يبلغوا القمة . .والرصاص ينهال عليه كالمطر . .

« اسرعوا إلى المعسكرات واستدعوا الجيش ! »

وفى دقائق معدودات تصل الفرقة السابعة والخمسون . فيقذف بها فى وجه الأعداء . .

ثم تصل فرقة المدفعية ، فيدفع بعض المدافع بنفسه ويقذف بها فى وجه الاعداء أيضاً . .

وتصل فرقة أخرى فيأمرها بالهجوم . . وتدور على مرتفعات (تشونوك باير) رحى معركة تشيب لهولها الولدان ، وأخيراً يقف الاتراك تقدم الاستراليين !

الليل يشهد استمرار المعركة . واليوم التالى يمر عصيباً على المقاتلين . فتخور قوى الجنود ويقاسون أهوال الحرب والجوع والظمأ

ولكن هل يتركهم مصطفى كمال يستريحون فيفقد المعركة ويتيح للاعداء نصراً سوف يغير وجه الحرب العظمى ؟

انه يقف فى وسط المعمعة بأعصاب من فولاذ ، فيشجع جنوده تارة ويحمسهم

ويطمئنهم ويهدم أخرى بصوت كالرعد . . ويظل فى هذا الجحيم حتى تخور قوى الاستراليين أيضاً ويقفون رحى المعركة دون بلوغ القمة ، فيتنفس الصعداء فقد انقذ مرتفعات (تشونوك باير) التى تعتبر مفتاح غاليبولى ، بل مفتاح استامبول نفسها

* * *

وتشرق شمس اليوم التالى على خنادق انجليزية وأخرى تركية تضم فى جوفها أكثر من مائة وعشرين ألف مقاتل

وناهيك بحرب الخنادق وويلاتها !

فالأرض صاخدة ، والسماء ملتهبة ، والهواء خانق ، والريح تسفى الموت كلما هبت شمالا أو جنوباً ، والقذائف تنهال على الجنود ، حتى إذا ما هدأت المصارع خرج جنود الموت من بين الخرائب كالأشباح ليواروا موتاهم التراب جماعات بعضها فوق بعض . وانك لترى كلا بين هؤلاء الجنود يؤدى واجبين : واجب المساهمة فى دفن رجاله ، وواجب التجسس على الاعداء والكشف عن مخابئهم

انه لا يتعب ولا ينام . ويدير حرب الخنادق وكأنه ولد فى الخنادق . والقواد الأتراك والالمان الذين يعملون معه يشعرون بأنهم لا يؤدون عملا قط . فهو سيد الميدان دون منازع

أما الجنود فتحدث عن بطولتهم ما شئت :

فهذا الجندى الواقف فى وجه الموت يدع بندقيته جانباً ويخرج لفافة من التبغ ليدخنها وهو ساكن هادىء كأنه جالس فى منزله وبين أهله . وذاك يدفن الموتى من الأتراك فيرى بينهم ضابطاً استرالياً جريحاً يهتف : « Mother ! Mother » أى : « أمي . . أمي . . » فتأخذه الشفقة فيحمله على ظهره ويتجه به صوب الأعداء . . صوب الرصاص المنهمر ولا يخشى الموت فى سبيل أداء واجب انسانى . فيراه الاستراليون فيقفون اطلاق الرصاص وينتظرون كأن على رءوسهم الطير . حتى يدنو منهم ويسلمهم جريحهم ، فتنهمر دموع الشكر من أعينهم ويقدمون له الحلوى والتبغ ، فيرفض قبولها . .

مصطفى كمال يرى ويسمع كل ذلك . فيكون لجنوده خير قدوة . ومن ذلك ما يرويه عنه كبار أركان حربه : فهو يخرج من الخنادق ليشرف على الميدان بنفسه ، فيراه الاستراليون ويقذفونه بآلاف من الطلقات . . ويشعر الضباط بحرج الموقف فيتوسلون اليه ألا يعرض نفسه للتهلكة ، فيقول : « كيف أخاف وجنودى لا يخافون؟ »

ثم يمد يده الى جيبه فيخرج لفافة من التبغ ويشرع فى تدخينها بكل هدوء ، ويتحدث إلى ضباطه حديثاً طويلا . حتى إذا ما احترقت اللفافة عاد إلى الخندق بكل بساطة وكأنه لم ينج من الموت بأعجوبة . .

وفى الليل ـ إذ يجلس كمال فى خيمته ـ تراه يداعب بأصابعه بيانو كبيراً جلبه معه من استامبول . . وهذا البيانو ـ مع عدد من السجاجيد العجمية الأصيلة ـ هو كل ما يملك هذا الجندى من وسائل الترف فى جحيم غاليبولى

* * *

وتظل حرب الخنادق على أشدها حتى يرى مصطفى كمال أن أعصاب جنوده لم تعد تحتملها ، فيفكر فى الهجوم كعلاج شاف لأعصابهم ،وكانت حالة الميدان تسمح بهجوم موفق . ولكن سوء الطالع يحمل أنور على زيارة خطوط النار فى ليلة الهجوم ، فيرفض خطة كمال ويسخر منها . وتقوم بين الرجلين مشادة عظيمة تتسرب إلى الضباط ، ثم إلى الجنود ، فيفكر كمال فى الاستقالة ، ولكن فون ساندرس يهدىء من روعه ويحمل أنور على الموافقة على الهجوم

بيد أن الجنود كانوا قد سمعوا بالمشادة ـ وكان الواجب يقضى باصدار الامر اليهم ساعة الهجوم ولذلك يفشلون فى هجومهم ، ويبتسم أنور ابتسامة الشماتة فيقدم كمال استقالته فى الحال . فيعود فون ساندرس إلى سابق سعيه ويلح عليه في وجوب سحبها

* * *

وفي ليلة أغسطس يشرع الانجليز فى هجوم جديد على مرتفع (خوجه تشيمن) بعد أن يئسوا من (تشونوك باير) ، فيزحف عليه ستة عشر ألف استرالى ويكادون يبلغون القمة ، لولا مبادرة كمال إلى إرسال النجدات إلى القوات المدافعة عنها . فاذا ما أصبح الصباح وقف الاستراليون القتال . فينتهز كمال الفرصة ويزيد فى القوات المدافعة عن المرتفع ، وبذا يفوت عليهم فرصة الاستيلاء عليه

الانجليز فى حالة عصبية . والبرلمان الانجليزى يحمل على لويد جورج وكتشنر وتشرشل ويطالبهم بسرعة كسب المعركة

كتشنر يبرق الى السير ايان هاملتون يسأله عن أسباب هذا الفشل المتكرر ، ويصدر أوامره بالهجوم المتوالى العنيف

فيهجم الانجليز فى فجر يوم ٨ أغسطس من جهة خليج (سلفا) و (انا فرطة)

بغية الوصول الى مرتفع (تشونوك باير) . وتتدفق الفيالق الاسترالية والنيوزيلاندية على خطوط الأتراك فتكاد تخترقها ، ويكاد الأتراك ينهزمون ، لولا كمال وإرادته الفولاذية ، فهو يقلب الهزيمة نصراً ويرد الأعداء على أعقابهم

ويعترف فون ساندرس بأن هـذا النصر معجزة من أروع معجزات الحرب ، فيدعو كمالا فى المساء الى خيمته ، ويقوم له فى احترام وإجلال ويقول : « نحن الآن في أشد مواقف الحرب هولا . وجنودنا على وشك الانهزام . والأمداد لا تكاد تصلنا من استامبول ، ولذلك قررت أن أوليك قيادة جميع الجيوش المدافعة عن غاليبولى .. فهل تقبل القيادة ؟ »

هل يقبلها ؟ ! انه يتحرق اليها . انه يعيش ليرى هذا اليوم فكيف لا يقبلها ؟

***

وفي اليوم التالى يصل بضعة آلاف من الجنود الجدد فيأمر كمال جيوشه بالهجوم، فينطلق الأتراك من مخابئهم كالقذائف،ويكرون على الأعداء كرة تزلزل الأرض تحت أقدامهم فيفرون الى الساحل . . فيلاحقهم الأتراك بحراب بنادقهم ويقتلون منهم عشرات الألوف . . وفي هذا الهول يطلق الأسطول الأنجليزى مدافعه على الفريقين المتحاربين فتفتك بهما فتكا ذريعا

ولـكن الانجليز مصممون على بلوغ قمة (تشونوك باير) .وكتشنر لا يكاد يصدق أنباء الهزيمة . . ولذلك نرى في اليوم التالى هجوما هائلا على (تشونوك باير) ، ونرى الرعب يدب في قلوب القواد المدافعين عنها ، فهم لذلك يستدعون كمالا بالتليفون ، فيقول لهم ببرود عجيب : « لا تخافوا ودافعوا عن القمة حتى أصل اليكم . . »

وهناك على قمة (تشونوك باير) يقف كمال ومنظـاره المـكبر في يده ، والطلقات تنصب حوله من كل جانب ، فيرى أن الموقف يستدعى هجوماً عاجلا ، وإلا فالهزيمة محققة . فيأمر بجمع جميع القوات ويكدسها في الخنادق ريثما تنتظم ، ثم يسير فى وسط الجنود كالذئب قائلا : « لا تتعجلوا الهجوم يا أبنائى . . انتظروا حتى ترونى خارج الخنادق ، حتى اذا ما لوحت بيدى فى الهواء فانطلقوا من مخابئكم واحكموا تصويب طلقاتكم الى الأعداء ، وسأكون أنا في طليعتكم . . »

وعند الهجوم (الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى) يبرز كمال الى خط النار وحده.. ويقف فى الجحيم وحده . . ثم يلوح بيده فى الهواء وينطلق صوب الأعداء . .

الجنود يعدون خلفه ، وهتاف الحرب : « الله ! الله ! » تردده الآفاق . . . والاستراليون يفرون كالأنعام . . الى الساحل . . الى الماء . . فيفتح الأسطول أفواه مدافعه فتصب الموت عليهم وعلى الأتراك صباً . . وانك لترى من خلال القذائف والدخان جنوداً من الترك ينزلون الى المـاء ويلاحقون العدو بحراب بنـادقهم حتى يغرقوهم ثم يعود من ينجو منهم الى السـاحل ويموت من يموت بقنابل الأسطول . .

وبذلك يخسر الانجليز معركة اندرنيـل ، وينهزمون أشنع انهزام عرفوه في تاريخهم الطويل

***

ولا نود أن نطيل الحديث بعد ذلك فقد عاودوا الهجوم مرتين فارتدوا منهزمين

وفي ذات يوم من شهر ديسمبر يقف مصطفى كمال باشا ــ وهــذه هي رتبته الجديدة ــ متطلعاً الى خنادقهم ، فيعجب لانطلاق المـدافع دون أن يرى ثمة حركة تشعر بوجود الجنود . وإلى البحر فلا يرى الأسطول ، فيأمر الـكشافين باستطلاع حقيقة الأمر ، فيعودون بعد دقائق ليقولوا إن الانجليز فروا من الميدان في الليل ، وإن هذه القنابل تنطلق من بضعة مدافع بطريقة أوتوماتيكية ! !

فيزحف الأتراك على خنادق العدو مهللين مكبرين . ويذهب مصطفى كمال باشا الى الشاطىء فيقف على صخرة تشرف على البحر ويتطلع اليه بمنظاره المـكبر ، فيرى على بعد سحيق نقطاً سوداء لا تكاد تظهر الا لتختفي بعد قليل . . .

فيبتسم . . .

تروي فيما يلي حادثة وقعت ابان هذه المعارك ــ وإن كنا لا نعلم على وجه التحقيق في أية معركة بالذات ــ لنطلع القراء على ناحية من نواحي شخصية كمال الفذة :

في احدى المعارك وقف كمال على رابية يشرف على القتال . فرأى كتلة من الجيش يستشهد قائدها ــ وكان برتبة بكباشي ، فحل محله من هو دونه في القيادة ، ثم استشهد بدوره ، فحل محله ضابط آخر رتبته أقل من رتبته ، وهكذا حتى وصل ضابط برتبة ملازم الى منصب القيادة

ورأى كمال أن الضابط يحسن ادارة رحى الحرب فصمم على منحه رتبة البكباشية بعد المعركة، ولـكن تبين له بعد قليل من الزمن ان الضابط أبرق الى القيـادة في طلب الرتبة لأنه مرتبك ويخشى أن يتحمل المسئولية . . فاحتقره ، وصمم على ابقائه ملازماً طول عمره !

الوطن في خطر !

استامبول لابسة زينتها رافعة أعلامها : فقد انتصرت تركيا على الحلفاء

وبرلين تخور بأنا فرطة ، وبطل أنا فرطة

ورجل الشارع – ولم لا نقول رجل الحرب ؟ – معجب بمصطفى كمال الذى انتصر فى أول معركة كبيرة قادها فى حياته

والهمس يكثر . . والمقارنة بين أنور المتهور المنهزم وجمال المدحور ، وبين مصطفى كمال المنتصر تسمعها من كلا الرجلين

فما لمصطفى كمال لا تطيب نفسه بهذا النصر الخالد والمجد الخالد ؟

إنه يعود إلى العاصمة كاسف البال مقطب الجبين لاعناً الساعة التى دخلت فيها تركيا الحرب فى صف ألمانيا المنهزمة !

أجل . . ألمانيا المنهزمة !

هوذا يقرأ أنباء الميدان الغربى فيتأوه كما يتأوه الوحش الجريح

هوذا يذهب إلى صديق له في عموم أركان الحرب ويبسط له ما يساور نفسه من الشك والهلع على مصير بلاده ، ويدعم أقواله بأسانيد عسكرية لا تقبل الجدال ، فيطمئن الموظف خاطره ويفهمه أن وساوسه ليست إلا صورة مجسمة لقوة إيمانه بالوطنية ، وأن المسئولين عن الامبراطورية العثمانية موقنون بما رأوه من عظمة الألمان وقوتهم التى لا تنازع .. فيقارعه مصطفى كمال الحجة بالحجة ، ويضرب له مثلا تلك المعركة التى خرج منها منتصراً ، ولولا أنه – وهو القائد التركى – تسلم القيادة العليا من فون ساندرس الالمانى لحاقت بالوطن هزيمة من أشنع الهزائم . .

فيقول له الموظف وقد برم به أخيراً :

– دعنا نعمل فى هدوء يا كمال وإلا كنت مسئولا أمام ضميرك ، فسنقوم بأعمال جليلة يطيب لها خاطرك وتدهش العالم أجمع !

مصطفى كمال يبتسم ابتسامته الصفراء المعهودة ، ويحتقر فى قرارة نفسه هؤلاء الموظفين الذين يجهلون كل شيء ، ويتظاهرون بمعرفة كل شيء . . فيخرج من عند الموظف وهو يقول لنفسه :

– كيف يعرف هذا المدعى مصير الحرب ، فى حين أن أنور نفسه لا يعرف من

مصيرها إلا ما يريد الألمان أن يعرف ! ؟

ثم يزور الصدر الأعظم طلعت باشا ، هذا الرجل الكبير المخلص لبلاده ، فيسمع منه تلك النغمة بذاتها

فيذهب إلى وزارة الخارجية ويطلب مقابلة الوزير . فيرى هناك طائفة من زائرى الوزراء المعهودين : نصفهم مداهنون ، والنصف الآخر من عشاق السياسة والمناقشات السياسية الافلاطونية . ويسمع أحاديث الحرب ومصائر الامم والشعوب من طائفة هي أبعد الناس عن السياسة والحرب ، فيبدي لهم احتقاره الشديد . .

ويتجاهل الوزير حضوره حينا ثم يسمح له بالمقابلة . فيأبى رجل الحرب إلا أن يلقى على رجل السياسة درساً قاسياً ، فيقول للحاجب بصوت جهوري يسمعه كل الحاضرين – وفيهم الوزير طبعاً :

— لينتظر سعادة الوزير . .

ثم يتحدث إلى أحد الموظفين بضع دقائق حتى يطمئن إلى أن الوزير تلقى الدرس . فيدخل عليه ، فيحييه الوزير ببشاشة ويظهر له ارتياحه من السياسة العامة . . فيناقضه مصطفى كمال ويظهر له قلقه الشديد على مصير الوطن ، ويعرض عليه حلا هو التخلص من سيطرة الالمان على شئون وزارة الحربية ، ومعالجة الحرب بعد ذلك بما تقتضيه مصالح تركيا وحدها لا مصالح المانيا الجشعة . . فيحتد الوزير ويقول له إن وزارة الحربية أجدر من وزارة الخارجية بالنظر فى حلوله ، وبذا تنتهى تلك المقابلة على لا شيء ، ويخرج رجل الحرب من عند رجل السياسة الثعلبية ليقول فى مذكراته :

« أما أنا فكنت على ثقة من أن هؤلاء الرجال الذين لا يعرف لهم رأس ولا ذنب ، والذين يتأله بعضهم بدعوى العبقرية ، ويتيه بعضهم بدعوى العلم ، ويختال بعضهم بدعوى الدكتاتورية ، لا يستطيعون أن يصلوا إلى مصطفى كمال الحقير بأى أذى . إنهم كانوا يقدرون على شيء واحد هو القاء القبض على مصطفى كمال وشنقه استناداً إلى ما بأيديهم من قوة وسلطان . بيد أنى كنت أعد من النعم الجزيلة أن تسمع الأمة فى ذلك اليوم نبأ عصيانى . . . »

وليذهب إلى وزارة الحربية طبعاً ففيها أنور الساخط عليه ، وفيها مئات من الالمان الذين إذا رأوه قطبوا وجوههم وكشروا عن انيابهم

وأخيراً يعود إلى مخدعه فى فندق « بيرا بالاس » ليقضى ليله ساهراً يحز على

أضراسه ويعلن سخطه على أنور الدكتاتور ، ووزير الخارجية الدبلوماسى ، وسائر من فى وزارة الحربية من الالمان

قائد لفلول أنور !

عفا الله عن أنور . فان التاريخ لن يغفر له طيشه وحركاته الجنونية

ما باله يسوق اكثر من مائة الف مقاتل من زهرة الشباب التركى الى القوقاز فى تلك الحملة المشئومة التى تذكرنا بحملة نابليون الروسية ؟

لقد أراد أن يقوم بعمل كبير من شأنه أن يدحر الروسيا فى الشرق كما دحرها الألمان فى الغرب . ولكنه لم يفطن الى استحالة الحرب فى القوقاز — وخاصة فى الشتاء — فدفع بجحافله الى الثلوج والجوع فهلكت . فلما أيقن من فشله ترك فلولها على الحدود الروسية ، وعاد الى استامبول ليرى بعينى رأسه انتصار غريمه على الحلفاء فى الدردنيل ، وها هو ذا الآن يعين غريمه قائداً لهذه الفلول !

مصطفى كمال يقبل هذا التعيين راغماً ، ويذهب الى مقر قيادته ، فيرى أن الروس الذين هاجمهم أنور انقلبوا مهاجمين ، وأنهم احتلوا وان وبتليس وموش وأرضروم واستعدوا لهجوم واسع النطاق على تركيا نفسها

ويعرض جيشه فيهوله ما يراه من ضعفه وقلة تدريبه ونقص مؤنه وذخائره . فيبرق الى وزارة الحربية والى أنور فى طلب المدد والسلاح والمهمات والأغذية ، فلا يصله رد ، ولا تعبأ وزارة الحربية بطلباته . فيعكف على جيشه بحالته الراهنة ويحاول إتيان المستحيل لتدريبه وإعداده لملاقاة الروس ، ويكون عصمت وكاظم قره بكير أكبر عون له فى هذا العمل الشاق : عصمت الذى يتجاهل الكلام الكثير ويعرف العمل الكثير ، وكاظم قره بكير الجندى الخشن الذى ينفذ الأوامر العسكرية بحذافيرها

وبينا هؤلاء الثلاثة فى عملهم الشاق ، اذا بالقيصرية الروسية تتقاذفها التيارات السياسية فتصبح كالريشة فى مهب الرياح . واذا بالثورة الحمراء توشك أن تأكل الأخضر واليابس

الثورة تتسرب من بطرسبرج الى معسكرات الروس فى سائر الميادين . ومصطفى كمال يشاهد انحلال الجبهة الروسية المعسكرة أمامه فيشكر للمقادير عملها على ازاحة

هـذا الخطر الجسيم على كيان تركيا . فاذا شرع الروس فى التقهقر وغادروا الميدان الشرقي الى ميدان الكفاح الأحمر فى الروسيا نفسها ، شرع هو فى التقدم الى الشمال فنراه يدخل وان وبتليس وموش وبذا يستعيد ما خسره الأتراك بحماقة أنور . ثم يتقدم شطر باطوم ويقضى على كل هائلة من الارمن المؤملة فى بعث أرمنستان من عالم التاريخ والأنقاض

وبينا هو فى هذا العمل الشاق ، إذا بالأمر يصدر اليه بالسفر الى سوريا حيث الخطر الانجليزى الذى ينذر باقتطاع الشرق الأدنى من حوزة الامبراطورية العثمانية

* * *

والآن ننتقل الى حلب فى شمالي سوريا

أنور ، وجمال ، وفلكنهاين يشرفون على الحركات العسكرية فى ميدان الشرق الأدنى

الانجليز دخلوا بغداد وهددوا الموصل . وهم الآن يستعدون لهجوم واسع النطاق لاجلاء الأتراك عن اليمن والحجاز والعراق وسوريا وفلسطين . والذهب الانجليزى ينثره لورانس الجاسوس ذات اليمين وذات الشمال ،ومس بل فى العراق توشك أن تجنى ثمار ما غرسته طوال السنين فى القبائل العراقية الكردية

مصطفى كمال يهبط الميدان فيقنط من النصر منذ الساعة الأولى . وقواد الميدان شرحون له خطة للهجوم على بغداد ومصر فيعارض فيها معارضة شديدة . فيحاول فلكنهاين أن يستميله بالرشوة ويرسل اليه صندوقا مملوءاً بالذهب . فيعيده اليه مصطفى كمال محتقراً تلك الوسائل الحقيرة لكسب القلوب

وفى ذات يوم ينعقد المجلس الحربى لمباشرة تنفيذ الخطط الحربية . فيهوى مصطفى كمال على القواد بنقد جارح . ويسود المجلس جو من النقاش الحامى . ويوجه فلكنهاين الى مصطفى كمال كلاما جارحا . فيرد عليه كمال بقارص الكلم . ثم يستقر رأيه على الاستقالة . . فلا يقبلها أنور . فيصر كمال عليها . فيقول أنور إنه سينقله الى ميدان أرضروم . فيرفض كمال العودة الى ذلك الميدان الذى لم يعد فيه نشاط حربى . فيرى أنور أن خير طريقة للتخلص من هذا الموقف الشاذ هو منح كمال إجازة مرضية الى أجل غير مسمى . ولكن فلكنهاين لا يوافق على الاجازة ويرى محاكمة القائد المتمرد امام مجلس عسكرى ، وأخيراً يستقر الرأى على الاجازة المرضية

ويعود مصطفى كمال الى استامبول بال يقترضه من جمال ، مؤثراً البطالة على الموافقة على خطط حربية يرى أنها لاشك فاشلة

مع هندنبرج في خط النار

مصطفى كمال مقيم فى فندق بيرا بالاس باستامبول

وفى صباح ذات يوم يصدر اليه الأمر بمصاحبة ولى العهد محمد وحيد الدين فى رحلة إلى خط النار فى الميدان الغربى

يالها من فرصة سعيدة !

المانيا تشعر بما يجيش فى صدور الترك من القلق على مصيرهم ، فترتب تلك الزيارة الشاهانية وتدعو محمدا الخامس لزيارة الميدان الغربى ، فتعتذر الحكومة العثمانية بمرض الخليفة ، وتنيب عنه ولى عهده ، وتلحق به كمالا الثائر على المانيا والحرب فى صف الالمان ليرى بعينى رأسه عظمة الالمان فى خط النار

فكرة بديعة من أنور . . وسيعود كمال من تلك الزيارة متحمساً لالمانيا ، عاملا على مساعدتها والتضحية بكل مرتخص وغال فى سبيل نصرتها . .

مصطفى كمال يدرك كل ذلك فى طرفة عين . فيبتسم ابتسامته الصفراء . ويذهب هو وناجى بك استاذ فن التربية العسكرية بالمدرسة الحربية إلى السراى ليقابل ولى العهد ويتعرف اليه قبل مصاحبته فى السفر

ويرى الرجلان ولى العهد محمد وحيد الدين : كهلا خائر الاعصاب خامد العقل لا يفيق من نومه ـ أو تناومه الدبلوماسى . . . ولا تبدو عليه بارقة من الذكاء !

ويتساءل مصطفى كمال :

— كيف يهيمن هذا الابله على مصير الأمبراطورية العثمانية فى يوم من الأيام ؟

ويحين السفر ، فيذهب ولى العهد الى المحطة فى حلة ملكية ـ مع أن مصطفى كمال كان قد نصحه بلبس الحلة العسكرية ـ لأنه موفد فى بعثة عسكرية . .

ويظهر بعد التحرى أن ولى العهد (زعلان . .) فقد انزلت رتبته من فريق إلى أمير لواء ، وهو لذلك يرفض أن يلبس الحلة العسكرية ويؤثر عليها الحلة المدنية فى زيارة خط النار ! !

ثم يعرض ولى العهد الجنود المصطفين لوداعه ، فيجهل أبسط قواعد العرض العسكرى ، ويكاد الجنود انفسهم يضحكون لفرط جهله وبلاهته . .

ثم يقوم القطار ويجتاز الحدود التركية فى طريقه الى المانيا

ويدعوه ولى العهد إلى صالونه ، فيدخل عليه مصطفى كمال فتأخذه الدهشة : فقد تبدل ولى العهد رجلا آخر غير الرجل الخامل الذى لا يكاد يفيق من نومه ، والذى يجهل كيف يعرض الجنود . .

تبدل ولى العهد فظهر فى لحاته ولفتاته وبريق عينيه دهاء وبعد نظر . .

وظهر لمصطفى كمال بعد ذلك أن تلك البلاهة التى كانت تبدو على وحيد الدين لم تكن إلا نقابا يخفى به ولى العهد أهليته للحكم ، فقد كان فى تقاليد خلفاء آل عثمان أن يكون ولى العهد خاملا جاهلا لا يكاد يخرج من جناح الحريم ، وإلا فالنقمة تنصب عليه من الجالس على العرش . . ! !

ما بال ولى العهد يمتدحه ويثنى على شجاعته فى معركة الدردنيل ؟

إنه يقول له فى حماس ظاهر :

ــ انك انقذت الآستانة ، وبذلك انقذت كل شىء . .

ثم يتلطف معه فى الحديث ويحاول أن يحتكر قلبه . . فيطمئن مصطفى كمال إليه ، ويرى فيه خليفة الغد وصديق المستقبل ، فيحاول أن يضمه إلى صفه ، وإذا نراه يحدثه حديثاً طويلا يخرج منه ولى العهد بأن الأمة التركية فى موقف عصيب : فهى على تكأة ظاهرها قوة وجبروت ، وباطنها غرور وسوء تقدير . وهؤلاء الالمان الذين دعوه لزيارة معسكراتهم لا شك منهزمون ، وسيرونه ما يريدون هم أن يرى . وأنه ــ أى مصطفى كمال ــ سيكون له خير ناصح ، فيطلعه أولاًفأولا على مواطن الضعف فى صفوفهم ، حتى إذا ما خلصت له الخلافة عمل على التخلص من نيرهم لمصلحة بلاده . .

ويصل القطار إلى بلدة صغيرة فيها المعسكر الالمانى الكبير . فينزل ولى العهد تتبعه حاشيته ويتوجه إلى حيث وقف أمبراطور المانيا وهندنبرج ولودندورف وغيرهم من كبار القواد ، فيسلم عليه ويقدم له حاشيته فرداً فردا ــ وفى طليعتهم مصطفى كمال ــ ويحاول أن يذكر للامبراطور طرفا من تاريخه ، فيصيح الأمبراطور صيحة كلها إعجاب ودهشة :

ــ الفيلق السادس عشر . . أنا فارطة !

ويلتف الجمع الحاشد حول مصطفى كمال يفحصونه ويبدون الاعجاب به !

ثم يعود الامبراطور إلى الحديث فيسأله عما إذا كان حقيقة بطل أنا فارطة .

فيجيبه مصطفى كمال بالفرنسية : - Oui, Excellence

أى « نعم يا صاحب السمو » وكان الواجب يقضي بأن يقول : « نعم يا جلالة الأمبراطور »

ثم تذهب البعثة التركية إلى مكتب المريشال هندنبرج أكبر رجال الحرب فى المانيا ، فيقف الشيخ الجليل أمام خريطة الميدان ويلخص لولي العهد خططه الحربية بأسلوب شائق ولباقة ساحرة تؤثر فى ولي العهد أبلغ تأثير ، وفى ركن من أركان المائدة يجلس مصطفى كمال جلسة الفاحص المدقق ، فلا تؤثر فيه لباقة هندنبرج ، بل على العكس - يبدو عليه القلق الشديد

ثم يذهب ولي العهد إلى مكتب لودندروف ، فيعيد على مسمعه حديث هندنبرج، فلا يطيق مصطفى كمال صبراً ، ويقطع على لودندورف حديثه بسؤال محرج :

— إلى أى خط تستطيع القوات المهاجمة أن تصل فى النهاية ؟

فيرتبك لودندروف ويقول بلسان متلعثم : « إنهم وكلوا غاية الهجوم للمستقبل »

فيرد عليه مصطفى كمال فى حدة ظاهرة ، بأن الغاية من الهجوم لا تحتاج إلى شرح طويل ، فهو هجوم موضعى لا يرجى منه خير - حتى فى حالة النجاح !

ويعود ولي العهد إلى الفندق فيلفت مصطفى كمال نظره إلى خطورة موقف الالمان ، ويلقنه بضعة اسئلة ليوجهها إلى الأمبراطور فى زيارته التالية

وبينا هم فى حديثهم ، إذا بالامبراطور يقبل عليهم ويجلس معهم ، فينتهز وحيد الدين تلك الفرصة ليوجه اليه سؤالا من اسئلة مصطفى كمال المحرجة ، فيقوم الامبراطور غاضباً ويقول لولي العهد :

— ألاحظ يا صاحب السمو أن هناك من يحاول تشويش ذهنكم ! !

ثم يقول إنه هو الأمبراطور ، وإنه يقول إن المانيا منتصرة ، ، ويخرج من عند ولي العهد وقد عرف تماماً أن مصطفى كمال هو صاحب هذا السؤال المحرج . .

وتجتمع البعثة على مائدة الامبراطور وبعد تناول الطعام يذهب المدعوون إلى الردهة المجاورة لقاعة الطعام ، فيرى مصطفى كمال هندنبرج واقفاً وحده ، فيتوجه اليه ويحدثه عن الحالة فى الميدان الشرقى ، ويظهره على جلية الحالة فى سوريا ، ويبين

له أن الارتباك الواقع فى صفوف الأتراك شديد ، ثم ينتقل إلى الميدان الغربى فيسأله نفس السؤال الذى وجهه للودندورف ، ، فيصمت هندنبرج ، ، ثم يتوجه الى مائدة كانت بجواره فيتناول منها لفافة من التبغ يقدمها لمصطفى كمال ويشعلها له ، ثم يتركه وشأنه !

ويدعى ولى العهد لزيارة خط النار بعد أن توضع له خطة مرسومة ، فيأبى مصطفى كمال الا أن يخرج على تلك الخطة ، ويرتقى شجرة عالية تطل على صفوف الأعداء ويتطلع الى الميدان بمنظاره المكبر ، فيهوله الموقف ، ويهبط الى الأرض ليسر الى الضباط الألمان بهواجسه ، فيوافقوه عليها

وبعد بضعة أيام يقيم لهم والى الالزاس وليمة عشاء ، ويجلس الوالى إلى المائدة ليتحدث عن الأرمن والمشكلة الأرمنية ، ويحض ولى العهد على التدخل فى الأمر لمصلحتهم ، فتثور ثائرة مصطفى كمال ويقول له :

— يا حضرة الوالى : نحن بعثة عسكرية جئنا إلى هنا للنظر فى حالة الميدان الغربى وتعرف حقيقة الموقف فى بلاد تحالفنا معها واعتمدنا عليها ، ولم نحضر للتحدث فى مسألة الأرمن . وقد فهمنا ما تريد أن نفهمه . وها نحن أولاء عائدون إلى بلادنا أخيراً . .

وكانت تلك الكلمة القاسية آخر كلمات مصطفى كمال فى تلك الزيارة التى حسب لها الألمان ألف حساب

انتقام بديع !

عجيب والله أمر هذا الرجل الذى يكذب الدنيا كلها عندما يقول إن المانيا ستنهزم !

وأعجب من ذلك أن يذهب الى المانيا نفسها فيقول لامبراطورها ومارشالها الأعظم : « أنتم منهزمون ! »

وفى طريق العودة الى الوطن تراه يحيك شباكه حول ولى العهد وخليفة الغد ، فيوعز الى ناجى بك بأن يقبل منصب الياوران الذى عرض عليه ــ وكان متردداً فى قبوله ــ ليكون له عونا فى السراى . ثم يقابل ولى العهد ويدور بينهما الحديث التالى :

— أنتم لم تصبحوا سلطانا بعد . وقد رأيتم فى المانيا كيف ان الامبراطور وولى

العهد وسائر الأمراء يتقلدون مناصب عسكرية ، فلماذا تكونون أنتم بعيدين عن هذه المناصب ؟

— ماذا أستطيع أن أفعل ؟

— عندما تعودون الى الآستانة ، اطلبوا قيادة جيش من الجيوش وسأكون لكم رئيس أركان الحرب

— قيادة أي جيش ؟

— الجيش الخامس

وكان هذا الجيش هو المنوط به أمر الدفاع عن البواغيز ، وكان تحت قيادة ليمان فون ساندرس

— ولكنهم لا يعطونني هذه القيادة !

— اطلبوها أنتم

— عندما نعود الى الآستانة نفكر في ذلك

وتعود البعثة الى الآستانة بعد أن تسبقها اشارة دبلوماسية بأن القيادة الألمانية العامة لم تكن مرتاحة الي وجود مصطفى كمال في صحبة ولي العهد

ويرى أنور أنه أخفق في سياسته ، إذ ازداد كره مصطفى كمال للالمان وحقده عليهم ، فيصمم على إقصائه عن مناصب الدولة ، وازاء ذلك يظل مصطفى كمال عاطلا عن العمل ، وتتوعك صحته فينصح له الأطباء بالسفر الى فينا ، فيسافر اليها ، ثم ينتقل الى كارلسباد ، وهناك يفاجأ بنبأ وفاة الخليفة وتنصيب وحيد الدين بعده

يا للأسف ! لقد فوت عليه مرضه فرصة الاتصال بالخليفة الجديد قبل أن يضمه أنور الى صفه

وبعد أيام تصله رسالة برقية من جواد عباس بك يدعوه فيها الى الحضور على وجه السرعة ، وتتلوها برقية أخرى تحضه على التعجيل بالسفر ، فيغادر كارلسباد في ٢٧ يوليه سنة ١٩١٨ ، وفي فينا يصاب بالحمى الاسبانيولية فيضطر الى الاعتكاف حيناً وأخيراً يعود الى العاصمة ويطلب من عزت باشا سرياور الخليفة تحديد موعد للمقابلة

ويتقابل صديقا الأمس وقد وضع أحدهما على رأسه تاج السلطنة ، فيقدم وحيد الدين لمصطفى كمال لفافة من التبغ ويشعلها له بنفسه مبالغة في اكرامه ، وعندما يعيد مصطفى كمال على مسامعه أفكاره وهواجسه ، ويطلب منه تقلد القيادة العامة للجيش

العامل ، يسأله السلطان عن آراء كبار الضباط فى ذلك ، ثم يختم المقابلة على لا شىء

وفى مقابلة ثانية يراوغه السلطان أيضاً

وفى مقابلة ثالثة يريد السلطان أن يقطع عليه خط الرجعة ، فيقول إن تزويد أهل استامبول بالغذاء أهم من أى شىء آخر ، وإنه لذلك يفضل البدء بهذا العمل الانسانى . فيرد عليه مصطفى كمال بأن سلامة البلاد قبل تموين العاصمة بالغذاء ، وان السلطان ان لم يعتمد على القوة فسلطنته اسمية . . وعندئذ يقول الخليفة وقد صمم على معارضته :

ــ لقد تذاكرت مع طلعت باشا وأنور باشا فيما يجب عمله

اذاً لقد انتصر أنور ، وانهارت آمال مصطفى كمال فى تسيير الخليفة وفق رغباته حتى يقاوم نفوذ الالمان ، ويجد لتركيا مخرجا من تورطها معهم

وبعد أيام يطلب السلطان مقابلته بعد صلاة الجمعة ، فيدخل عليه فيجد معه قائدين المانيين ، ويهش الخليفة له ويبش ويقول :

ــ قد عيناك قائداً لسوريا فالحالة هناك تشتد خطورة يوما عن يوم ، مما يستدعى ذهابكم اليها ، وكل ما أطلبه منكم هو أن تحافظوا على تلك الجهات فلا تدعوا سبيلا لوقوعها فى يد الأعداء

. . . .

قائد لسوريا ! ؟ قائد لجيش منهزم ! ؟

مصطفى كمال يخرج من عند الخليفة ثائراً متأججاً ، فيعترض أنور سبيله وهو يبتسم ابتسامة الظفر ، فيقول له مصطفى كمال :

ــ مرحى ، أهنئك لقد انتصرت ! ومادام الأمر قد أصبح واقعاً فلنتكلم فى التدابير المعقولة : لقد علمت أن قواتنا المحاربة فى سوريا مظاهر اسمية لاغير ، وأن تعيينى فى تلك الجهة انتقام بديع . . ثم انكم خالفتم الأصول المرعية إذ جاءنى الأمر على لسان السلطان نفسه . .

ولا يتم حديثه بل يسير فى طريقه الى الشارع فيسمع اهانة يوجهها أحد القواد الالمان الى الجيش التركى ، فيلتفت اليه فى غضب ويقول : «إن الجيش التركى اذا كان قد فر من الميدان ، فلأن قائده الأعلى ــ الالمانى ــ سبقه إلى الفرار !!»

الجبهة المنحلة

مصطفى كمال موقن أن رحلته السورية هى آخر فصل من فصول المأساة الكبرى: مأساة الحرب العظمى

وهو متشائم إلى أقصى حدود التشاؤم . فالخريطة الحربية التى قدمت له تدل على أن جبهة سوريا منحلة بدون قتال . والحالة فى العاصمة تنذر بالخاتمة الأليمة التى ترقبها حكومة الباب العالى

وبعد رحلة شاقة يصل إلى الخطوط التركية الممتدة بين شمالى يافا وسكة حديد الحجاز ، فيمنيه لمان فون ساندرس قائداً للجيش السابع فى القلب

الجيش السابع — وسائر الجيوش التركية فى سوريا — فى حالة بؤس شديد : عدده لا يكاد يتجاوز عشر العدد المطلوب ، والمؤن والذخائر فى حكم العدم ، والصحراء تسلى رمالها على جنود أوهنهم الجوع والظمأ وفتكت بهم الحميات ، والحالة المعنوية مما لا يشرف الجيوش التركية التى صمدت للنكبات فى غير هذا الزمان والمكان . ولكننا نعود فنقول ان من الظلم أن نلومهم على هذا التخاذل فان ما تحملوه كان فوق طاقة البشر

فاذا سرنا بضعة أميال إلى الجنوب رأينا معسكرات الانجليز حيث العدد العديد والمؤن الوافرة والذخائر المكدسة والمواصلات السهلة ووسائل التسلية والعلاج

وعلى جانبى سكة حديد الحجاز ترى عصابات من العرب يقودها الجاسوس لورانس ويلحق بخطوط الترك ومواصلاتهم أبلغ الاضرار

شواهد كلها تدل على هزيمة الترك . ومصطفى كمال يرى ذلك بعينيه فيبذل جهود الجبابرة لاصلاح ما أفسده الاهمال والفوضى

وفى ذات يوم يبلغه رأفت قائد الجيش الثامن على الساحل نبأ القبض على ضابط هندى فر من خطوط الانجليز ، وأن هذا الضابط يقول ان الانجليز سيهجمون على خطوط الترك من جهة الساحل فى ١٩ سبتمبر فيتناقش قواد الجبهة من الأتراك طويلا، ثم يستقر رأيهم على الاستعداد لهذا الهجوم ، ويطلعون قائدهم الأعلى لمان فون ساندرس على قرارهم هذا فيسخر فون ساندرس منهم ويزعم أن الضابط الهندى ما هو إلا جاسوس أوفده الانجليز للضحك على ذقون الترك ، وأنه يرى أن الانجليز

سيهجمون على الاتراك بالقرب من سكة حديد الحجاز، وهو لذلك يأمر بتقوية تلك الجهة

بيد أن مصطفى كمال لا يوافقه على رأيه، ويعمل على ألا يسحب من جيشه أحد للدفاع عن سكة حديد الحجاز، ويأخذ في الاستعداد لهجوم الانجليز

وفي فجر يوم ١٩ يهجم الانجليز على قلب الخطوط التركية وعلى ميسرتها من جهة الساحل، فيصدق الضابط الهندى

فأما القلب — بقيادة مصطفى كمال — فيصمد للهجوم، وأما جيش الساحل فيخترقه الانجليز، ويتجهون شمالا ثم شرقا لقطع خط الرجعة على سائر القوات التركية

وهنا يدرك كمال حرج الموقف، فيتراجع بقواته الى أقرب محطة اليه، وينقل قواته إلى درعة في الشمال

وناهيك بحملات الاعراب على فلول الترك بقيادة الجاسوس لورانس . . انهم ينسفون الجسور ويعطلون القطر ويقطعون السكك الحديدية، انهم يسممون الآبار، ولذلك يأمر مصطفى كمال بالتراجع إلى دمشق

وهناك يطلب فون ساندرس اليه أن ينظم خط دفاع عند رياق، بيد أن الحالة المعنوية للجيش، وثورة العرب، وسرعة تقدم الانجليز لا تسمح بذلك . ثم ان مصطفى كمال يرى أن حدود تركيا نفسها أصبحت فى خطر، ومن الواجب ترك سوريا للانجليز والتراجع المنظم إلى الحدود التركية للدفاع عنها

ولكن فون ساندرس يتردد في تنفيذ هذه الخطة، ويقول انه — وهو الالمانى — لايستطيع أن يتحمل مسئولية التخلى عن جزء مهم من أملاك الامبراطورية العثمانية، فيأخذ مصطفى كمال المسئولية على عاتقه ويصدر أمره بالتقهقر الى شمالى حلب

وهناك يشعر بأن الحالة أصبحت لا تطاق، فالعرب ثائرون، وكلما تقدم الانجليز خطوة ازدادوا ثورة وعصيانا، ثم ان جماعة من العرب يهاجمون سيارته وهو عائد الى مقر القيادة فى فندق « بارون » بحلب، وفى اليوم التالى يراهم متجمهرين حول الفندق وقد بلغ بهم التمرد درجة الغليان

اذاً لا بد من مغادرة حلب أيضاً والاعتصام بالخطوط الدفاعية فى الشمال . وهناك يلم مصطفى كمال شعث جنوده ويعيد تنظيمهم، ثم يخطب فيهم حاثاً اياهم على الاستماتة فى الدفاع، فهم الآن لا يدافعون عن املاك الامبراطورية العثمانية وانما يدافعون عن الوطن نفسه، الوطن الذى أصبح فى خطر . .

الجنود يتحمسون للقتال ويحسنون الدفاع عن مراكزهم عندما تهاجمهم القوات الهندية الزاحفة الى الشمال . ويقف الهجوم الانجليزى أياماً فى انتظار الامداد من الجيش الرئيسى فى الجنوب

وفى تلك الازمة العصيبة تبرق الحكومة التركية الى مصطفى كمال بأنها عقدت الهدنة مع الحلفاء ووقعت على صلح مودروس ، وتبرق الحكومة الالمانية الى فون ساندرس بوجوب العودة الى المانيا هو وسائر ضباطه الألمان

الرجلان الكبيران : ليمان فون ساندرس ومصطفى كمال يتقابلان فى احدى قهوات آطنة ، فقد دنت ساعة الوداع

كلاهما رجل كبير وجندى حديدى الارادة

الصمت يسود بينهما بضع دقائق . ثم يقطع فون ساندرس على مصطفى كمال حبل تأملاته بقوله :

« لقد عرفتكم يا صاحب السعادة منذ قيادتكم فى أنا فرطه . وانى لفخور بأنى كنت أول من عرف لكفاءتكم قدرها . ولقد اختلفنا كثيراً . ولكنا رغم ذلك كنا صديقين حميمين . وانى اذ أعود الى وطنى الآن ـ أجد العزاء فى تركي القيادة لرجل حازم مثلكم »

مصطفى كمال يمد يده لصديقه ويصافحه بحرارة . ثم يفترق الرجلان

ويل للمغلوب !!

مصطفى كمال معسكر بجيشه فى آطنه ، فاذا دخلنا مكتبه رأيناه منحنياً على شروط معاهدة مودروس القاسية ، يقتلها بحثاً وقد قطب جبينه وظهر عليه التأثر الشديد

ثم يتناول ورقة ويكتب الى عزت باشا رئيس الوزارة برقية طويلة يسأله فيها عن مدى قوة المادة التى تنص على احتلال أنفاق طوروس ، وهل تشمل النفقين المعروفين بهذا الاسم ، وهل يقع الخط الحديدى الذى يمر بهما فى دائرة الاحتلال ، وهل تحتل أنفاق أمانوس ؟ كما يسأله عن عدد الجنود الذين سيحتلون الأنفاق ، وعن موقف الحلفاء من آطنة التى تعتبر جزءاً من تركيا نفسها ، وعمن سيأمر بتسريح الجيش التركى ، فيجيئه الرد بما لا يشفى غليلا وإن كان ينص على أن الاحتلال لايشمل

أنفاق أمانوس نفسها ، وان عدد جنود الاحتلال سيقدره الحلفاء

فيعجب مصطفى كمال لهذا الرد الناقص وهذا الغموض الذى يحيط بالمعاهدة التى حكمت على تركيا بالفناء ، ويبرق الى عزت باشا قائلا :

« هل تسمح الحكومة بالاحتلال اذا كان عدد الجنود المحتلين كبيراً الى حد السيطرة على جميع الأناضول ؟ »

ويتساءل عن حدود آطنة ويخشى أن تضم الى سوريا ، ثم يطلع الحكومة على تصميم الحلفاء على احتلال اسكندرونة ويقول فى آخر رسالته :

« اننا اذا شرعنا فى تسريح جيوشنا والانقياد للانجليز فى كل شىء قبل الاستعداد لمواجهة سوء النية والغموض فى نصوص المعاهدة ، فانا نكون قد مهدنا السبل لأطماع انجلترا »

فيجيئه الرد بوجوب التلطف مع الانجليز وعدم مقاومة احتلال اسكندرونة « لأنهم سوف لا يستفيدون منها الا كما يستفيد الضيف من مضيفه » فيرد عليه مصطفى كمال قائلا :

« ليس الانجليز على حق فى الاستفادة من اسكندرونة وتموين جيوشهم المعسكرة بجوار حلب منها ، فان فى حلب كميات جسيمة من الذخائر ، ثم ان المادة الحادية والعشرين من شروط الهدنة تشير الى إمكان تدارك الذخائر من أطراف كليس وعينتاب اذا اقتضى الامر تموين القوات الانجليزية المعسكرة فى حلب ، وانى أؤكد لحضرتكم أن الغرض من تلك المناورة الانجليزية لا يمكن أن يكون تموين الجيوش الانجليزية الموجودة فى حلب ، بل ان الانجليز يريدون احتلال اسكندرونة ثم التوجه بطريق اسكندرونة ــ قيريق خان ــ قاطمة ــ لقطع خط الرجعة على الجيش السابع الموجود فى خط ــ انطاكية ــ دير جمال ــ آخترين ، فلا يجد هذا الجيش مناصاً عن التسليم ، وقد فعل الانجليز مثل ذلك مع الجيش السادس فى الموصل . ومما يؤيد هذا الظن شروع الانجليز فى تقوية العصابات الأرمنية حول اصلاحية

« وانى أقول لكم بكل صراحة اننى لست الرجل الذى يقدر مجاملة المندوب الانجليزى فيدفعه هذا التقدير الى بذل ماء الوجه ــ أى التلطف المطلوب »

وعلى ذلك فهو يأسف لعدم استطاعته اجابة طلب عزت باشا ، ويقول انه أصدر أمره الى قواته بمقابلة الانجليز الذين سيخرجون الى اسكندرونة لأى سبب وبأية وسيلة ــ بالرصاص ! وإلى الجيش السابع بالتحرك الى الحدود الداخلية حتى يفوت

على الانجليز فرصة أسره ، ويختم برقيته بتقـديم استقالته وطلب تعيين من يسمح له ضميره بارتكاب هذه الأغلاط الفاحشة

حتى اذا ما نجا الجيش السابع من الأسر ، يصر عزت باشا على وجوب تسليم اسكندرونة للانجليز ، فيرى مصطفى كمال ألا محيص عن التسليم فيلغي أمره السابق باطلاق الرصاص على الانجليز ، ويطلب من عزت باشا أن يأمر بتسريح الجيش السابع مع الابقاء على اسمه التاريخي « وحدة جيوش الصاعقة »

ثم يجلس الى مكتبه ويحرر الى عزت باشا برقية مطولة يقول فيها ان الهدنة التى عقدت مع انجلترا لا تشتمل على الضمانات التى تكفل سلامة البلاد ، وانه لذلك يلح فى وجوب الاسراع بشرح مدلول كل مادة من المواد المبهمة، والا فان انجلترا ستطلب أكثر مما طلبت وتطمع فى آطنة وخط قونيا ـ أزمير . . ولا يبعد أن تطلب بعـد ذلك احتلال البلاد كلها وتطالب بحق الاشراف على شئون البلاد الداخلية ـ شأنها فى كل معاهدة مطاطة تمليها على شعب ضعيف

وبعد أيام تستقيل الوزارة ، ويبرق عزت باشا الى مصطفى كمال ملحاً فى وجوب حضوره الى العاصمة . فيذهب اليها على جناح السرعة فيسمع أن الدول المحتلة أرادت أن تتدخل فى سياسة الدولة ، وان السلطان أخذ على عزت باشا سماحه لأنور وطلعت بالهرب الى مياه البحر الأسود مع أنه كان يريد تسليمهما للانجليز ، فيستقيل عزت باشا ويؤلف الوزارة بعده صديق الانجليز وعدو أمته : توفيق باشا

يسمع مصطفى كمال بكل ذلك فيذهب الى عزت باشا ويحاول اقناعه بالعدول عن استقالته وتأليف وزارة جديدة يكون هو وزير حربيتها . ويهرع الى مجلس المبعوثان فى قصر فندقلى حيث يقابل عدداً كبيراً من النواب ويقنعهم بوجوب الحملة على وزارة توفيق باشا والعمل على إسقاطها واعادة عزت باشا الى كرسى الرئاسة ، وانه لا خطر عليهم من ذلك فالمجلس لاشك سيحل ، ومن الوطنية ألا يعترف بوزارة خائنة كوزارة توفيق باشا

ويدق جرس الرئيس إيذاناً بافتتاح الجلسة ، فيبادر الأعضاء الى مقاعدهم ويطل عليهم مصطفى كمال من احدى الشرفات ، فلما تعرض عليهم الثقة بالوزارة يوافقون عليها بأغلبية الاصوات ! !

مصطفى كمال يلعن النواب ورجال السياسة كلهم . . ويهرع الى المسرة فيطلب

مقابلة الخليفة ليبذل لديه المجهود الأخير . ولا يكاد يدخل عليه حتى يبادره هذا بقوله :

— انى واثق من أن قواد الجيش وضباطه يحبونكم . فهل تؤكد أنه لن ينالنى منهم أذى ؟

فيجيبه مصطفى كمال فى دهشة :

— وهل وصلتكم يا مولاى معلومات عن الجيش تشعر بتدبير يقوم به ضدكم ؟

فيغمض وحيد الدين عينيه ويكرر سؤاله الأول . . فيقول مصطفى كمال انه وصل الى العاصمة من بضعة أيام ، وانه على كل حال لا يشك فى اخلاص الجيش لمولاه . . فيقاطعه الخليفة بقوله :

— أنا لا أتحدث عن اليوم وانما أتحدث عن اليوم وعن الغد

فيفهم مصطفى كمال سوء نيته وما يبيته للوطن من خيانة هائلة ، فيخرج من لدنه ساخطاً عليه ثائراً على السلطنة وعلى الخلافة

وبعد بضعة أيام يحل مجلس المبعوثان ويؤلف الوزارة الجديدة الداماد فريد

والآن ندعه يصور لكم استامبول المحتلة :

« وكنت وأنا فى بيتى فى « شيشلى » أرقب الحالة الجديدة عن كثب . وكانت الاستانة تعج بجنود الحلفاء . وكان البسفور يموج بمدرعاتهم التى صوبت أفواه مدافعها ذات اليمين وذات الشمال حتى غطت زرقته . وكان الناس لا يخرجون من منازلهم الا للضرورة القصوى ، فاذا خرجوا تسللوا بجوار الجدران خشية التعرض للاهانة . وكانت المناظر المفجعة لا تكاد تنقطع . . فقد لبست الآستانة العظيمة ثياب الذل والخنوع ، وخفتت أصوات مئات الألوف من سكانها فلا تسمع فيها الا أصوات الأعداء وقعقعة سلاحهم . . ومن عجب أن نرى أناساً يتصورون قيام السلطنة والحكومة والحياة فى هذا الوسط الذى كانت تطؤه الأقدام كما تطأ الخرقة القذرة ! »

تم الكتاب الاول

الكتاب الثانى

جهاد واستقلال

« نعم سيصبح الوطنيون عبيداً إذا انهزموا . ولكن شتان بين الرق بعد الجهاد ، والرق بدون جهاد : فهذه أمة جاهدت ثم قضت نحبها ، وتلك أمة ماتت ميتة حقيرة بدون جهاد ! »

مصطفى كمال

مذبحة ازمير

مؤتمر الصلح الأعلى مجتمع فى باريس

ولسن ولويد جورج وكليمانصو وارلاندو يبتون فى مصير العالم

وفى ٦ مايو سنة ١٩١٩ يسعى فنزيلوس سعيه المشهور فيخوله مؤتمر الصلح حق احتلال ازمير احتلالا عسكريا تحقيقاً لمطامع اليونان فى الأناضول

وتصدر الحكومة اليونانية منشورا تقول فيه ان احتلال ازمير العسكرى اعتراف شرعى بمطالب اليونان فى غربى آسيا . وانه حادث عظيم له مغزى جليل . لأنه جرى بموافقة جميع الدول العظمى . . .

وبذلك يرفع الستار عن أول مهزلة من سلسلة المهازل التى عرفت بشروط ولسن وحق تقرير المصير ، وتثبت الدول التي احتلت تركيا أن صلح مودروس ليس الا بداءة تطول بعدها مواده وتقصر حسب الحاجة . وتثبت انجلترا بصفة خاصة أنها لا تعرف « كلمة الشرف » فى قاموسها السياسي والحربى

وفى ١٣ مايو سنة ١٩١٩ ينزل الجيش اليونانى – فى حمى اسطول الحلفاء – لاحتلال ازمير

أهل استامبول يجتمعون فى مسجد السلطان احمد ويهتفون : « ازمير للاتراك ! » ولا يعترفون بهذا الاحتلال الذى قذفه عليهم مؤتمر الصلح

أما حكومة الداماد فريد فلا تحرك ساكنا

وأما الخليفة فمن رأيه التسليم على طول الخط . وهو لذلك يوفد بعثة شاهانية إلى والى ازمير تبلغه أن أمير المؤمنين وظل الله فى الأرض قد قضت ارادته بألا يدافع الجنود عن المدينة فاحتلالها لا شك مؤقت ، وانجلترا دولة صديقة تسعى لما فيه خير المسلمين ! !

والآن ننتقل الى ازمير ، فماذا نرى ؟

نرى الاميرال كالثورب الانجليزى يصدر أمره الى قائد حصون ازمير بوجوب اخلائها . ثم يبعث بمذكرة الى الوالى ينبئه فيها بقرار مؤتمر الصلح . ثم يطلق سراح الذئاب اليونانيين على ما يشبه القطيع من سكان المدينة العزل ، فيدخلون المدينة هاتفين : « زيتو فنزيلوس ! » ثم يهرعون الى الثكنة العسكرية حيث الحامية التركية

التي سلمت سلاحها فيطلقون عليها النيران . . فيحاول أحد الضباط الأتراك رفع الراية البيضاء فتصرعه طلقة من ضابط يوناني . . .

ثم يصدر الأمر بنقل الحامية التركية الى قطع الأسطول البريطاني ، فيسير جنود الحامية في الطرقات صفوفا متراصة . فيتفكه اليونانيون بقتلهم الواحد تلو الآخر فلا يصل إلى الأسطول الا عدد قليل ! !

فاذا ضربنا صفحاً عن تلك المأساة فهاهي ذي مآس أخرى أشد هولا وأقسى عذابا : فهؤلاء جنود يونانيون يرون احدى المحصنات تجري في الطرقات باحثة عن وحيدها ، فيتكاثرون عليها ويمزقون ثيابها ويعتدون على عفافها اشنع اعتداء وحشي وهي تصرخ وتولول . . .

وهذه امرأة حامل : يبقر اليونانيون بطنها ويستخرجون منه الجنين فينتقمون منه قبل أن يولد ! !

وهؤلاء جنود يقتحمون المنازل ويقتلون ويعذبون وينتهكون الحرمات تحت سمع الانجليز والفرنسيين والايطاليين والامريكيين وبصرهم . . .

ثم يتشدقون بعد ذلك بأنهم انبل أهل الأرض محتداً وأعظمهم رفداً

الوطنيون يصدرون كتاباً بالفرنسية يسجلون فيه وحشية اليونان وتواطؤ الحلفاء معهم . ويقدم استجواب عن تلك الفظائع في مجلس العموم البريطاني ، فتتألف لجنة من الجنرال هار الانجليزي ، والجنرال نيوسكي الفرنسي ، والجنرال داوليو الايطالي ، والاميرال برستول الامريكي للتحقيق في فظائع اليونان . ولكننا نتساءل : هل ثبتت التهمة على أحد ، وهل حكم على يوناني واحد بالاعدام أو ما هو دون الاعدام ؟ !

ولا تكاد تعود لجنة التحقيق الى اسطول الحلفاء حتى يعود اليونان الى أعمال القتل والسلب وهتك العرض . فاذا ما فرغوا من ازمير تراهم في القرى المجاورة وخاصة في منيمين حيث يعيدون تمثيل مأساة ازمير ويذبحون من الأتراك ما يربي على الألف بين طفل مسكين وشيخ كبير وعجوز محطمة وحامل وبكر ، ولا يدعون منزلا واحدا حتى يقتلوا من فيه ممن لم يفروا الى القرى المجاورة ، وحتى ينتهكوا أعراضاً عزيزة

فلنسدل الآن على هذه المأساة ستار النسيان !

تركيا الممزقة ..

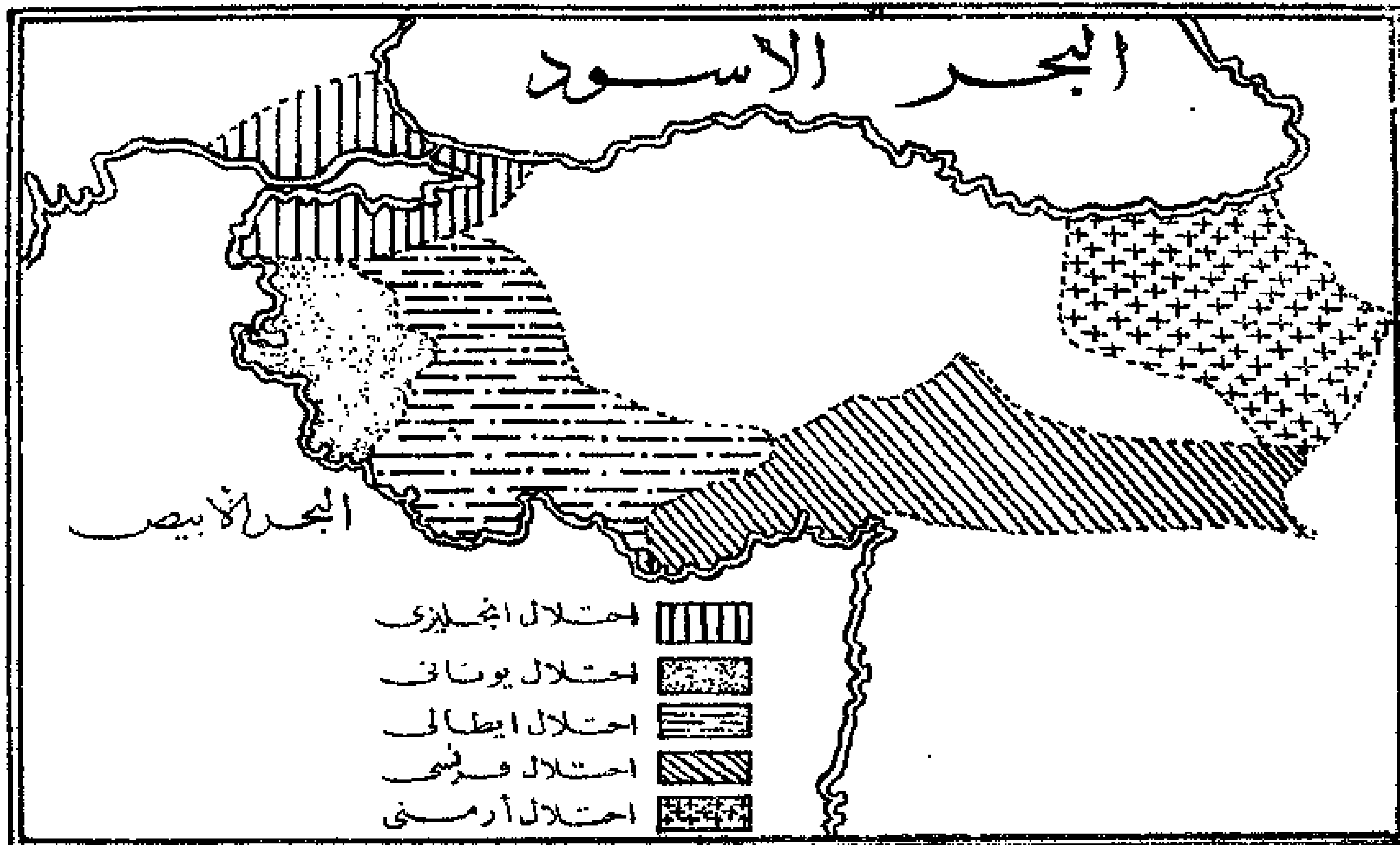
ماذا بقي من الامبراطورية العثمانية ؟
أملاكها الشاسعة أصبحت أثراً بعد عين
وها هي ذي بلادها تمزق وتوزع على الحلفاء الظافرين :
فمنطقة البوغاز لانجلترا . وأزمير وما حولها لليونان
ومنطقة قونية وأنطاكية وما حولها لايطاليا
والجنوب الشرقي من تركيا لفرنسا
والمنطقة الشمالية الشرقية للأرمن
وللأتراك ما بقي بعد ذلك !

وليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل ان ما بقي بعد ذلك كان مرتعاً خصباً للجواسيس والجمعيات الهدامة التي أنشأتها العناصر المسيحية :

فهناك جمعية « موديرا » وجمعية الصليب الأحمر اليونانية ، وجمعية الكشافة اليونانية ، وجمعية الروم وعلى رأسها البطرك ساوين أفندى ، وجمعية « بونتوس » في طرابزون وسمسون ، وجمعيات أخرى في ديار بكر وبتليس والعزيز ، وجمعية تدعو لانفصال الأكراد عن تركيا ، وجمعية أصدقاء الانجليز في استامبول وعلى رأسها وحيد الدين والداماد فريد ووزير الداخلية وغيرهم ــ وكان القس « فرو » أهم أعضائها العاملين ــ وجمعية أصدقاء الامريكان ، وو الخ . .

وتألفت الى جانب هذه الجمعيات جمعيات أخرى وطنية تعمل على مناهضة الدس والدساسين ، نذكر منها جمعيات ادرنة ، وتراقية ، وباشا على ، وأرضروم ، والعزيز ، وطرابزون ، وأوف ، ولازستان ، وأزمير الخ الخ . . ولكن هل كان لهذه الجمعيات برامج وطنية تسعى لتحقيقها بالوسائل العملية ؟ كلا . بل إن منها ما وضعت برامج لا تكاد تعقل ، كجمعيتي تراقيا الشرقية والغربية اللتين عولتا على نيل الاستقلال بمساعدة انجلترا وفرنسا ! ! وأما سائر الجمعيات الاخرى فكان رائدها انقاذ ما يمكن انقاذه مع الاعتراف ببقاء الاحتلال

وفي هذا الخضم الزاخر بالجمعيات كان الوطن ينتحر ! وكنت لا تسمع في استامبول الا النقاش البيزنطي ، وكثر أدعياء السياسة فأصبح كل نكرة من هلافيت


البحر الاسود
البحر الابيض
احتلال انجليزى
احتلال يونانى
احتلال ايطالى
احتلال فرنسى
احتلال أرمنى

العاطلين يتشدق بوجوب الاعتراف بالحالة الراهنة والبقاء تحت نير الاحتلال حتى تستقر الأمور، ثم تشرع الحكومة فى مفاوضة الحلفاء واقناعهم بأحقية المطالب الوطنية، كأن المفاوضة قبل الحرب تؤدى الى استقلال أو ما يشبه الاستقلال!

أما الجيش فكانت فلوله مازالت قائمة فى قونية وأفيون قره حصار ودينزلى وأنقرة ونجدة وأزمير وباليكسر وبورسه وبندرمة وسيواس وأرضروم وديار بكر وكان أشبهها بالجيوش المنتظمة جيش كاظم قره بكير فى أرضروم

يد القدر

لم يعد عن الثورة من محيص

معجزة القرن العشرين توشك أن تتم

دعاة الاحتلال يسخرون من دعاة الثورة ويتهمونهم بالجنون

وحكومة الداماد فريد تسلم للمحتلين كل شىء. والخليفة منكمش فى قصره وقد عول على الرضا بما قسم له وقنع من امبراطورية آل عثمان بعرش يجلس عليه فى بلد محتلة أرضه، محتلة مياهه، محتلة سماؤه

الثوار (المجانين) يؤلفون العصابات حول كل بلد احتله الحلفاء واليونانيون. والاسلحة تهرب اليهم من حينما وجدت وتحت أنف الحرس الانجليز

وحتى اللصوص وقطاع الطرق يتوبون الى الله عما أسلفوا وينضمون بعصاباتهم المسلحة الى عصابات الثائرين!

وأما قلب الاناضول فلا يكاد ينبض. ولكن الثورة مكبوتة فى صدور المجاهدين فى انتظار الزعيم

فأين هو الزعيم؟

ما كان يخطر ببال أحد أنه شخص معين بالذات. فقد يكون كمالا، وقد يكون كاظم قره بكير، أو رءوفا، أو غير هذا وذاك من قواد الجيش ووزراء الدولة السابقين

أنا لا أشك فى أن كل رجل من هؤلاء كان يفكر فى الثورة. بيد أن كمالا الثائر كان أسبقهم الى العمل المنظم

انه يذهب الى السراى ويقابل وحيد الدين مقابلة سرية فيعرض عليه الخليفة

وظيفة « مفتش عام لشمال الاناضول وحاكم عام للولايات الشرقية » ويصدر اليه الأمر بالسفر الى الاناضول وتسريح بقية الجيش العامل فيه والقضاء على حركاته الثورية

ولكن لماذا اختار وحيد الدين كمالا دون غيره ؟

هنا يقف المؤرخ متحيراً ولا يسعه الا أن يقول : هى يد القدر تعمى البصائر . . وهى دبلوماسية بارعة من مصطفى كمال الداهية !

ومن عجب أن تعمى بصيرة الانجليز عن بطل الدردنيل الذى دحرهم قبل أربعة أعوام فتوافق القيادة الانجليزية الآن على ايفاده فى تلك المهمة الخطيرة ، وكأنها تقول للهشيم فى الاناضول : هاك النار فاشتعل !

مصطفى كمال يودع أمه وداعاً عاجلا ويذهب الى وزارة الحربية فيزورها زيارة قصيرة ، ثم يستقل السفينة وفى صحبته رأفت بك قائد الجيش الثالث فى سيواس ، الى مياه البحر الاسود ، الى شمال الاناضول

وبعد أن يفلت الصيد من الشباك يتنبه الخليفة الى غفلته ، والانجليز الى غلطتهم ، فيصدر الامر الى مصطفى كمال بالرجوع ، ولكن هيهات ! فقد وصل الى ميناء سمسون فى ١٩ مايو سنة ١٩١٩ ، فلما وجدها تحت الاحتلال العسكرى غادرها الى الداخل

وفى مدينة أفزاعى جنوب سمسون تبلغه أنباء الاحتلال اليونانى لأزمير وما ارتكب فيها من فظائع وآثام ، فيعقد من أهل المدينة حفلا يقوم فيه خطيباً ــ لأول مرة فيما نعلم ــ ويحض الاتراك على الثورة والدفاع عن الوطن والاعراض ، فتنهمر الدموع من المآقى ، ويتطلع اليه الجميع فى أمل يعتوره اليأس . .

وينقل الجواسيس أقواله الى الانجليز فى سمسون ، فيخابرون السلطات العليا فى العاصمة ، فيصدر الامر بالقبض عليه ، ولكنه يفلت من قبضتهم إذ يفر الى أماسيا حيث لا احتلال ولا سلطة عسكرية ، وهناك يتنفس الصعداء ويشعر بحرية القول والعمل ، فيخطب فى الجماهير كل يوم ، ــ بل كل ساعة ــ حاملا على الانجليز حملة شعواء ، داعياً أبناء وطنه الى الثورة والقتال

ولكن أية ثورة ! وأى قتال ! وأين هو المال ؟ وأين الرجال ؟

مصطفى كمال لا يعرف المستحيل . ولذلك تراه يبادر فيدعو كلا من رأفت وعلى فؤاد ورءوف ــ الذى استقال من وزارة البحرية وأخذ يؤلف العصابات حول أزمير ــ

فيجتمع الاربعة فى أماسيا ـ وينضم اليهم عارف صديق مصطفى كمال الحميم ـ ويقررون:

١ ـ تنظيم جيش للدفاع عن أزمير وما حولها بدل العصابات غير المنظمة

٢ ـ بث روح الثورة فى جميع المدن والقرى وانشاء مراكز لتدريب المتطوعين وجمع المال وتوفير الاسلحة والذخائر

٣ ـ تقسيم الاناضول الى ثلاث مناطق دفاعية : فالمقاطعات الشرقية من نصيب كاظم قره بكير ، والغرب من نصيب على فؤاد ، والقلب يشرف عليه مصطفى كمال

٤ ـ اقامة حكومة مركزية للدفاع عن البلاد لاتكون لها صلة بحكومة السلطان . على ان لايتم تأليفها الا بعد استشارة نواب يمثلون البلاد تمثيلا لاشائبة فيه

الخليفة سجين ! فهلموا معنا !

الزملاء يتفرقون كل الى جهة . ومصطفى كمال يجوب القرى حول اماسيا وقد انتعشت آماله ووطد عزمه على الثورة وقتال المحتلين

انه يرى فى المستقبل المظلم قيـام الثورة فى كل مكان . وقتال اليونانيين الذين راحوا يتقدمون بجحافلهم وذخائر الحلفاء شطر قلب الاناضول . . وانتصاره عليهم . . وامعانه فيهم قتلا واسراً . . وامعانهم فى الهرب . . واملاءه شروط الصلح على الحلفاء . . وخروج الحلفاء من تركيا . . وتحيتهم للعلم التركى الظافر . . وقيام الحكومة الكمالية فى انقرة . . والغاء السلطة والخلافة . . واعلان الجمهورية . . والسير بتركيا فى معارج الرقي حتى تصبح دولة كبيرة ذات خطر . . .

يرى كل ذلك بعين البصيرة فيزيل من أمامه تلك العقبات التى تتحدى قوة البشر ، ويغالط نفسه فلا يرى هذا الشعب المحطم والحكومة الخائنة والخليفة الخائن والفقر والبؤس واليأس . . . وبهذا الروح تراه يخطب فى الناس فيقول لهم ان الانجليز ـ اعداء الشرق والاسلام ـ وطدوا العزم على القضاء على تركيا ومحوها من عالم الوجود ـ تركيا الخالدة ، تركيا المجاهدة ، تركيا حصن الدين وسيف الاسلام . . وان اليونان سيقيمون فى قلب الأناضول حكومة ودولة . . وان الخليفة أسير فى استانبول ولا يملك من الأمر شيئاً ، ولو أنه كان مطلق السراح لصاحبه فى رحلته تلك ولكان أول من ينادى بالثورة وحمل السلاح فى وجه العدو الغاصب . . والدليل المادى على أسره

أنه لم يحتج على فظائع ازمير ـ مع أن هذا الاحتلال تم بموافقة الخليفة ، وأنه هو نائب الخليفة وممثله جاء يحض الناس على اعلان الحرب الدينية والجهاد المقدس . . « فثوروا لكرامتكم ،ودافعوا عن عرينكم ، وعن دينكم ،وعن أعراضكم الملوثة ، وتطوعوا فى الجيش الأهلى لتقهروا أعداءكم وأعداء الاسلام . . . »

يا للعجب !

ان هذا الرجل النحيل الشاحب الوجه يحرك كتلا صماء من اليأس والخور . . والحماسة تخلق مما يكاد يشبه العدم . . والجنود والضباط المتقاعدون يعثون من هنا ومن هناك ، ويهرعون الى حمل السلاح ـ وأى سلاح ! والى تدريب مئات المتطوعين وآلافهم !

ثم ينتقل من آماسيا الى ارضروم ، وهناك يقول : « ما بالكم لا تثورون ؟ ألا تعلمون أن انجلترا اللعينة وعدت الأرمن بجمهورية ارمنية تقام على انقاض ولايتكم وعلى قبوركم ! ؟ » فتفعل هذه الكلمة فى الجماهير فعل السحر فيهبون للدفاع عن بلادهم ومقاومة الجمهورية الأرمنية المنتظرة . .

وفى ارضروم يتقابل الرجلان الكبيران : كمال وكاظم قره بكير ، فيطلع كمال زميله على قرارات آماسيا فيوافقه عليها ، ثم يغادر كمال البلدة ويطوف بالقرى المحيطة بها لتنظيم القوات الدفاعية ، داعيا الضباط والجنود الى عدم تسليم اسلحتهم للحكومة لأنه ـ باعتباره ممثلا للخليفة ـ يأمرهم بذلك

وبعد بضعة أيام تصله رسالة برقية من السلطان يأمره فيها بالعودة . . . فيذهب الى مكتب التلغراف ويبرق الى خليفة المسلمين داعياً اياه الى الأناضول لقيادة جيش الخلاص . ويظل ينتظر الرد الى الصباح . فيصله رد مقتضب يأمره بالعودة الى العاصمة على جناح السرعة ! !

فهل كان كمال يريد ـ أو يتوقع ـ قدوم الخليفة لقيادة جيش الخلاص ؟ اللهم كلا . . فهو يريد أولا وقبل كل شيء أن يثبت للملأ أن الخليفة لم يعد يملك من الأمر شيئاً ، وأنه سجين فى استانبول ، وأنه لولا ذلك لما أمره بالعودة الى العاصمة وهو الذى أوحى اليه سراً بوجوب الثورة والجهاد . وعلى ذلك فهو يرد على الخليفة قائلا انه سيظل فى الأناضول حتى تنال البلاد استقلالها ، وانه يستقيل من الجيش ويشرع فى الثورة كمواطن بسيط

نواب الامة يقررون الجهاد

المواطن مصطفى كمال يدعو نواب الأمة الى ارضروم لعقد مؤتمر عام يقررون فيه مصير الوطن

ولا يكاد النواب يصلون الى ارضروم حتى يوجه دعوة عامة الى سائر جهات الأناضول يقول فيها : « ان كيان الوطن أصبح معرضاً للضياع . ولما كانت حكومتنا المركزية واقعة تحت مراقبة الدول المتحالفة ، فقد استحال عليها الوفاء بالعهود التى قطعتها على نفسها . ومثل هذه الحالة تظهر افلاس الأمة ــ لا قدر الله . .

« بيد أن استقلال البلاد مازال موكولا الى عزم الأمة وارادتها . ولابد لذلك من قيام هيئة وطنية لا تخضع لتأثير أو مراقبة حتى تصلح حال الأمة وتفرض حقوقها على العالم أجمع . لذلك صممنا على عقد مؤتمر وطني عام فى سيواس ــ على أن يصل أعضاؤه فى أقرب فرصة مستطاعة

« فعلى كل لواء عثمانى أن ينتخب ــ بغاية السرعة ــ ثلاثة أعضاء أكفاء وأن يوفدهم الى سيواس . . الخ الخ . . »

ثم ينصح الأعضاء المنتخبين بالتكتم والتنكر عند المرور فى البلاد الواقعة تحت الاحتلال . أما عن نواب مؤتمر ارضروم ، فيقول انهم سينضمون الى المؤتمر العام فى سيواس بمجرد فراغهم من أعمالهم المقررة

ولا يكتفى مصطفى كمال بدعوة نواب الأناضول الى سيواس ، بل يعمل على أن تنتخب تركية أوربا نواباً عنها ، ولذلك تراه يبرق الى جعفر طيار بك قومندان الفرقة الأولى فى أدرنة بهذا الخصوص ، قائلا : «تعلمون أن الدول المتحالفة تعمل على القضاء على استقلالنا والتمهيد لانقسام الشعب التركى الى شيع واحزاب ، ولما كانت حكومتنا المركزية واقعة تحت الأسر ، فقد أصبح تسليم زمامنا لها تسليما بالفناء والانقراض ــ معاذ الله . . ولذلك اعتزمنا عقد مؤتمر سيواس الخ الخ . . »

ولا يكاد مؤتمر أرضروم يعقد أولى جلساته ، حتى يصدر أمر الخليفة الى كاظم قره بكير بالقاء القبض على مصطفى كمال وترحيله الى العاصمة . . وبفض مؤتمر ارضروم بالقوة . .

لماذا ؟ !

لأن مصطفى كمالا ثائر متمرد . . لأن عطف الخلفاء لا يقابل بهذا الجحود . لأن الداماد فريد الذى يفاوض الحلفاء لا تتاح له المفاوضة والاناضول ثائر . . لأن الأمر أصبح فى يد الخليفة حامى الاسلام والمسلمين ومعلى كلمة الحق والدين ، فمن هو هذا الأهوج الطائش الذى يثور ضد الحلفاء اصدقاء الخليفة ؟

مصطفى كمال فى خطر : فالقبض عليه معناه سوقه الى العاصمة مكبلا فى السلاسل ، والقاؤه فى غيابة السجن — ان لم يحكم عليه بالاعدام

والثورة التى يمهد لها فى خطر : فحل مؤتمر ارضروم بالقوة قضاء على الحركة الوطنية فى مهدها ، ولن يجسر أحد على عقد مؤتمر آخر بعد ذلك . .

النواب يعاودهم الخوف والشك فى نجاح الحركة الوطنية . والآمال الذهبية التى أحياها كمال فى قلوبهم توشك أن تنهار . . .

وكاظم قره بكير رجل الساعة والقابض على مصائر الوطنيين يتراوح بين الخضوع الأعمى لأوامر الخليفة ، وتلبية نداء الواجب . .

والحق يقال أن ساعات من الشك المريب فى نجاح الحركة الوطنية تمر به فتنغص عليه حياته وتكاد تحمله على اعداد حبل المشنقة لجمهرة الثائرين . .

ولكنه وطنى قبل كل شيء . وكمال الداهية يضرب له على الوتر الحساس كلما جلس اليه ليقوى من عزيمته ويرجح فيه كفة أداء الواجب الوطنى على كفة طاعة أوامر الخليفة . .

وأخيرا — وبعد أيام من اليأس القاتل والشك المريب تتهلل الوجوه بعد اصفرارها ، وتعود القلوب الى وجيبها بعد أن كادت تصعق ، فكاظم قره بكير — الرجل ذو القلب الكبير — يعصى أوامر الخلافة ويلبى نداء الواجب !

ويجتمع المؤتمر فى اليوم التالى وقد بلغت حماسة الأعضاء حدها ، وسرعان ما يقررون انتخاب مصطفى كمال رئيساً لهم وقائدا لثورتهم . .

ومن العجب أن ينتخب هؤلاء الأعضاء كمالا لرئاسة المؤتمر وقيادة الثورة وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يرأسهم أحد . .

إنهم يقدرون كمالا حق قدره ، ويدركون أنه هو — دون غيره — رئيسهم وقائد ثورتهم المقبلة . ولكن شيئاً من الغيرة والتوجس يأبى عليهم أن ينتخبوه للرئاسة : فوجهه النحيل الضامر ، وعينا الذئب ذواتا البريق الرهيب والتألق المخيف ، وأقواله

المعسولة التي كانت تبدى ما تحت عسلها من سم اعتزم أن يصبه في فم الخليفة صبا . .
وأخيراً تلك اليد الحديدية التي يلوح بها في الهواء . . آه . . ما أغرب طباع البشر !

انهم يرون رأيه في الثورة ويتحمسون لها . ولكن ثمة قدساً من الأقداس تقشعر أبدانهم من مجرد التفكير فيه : فالخليفة ـ مهما تكن نقائصه ـ هو الخليفة . . وامره ـ مهما يكن جائراً ـ هو من أمر الله . . وعصيان الخلافة كالكفر بالله . . ومبتور هو ذلك المهند الذى يشهر في وجه حامى حمى الدين وخليفة المسلمين !

بيد أن المعجزة تم اذ ينتخب كمال للرئاسة كما اسلفنا . ولا عليه بعد ذلك اذا كان الأعضاء قد تسرعوا في انتخابه ، فهو الآن رئيسهم ، وهو الآن رئيس لمؤتمر اقليمى سوف يتبعه مؤتمر قومى ، وليس مجرد « مواطن » لا صفة رسمية له

مصطفى كمال الرئيس يعتلى منبر الخطابة ليشكر الأعضاء على جميل صنعهم ، فيقول ـ بعد عبارات الشكر المألوفة : « ان من المحال أن يرى وطنى ما حاق بالوطن من كوارث ونكبات ثم لا يثور . . وان الوطنيين ألقوا سلاحهم بعد أن اطمأنوا الى انصاف الظافرين ـ وكان في مقدورهم أن يقاتلوا حتى يقتلوا ـ أو ينالوا حقوقهم ـ بيد أن اطمئنانهم الى انصاف الاقوياء استحال الى تسليم وخضوع أعمى من جانب الحكومة المركزية . ثم استغل الحلفاء هذا الخور والتسليم أسوأ استغلال اذ اقتسموا الغنيمة فيما بينهم ومزقوا تركيا شر ممزق ، ثم أطلقوا اليونان على قرى الأناضول الآمنة ليعيثوا فيها فساداً وليتهكوا أعراض الترك ويدوسوا على حقوقهم وما يقدسون . وإن الحكومة المركزية التي قبلت كل ذلك انما هى حكومة لا تخضع لاشراف ممثلى الشعب بعد أن أغلق مجلس المبعوثان واحتل الحلفاء العاصمة . وان الحلفاء معذورون في انتهاكهم حرمات الأمة : فهم ظافرون ، والأتراك منهزمون ، وعروق الوطنية لم تعد تنبض بالوطنية . . ولاجرم يقسمون تركيا الى أملاك ارمنية ، وأخرى يونانية . وثالثة انجليزية ، ورابعة فرنسية ، وخامسة ايطالية . . يريدون بذلك أن يذلوا وطنا لم يشهد الاذلال منذ ستمائة وخمسين عاماً وصل فيها الى حدود الهند شرقا ، والنمسا غربا ، والروسيا شمالا ، وقلب افريقيا جنوباً . . فوا أسفاه على امبراطورية تنهار . ومجد يهوى الى حضيض الذل ، وفخار ينقلب شناراً واسترقاقا ! »

وكأنه يخشى أن تؤثر هذه الأقوال في الأعضاء عكس التأثير المطلوب . لذلك تراه يعرض حال الشرق المنكوب بعد الحرب العظمى : ويبدأ بمصر فيصف ثورة

المصريين بعد نفي زعيمهم وصحبه الى مالطة . ثم يعرج على الهند فيصف ثورتها وجهادها في سبيل الاستقلال . ثم يعرض الثورات في سوريا والعراق ، ويذكر جهاد افغانستان والقوزاق وآذربيجان وكورجستان . فاذا اطمأن الى أن قلوب الأعضاء بدأ يدب فيها دبيب الحياة ، نراه يصف الحالة الدولية وصفاً اجماليا ، ويخص الروسيا الشيوعية بالشرح الطويل وكأنه يرى فيها حليفة المستقبل . .

وأخيراً نراه يصف استامبول المحتلة وخروج الوطنيين منها بعد أن ثقل عليهم نير الاحتلال ، ويقول ان بقاء الرجال المسئولين في العاصمة أمر غير معقول ، وانهم اذا صمموا على البقاء فيها فمعنى ذلك أنهم سوف لا يعملون شيئاً ، ولذلك وجب قيام حكومة ثانية في الأناضول . .

وأخيراً يقول الرجل النحيل ، الضامر الوجه ، ذو العينين البراقتين :

« وفي ختام خطابي ابتهل الى الله واهب الآمال الذي لم ينس أمتنا التي دافعت عن هذا الوطن المبارك وهذا الدين الأحمدي الجليل — وستدافع عنهما الى يوم القيامة — والذي لم ينس جل شأنه مقام الخلافة والسلطنة . . ابتهل اليه أن يدفع بنا الى النصر والتوفيق بعد أن اخذنا على عاتقنا الدفاع عن حقوقنا المصونة المقدسة . . آمين ! »

كلام غريب ! . ولعل أغرب ما فيه ذكر الخلافة والسلطنة في معرض الابتهال الى الله !

النواب تملأ قلوبهم الحماسة الدينية المشبوبة فيصفقون طويلا ويهتفون بحياة الرئيس . . ثم يقررون باجماع الآراء :

١ — تنظيم الدفاع عن الوطن ومناهضة الاحتلال

٢ — اقامة حكومة مركزية وطنية في الاناضول

٣ — انتخاب من يمثلهم في مؤتمر سيواس

الى سيواس . . .

مؤتمر سيواس يوشك أن ينعقد

مصطفى كمال رئيس مؤتمر أرضروم في عمل دائم ليل نهار : فهو على اتصال مستمر بوالي سيواس مصطفى رشيد باشا يصدر اليه الأمر تلو الأمر في وجوب التمهيد

لعقد المؤتمر . وهو على اتصال دائم بحسي افندى قاضى سيواس يحاول اقناعه بأن ليس ثمة خطر من عقد المؤتمر فى سيواس . ثم إنه يبرق الى قائد الفرقة الثالثة فى سيواس قائلا ان مؤتمر أرضروم صادف نجاحا لم يكن ينتظر منه ، وان قراراته قوبلت بحماسة شديدة ، وان دول الاحتلال لم تر فيه خروجا على المألوف . فهذا وطن يأبى أن ينتحر ويعمل على الخلاص من ربقة المحتلين . وكأنه يخشى أن يضعف القائد اذا حان حين العمل فتراه يهدده بأن كل من لا يتحمس لمؤتمر سيواس إما أن يكون جبانا ، وإما أن يكون خائناً . . ولا يكتفى بذلك بل يبرق ويكتب الى مئات من وجوه المقاطعات وأعيانها حاثا اياهم على وجوب الجهاد بأساليب تناسب كلا منهم ، وان فى هذه الأساليب ما يصل الى الذروة فى البلاغة وقوة الحجة ، وما تنفطر منه القلوب وتسيل الدموع ، ويذكى فى القلوب نارا . .

وفى كل يوم ترى مثلا عليا للتضحية والوطنية :

فهذا شباب يقبل على كال ويطرح بين يديه حياته ومستقبله . وذاك وجيه يطرح أمامه ثروته . وتلك امرأة تراه فتبكى وتعده بالمساهمة فى الجهاد . وأولئك القرويون السذج يتطوعون فى جيش الخلاص أو يتبرعون بجانب من محصول أراضيهم للجنود

وهناك فى استامبول : البلد المحتل ترى فى بهيم الليل ، ومن وراء ستار ، فصولا لأروع مأساة عرفها القرن العشرون : فأنباء مؤتمر أرضروم تصل الى العاصمة فيسخر منها فريق المتخاذلين ويتحمس لها المجاهدون . وانك لترى ألوانا من التجسس والغدر لا تتاح لك رؤيتها الا فى مثل تلك الأيام السود . فاذا ما تغلغلت فى صميم القلوب السليمة وولجت أبواب المنازل رأيت آيات من البطولة الفذة :

فهنا جماعة من الشبان يجلسون حول مائدة عليها المصحف والسيف ويقسمون على الموت أو الحياة الحرة . .

وهناك جماعة تهرب الأسلحة الى الأناضول . . فاذا سألتنا : كيف ؟ قلنا والله لا نعلم ، ولا يتاح لنا أن نعلم . .

وفى غرفة مظلمة اختنقت بدخان اللفائف يجلس شاب تركى نحيل تتدلى على جبينه خصلة من الشعر نابليونية ، ويروح يصف لأحد مراسلى الصحف الأجنبية أو الملحقين بالسفارات الأجنبية أحوال الثورة ويدافع عن حقوق الوطن ويصف كالا وصحبه بأنهم أبطال يجب الدفاع عنهم والمساهمة معهم فى الجهاد . ولا يكاد يفرغ من

حديثه حتى يتحمس الأجنبي للقضية التركية ويخرج من الغرفة وقد آلى على نفسه أن يساهم في الجهاد مع الساهمين . .

وهذه فتاة يلح عليها خطيبها في وجوب عقد الزواج ، فتصيح في وجهه : « أى زواج والوطن ينتحر ! » . . ثم تراها واقفة أمامه كاللبؤة الثائرة وقد جحظت عيناها وتشعث شعرها وراح صدرها يعلو ويهبط ، وتسمعها وهي تهيب به : « أن جاهد مع المجاهدين ، ومت مع الشهداء ان كانت فيك رجولة وكان فيك رجاء . . ! »

آلاف من هذا الشباب وهؤلاء الفتيات تراهم وتراهن في كل مكان وان لم يظهروا في أى مكان . والثورة جياشة في الصدور وان لم يبد منها شيء على الوجوه . وصفحة البسفور والبحر الأسود ترى سفناً وقوارب صيد عتيقة تحمل زهرة الشباب التركى في لباس النوتية ، وتحمل الأسلحة والذخائر تحت طبقة من الغلال أو الفاكهة أو شباك الصيد

والآن نعود الى سيواس لنرى النواب وهم يتقاطرون على المؤتمر من كل فج ، وفيهم الضابط المتقاعد والعامل والسياسى والتاجر والقاضى وشيخ العشيرة : هـذا بلباسه الأوربي ، وذاك بلباس رجال الدين ، والآخر باللباس الوطنى القديم . وترى فيهم حليق اللحية ومطلقها ، والعصرى المتسامح والمحافظ المتعصب . .

كل أولئك يصلون الى سيواس بعد جهد جهيد وتعرض لأخطار لا عداد لها . بل ان كمالا نفسه ينجو من خطر القبض عليه بأعجوبة ويصل الى سيواس حيث يتصل بالنواب قبيل عقد المؤتمر ، فيرون فيه الذئب النحيل الضامر ذا العينين المتألقتين . ويسمعون منه كلاماً هائلا ما كانوا ينتظرونه ، فيتحمسون ، ثم يجبنون ، ثم يعاودهم التحمس ، وأخيراً تستقر نفوسهم حيث الحماسة ولكن الغيرة والتوجس يأكلان قلوبهم . . .

ويعلم النواب أن امريكا أوفدت مندوبا عنها الى سيواس ليحضر المؤتمر ويوقف الحكومة الامريكية على حقيقة الحال في الأناضول ، كما يعلمون أن فرنسا وايطاليا تنظران بعين العطف الى الثورة التى توشك أن تشتعل ، فيعجبون أيما عجب ولا يعلمون ان هذا العطف مصدره ذاك الشاب التركى النحيل ذو الحصلة النابليونية الذى يقضى ليله ساهراً في حجرته المظلمة المختنقة بدخان التبغ في استامبول . .

المؤامرة

وينعقد المؤتمر فى سيواس

وفى أول جلسة من جلساته يشعر كمال بأنه أمام نواب شديد مراسهم طويلة مناقشاتهم يمقتون الرئاسة أشد المقت وفى نفس الوقت يلحون فى طلب الرئاسة ذات الارادة الفولاذية !

حدثنى أحدهم فقال : كنت أمقته . . ولـكنى كنت أراه أصلح الموجودين لقيادة الثورة ، ولذلك انتخبناه رئيساً . .

وحتى كاظم قره بكير : الرجل الطيب الذى عرفه قائداً فى القوقاز ونفذ أوامره بدقة ، نراه يطلب اليه بالحاح ألا يوقع على مراسلات المؤتمر بامضائه

بيد أن كمالا يتجاهل كل ذلك وينبرى على المنبر خطيباً ، فيشكر للاعضاء اشتراكهم فى المؤتمر ، ويقص عليهم قصة الوطن المنكوب من يوم توقيع صلح مودروس الى الساعة التى يخطب فيها ، فيستمع اليه النواب فى اعجاب يبلغ حد القداسة ، حتى اذا ما راح يحدثهم عن الصدر الأعظم فريد وعن رحلته المشئومة الى باريس لتسجيل الفناء على تركيا نرى الثورة متجلية فى نظراتهم وهتافاتهم : ليسقط الخائن ! فاذا قال لهم ان فريداً استنكر الحركة القائمة فى الاناضول ـ بل كذب حدوثها رسمياً ـ لعنوا فريدا وحكومة فريد وكل من يشد أزر فريد . .

ويختم كمال خطابه بكلمة عن وجوب توحيد الجهود والجمعيات الوطنية المتعددة ، ويقول ان الأمر صدر بالشروع فى الانتخابات الحرة ، فعلى النواب أن يصمدوا فى الميدان « وستتحقق آمالـكم باذن الله . . »

وبعد دقائق معدودات تصل الى كمال برقية من كاظم قره بكير يقول فيها ان أحد جواسيس الانجليز ـ ويدعى البكباشى نويل ـ ذهب الى ملاطيـة للقيام بين الأكراد بدعاية واسعة النطاق ضد الحركة الوطنية ، وان أسرة بدرخان وأسرة جميل باشا تعملان مع هذا الجاسوس بايحاء من حكومة فريد

مصطفى كمال يقرأ هذه البرقية على أعضاء المؤتمر ، ويبين لهم خطورة المؤامرة : فهذا جاسوس انجليزى يعمل بأمر من حكومة استامبول على اثارة الأكراد والهجوم بهم على سيواس والفتك بأعضاء المؤتمر الذى يضم خيار الوطنيين . . فهل هم بعد ذلك

فى حاجة الى دليل مادى على خيانة الحكومة القائمة فى استامبول ؟

ثم نرى رجل الحرب ينطلق من مؤتمر السياسة الى حيث يتحدث مع جمال بك قومندان الفرقة الثانية عشرة الخيالة فى منطقة ملاطية ، فيعلم منه ان والى العزيز وفد على ملاطية حيث قابل نويل مقابلة طويلة . . فيسأله عن عدد الحامية التركية فى ملاطية ، فيعلم أنها لا تزيد على عشرين رجلا . . فيأمره بالقبض على المتآمرين ، فيعتذر بعجزه عن ذلك . فيصدر كمال أمره الى الياس قومندان العزيز وإلى قوات خربوط وسيورن وسيواس بالهجوم على ملاطية ، وتكاد هذه القوات تقبض على المتآمرين لولا فرارهم على ظهور الجياد فى جنح الليل . .

ويجد الضباط الأتراك فى المكان الذى غادره المتآمرون ستة آلاف جنيه ذهباً كانت أعدت لرشو رؤساء العشائر الكردية !

ويعود رجل الحرب الى مؤتمر السياسة بعد أن يكون قد وحد القوات الوطنية فى منطقة ملاطية والعزيز وسيواس وأمرها باجتثاث حركة الأكراد من أصولها . يعود ظافراً ويطمئن رجال السياسة على حياتهم وعلى مؤتمرهم ، فيعترفون بفضله ورئاسته ، فيحثهم على ارسال احتجاج شديد اللهجة الى الخليفة فيوافقونه على رأيه باجماع الآراء

ويرسل رشيد باشا والى سيواس خطاباً شديد اللهجة الى وزير الداخلية التركية يحتج فيه على مؤامرة ملاطية ، فيرد عليه وزير الداخلية بقوله ان المؤامرة تمت بموافقة الخليفة وتوقيعه « رغبة منه فى المحافظة على سلامة الوطن ! »

ليسقط الخفاش الاسود !

مصطفى كمال دائب على تحرير العرائض والاحتجاجات . فهذه عريضة طويلة يرفعها الى الخليفة باسم مؤتمر سيواس مستنكراً فيها عمل الحكومة على الايقاع بالوطنيين ، مما يؤدى الى اهراق دماء المسلمين وضم الأكراد الى صف انجلترا ، ويطلب فى آخرها تحقيقا شاملا ينجلى بعده الجو وتنقطع الدسائس

ثم نراه يحرر احتجاجاً شديد اللهجة يطلب فيه من الخليفة اسقاط وزارة الداماد فريد « بعد أن ثبتت خيانتها وعملت على الدس وبذر العداوة بين القوميات العثمانية »

ولا يكتفي بذلك بل يصدر باسم للؤتمر نشرة عامة للجمهور يتهم فيها الحكومة بتأخير اصدار قانون الانتخابات والموافقة على احتلال اليونانيين لطوروس وما جاورها في مذكرتها التمهيدية لمعاهدة سيفر . . فيكون لهذه النشرة أثر شديد في اثارة الرأى العام الذى هتف من صميم قلبه بوجوب اسقاط الخفاش الأسود الداماد فريد . .

مصطفى كمال يكاد يظفر بتأييد الرأى العام بعد أن ظفر بتأييد نوابه . وهذا التأييد يحمله على توجيه احتجاج نارى جديد الى الخليفة يحمل فيه على الوزارة الخائنة، ويلقى عليها تبعة الكوارث التى حاقت بالبلاد ، ويلعن الداماد فريد « الذى يفاوض الحلفاء فى باريس بلسان ، وينشر الاباطيل فى العاصمة بلسان آخر » والذى يتجاهل الحركة الوطنية القائمة فى الاناضول فى مفاوضاته مع الحلفاء ، والذى يأمر بتسريح بقية الجيش العامل فى الاناضول حتى لا تقوم للوطن قائمة قط . . وأخيراً يطالب الخليفة بوجوب اسقاط الحكومة الخائنة واصدار قانون الانتخاب الحر . .

وفى الوقت نفسه نراه يوجه منشوراً عاما الى أهل استامبول وفى هذا المنشور تتجلى قدرته البيانية التى لا تبارى : فهو يقول ان لاستامبول فخر السبق والمبادرة الى الثورة . وان الثائرين اتخذوا الأناضول مركزاً لثورتهم لا لشيء الا أنها بعيدة عن هيمنة الحلفاء . ثم يتحدث عن سياسة الداماد فريد الخارجية ـ تلك السياسة المدمرة التى لاتبقى على شيء يسمى الوطن ، والتى تحرف فيما تنشره من مذكرات المعاهدة المشئومة حتى لا يطلع الأتراك على ما تبيته لهم من ذل وأسر . ثم يسهب فى ذم سياستها الداخلية ويتهمها بالخيانة والدس والعمل على اغتيال الوطنيين وتشتيت شملهم . ويختم منشوره بكلمات من نار يقول فيها ان مسيو كليمانصو قال لفريد باشا عند وداعه له : ان على الأمة التركية أن تعلن عن وجودها اذا كانت تتشدق بوجوب الاستقلال « فيا أهل استامبول ! ساهموا فى أداء الواجب الوطنى حتى يكون لنا وجه للاعتراض على أعمال وزارة فريد باشا . . فان العالم سيقول ـ اذا لم نحرك ساكنا ـ : لم لم يستعمل هذا الشعب حق الاعتراض على حكومته فى الوقت المناسب ؟ وان له بعض الحق فى قوله هذا ، فنبينا يقول : كما تكونوا يولى عليكم . . . »

الصحف التركية فى العاصمة تنشر هذا المنشور فيدوى كالقنبلة .. وأهل العاصمة يأنفون البقاء على الضيم واخوانهم يجاهدون فى قلب الاناضول ، فماذا تراهم يفعلون ؟ ان الاجتماعات تعقد . والأدعية تلقى فى المساجد . والشبان يتسللون الى الاناضول

بكثرة هائلة . والشاب النحيل ذو الخصلة النابليونية يكاد لا يخرج من غرفته المختنقة بدخان السجاير . وان أخبار المجاهدين فى سيواس تصله عن طريق جماعة من الفدائيين راحوا يحملون الرسائل بين سيواس والعاصمة . . آه ! ان هؤلاء الرسل أعرفهم ، وان لهم لمفاخر ترفعهم الى مرتبة كبار المجاهدين . .

وبعد بضعة أيام يلقى كمال قنبلته الثانية اذ يوزع على سفراء انجلترا وفرنسا وأمريكا وايطاليا والصرب والسويد والدنمارك واسبانيا منشوراً مختوما بخاتم مؤتمر سيواس ، ينص على أن حكومة الداماد فريد التى تفاوض الحلفاء فى مصير الأمة ، لا تمثل الامة فى شىء ، وانه ريثما يتم تأليف وزارة وطنية لا يكون الوطنيون مسئولين عن أعمال الحكومة الراهنة ، فان اقرار المعاهدة لا يتم الا بتوقيع حكومة وطنية عليها — حكومة تمثل الأمة خير تمثيل . وان الحركة الوطنية القائمة فى الاناضول لن تمس حقوق الدول الاوربية بسوء

***

قنبلتان فى الصميم . .

الخفاش الاسود يشعر بدنو الخاتمة ، بيد أنه لا يسلم ، فها هو ذا فى حضرة مولاه وحيد الدين وبين يديه خطة مدبرة لمؤامرة رهيبة . .

انتصار مؤقت

الخفاش الاسود يقدم لوحيد الدين خطته السوداء : فالوطنيون الثائرون جماعة قليلة لا خطر لها . ووحيد الدين ما زال السلطان والخليفة . وأمره لا شك مطاع . والانجليز يسرهم أن يعمل الخليفة على القضاء على الثورة قبل استفحالها . فاذا قضى عليها قدم الخفاش الاسود معاهدته لشعب لا أمل له الا فى الحياة الوادعة بعد أهوال الحرب وكوارثها . وسرعان ما ينسى الشعب ماضيه — وما أسرع نسيان الشعوب الشرقية !

والخفاش الأسود يضع بين يدى مولاه منشوراً شاهانياً يطلب منه التوقيع عليه لينشره فى طول البلاد وعرضها ، فيوقعه الخليفة

وفى اليوم التالى يذاع المنشور الشاهانى فيقرأه المتعلمون ويستمع اليه الأميون . .

الخليفة يعلن أسفه على هذا الخلاف الذى شجر بين العثمانيين بسبب نكرة من النكرات يريد الخروج على الحكومة ومعاكسة القائمين بأمر المفاوضة مع الحلفاء .. ويقول ان هذا الخلاف يؤخر اجراء الانتخابات مما يزيد المشاكل تعقيداً . . » وانى انتظر من سائر افراد الأمة أن يقدروا دقة الموقف وأن يحترموا القوانين والأحكام ويطيعوا الحكومة القائمة طاعة عمياء فيخيبوا أمل كل من سولت لهم نفوسهم بذر الفتن والقلاقل بين صفوف الأمة . . . »

قنبلة لا شك فيها يقذف بها الخفاش الأسود كلا ومؤتمر سيواس . ولو أنها جاءت قبل عقد المؤتمر وتوزيع نشراته فى سائر الانحاء لختمت على الحركة الوطنية بخاتم التخاذل الابدى . ولكنها لسوء حظ الخفاش الاسود ـ تنشر بعد أن وقف الخاص والعام على كل شيء ، ولذلك فهى تمر دون أن تصيب أحداً بسوء ، شأن كل زيف ينشر بعد أن تتفتح الاذهان الى الحقائق السافرة

أعضاء مؤتمر سيواس يجتمعون ليردوا على منشور الخليفة ، فيقولون إن مطالبهم لا شك شرعية ، وان فريدا لاشك خائن ، وان هذا الداهية لا شك يخفى عن مولاه حقيقة المطالب الوطنية ويصورها له كأنها أعمال قوم ثائرين متهورين . ويختمون رسالتهم بالمطالبة باسقاط الوزارة واعتماد وزارة وطنية يحق لها أن تمثل الأمة أمام مؤتمر الصلح

ولا تكاد هذه الرسالة تذاع حتى تنهال برقيات التأييد على المؤتمر من ولايات طرابزون وارضروم ووان وبتليس وديار بكر وخربوط ودرسم وسيواس وسامسون وملاطية ومرعش وعينتاب وقيصرية وانقرة وقره مان وافيون قره حصار ودكزلى

ثم ان على فؤاد قومندان انقرة يسير بقواته الوطنية الى اسكى شهر حيث يحاصر الانجليز فيعلنون رغبتهم عن القتال وينسحبون الى سامسون طالبين اليه ألا يتعرض لهم بأذى ما داموا لا يعتزمون اعلان الحرب على الوطنيين

وفى تلك الاثناء يقول مسيو لولون مندوب السفارة الفرنسية فى استامبول لأعضاء مؤتمر سيواس ان فرنسا ستقف موقف الحياد التام ازاء حركات الوطنيين

ويصل بعده الجنرال هربرت الامريكى فيؤيد باسم حكومته أعمال المؤتمر ، ويثبت للسفارة الامريكية ضعف الحكومة القائمة وعدم تمثيلها للبلاد تمثيلا صحيحاً

وبعد أيام تبرق سائر السفارات الاجنبية الى حكوماتها منبئة بقرب سقوط الداماد

فريد ، مستندة الى ما تراه من قوة الرأى العام الذى لم يؤثر فيه منشور السلطان

كل هذا يعرفه الوطنيون ويذيعونه فى انحاء البلاد . فتزداد الحماسة اشتعالا ويكاد نور الوطنية يغشى عينى الخفاش الأسود

والخليفة يخشى سوء المغبة فيوسط عبد الكريم باشا للتفاهم مع مصطفى كمال — باعتباره رئيسا لمؤتمر سيواس !

وحيد في أنقرة !

عبد الكريم باشا جالس أمام آلة التلغراف فى استامبول

ومصطفى كمال جالس أمام آلة التلغراف فى سيواس

عبد الكريم باشا يرجو أن يفض النزاع القائم بين السلطنة والوطنيين وأن يتم الصلح بين الفريقين

فيرد عليه كمال قائلا ان الحركة الوطنية لم تكن فى وقت من الاوقات موجهة ضد السلطنة والخلافة ، فهدفها الوحيد أولئك الذين باعوا وطنهم وخانوه من أمثال فريد باشا وسائر وزرائه . ثم انه يأسف اذ يرى الخليفة مغمض العينين ازاء خيانة رئيس وزرائه ، واذ يرى رئيس الوزراء يحاول أن يشوه من جمال الحركة الوطنية بقوله انها حركة بلشفية ، فى الوقت الذى يسمح فيه للانجليز باحتلال الاناضول . . ثم يقول : « فهل كان يبقى فريد باشا فى الحكم دقيقة واحدة اذا كانت لديه ذرة من الحمية والوطنية ؟ »

عبد الكريم باشا رجل طيب القلب . . ولكنه رجل فارغ . والنقاش يتخذ شكلا ائنائياً لا تميزه وجهة نظر خاصة ، فهو لا يزال يلح فى ضرورة فض النزاع والصلح بين الطرفين مع أن النقاش البرقى ظل قائماً ثمانى ساعات متوالية . .

اجابات كمال البرقية تحمل الى السلطان فيرى أن العاصفة تكاد تنقلب اعصارا لا يبقى ولا يذر ، فيستدعى فريداً ويقيله ويعين مكانه على رضا باشا . . .

ولا تكاد الاقالة تبلغ سيواس حتى يصدر كمال نشرة عامة يبشر فيها الأمة بانقضاء عهد الخفاش الاسود . ثم يقدم مطالب الوطنيين الى الصدر الأعظم الجديد ، وهى تنحصر فى الاعتراف الرسمى بقرارات مؤتمرى ارضروم وسيواس ، وعدم التعاون

مع الحكومة حتى يتم انعقاد المجلس الوطنى الكبير الذى سيقرر مصير الأمة وينتخب من يمثلها فى مفاوضة الحلفاء

* * *

قانون الانتخاب يصدر . والانتخابات تجرى فى جو هادىء ، فيفوز الوطنيون بأغلبية ساحقة ، ويكون معظم أعضاء مؤتمر سيواس نواباً فى المجلس الجديد

مؤتمر سيواس لا يزال قائماً . وهو ينتقل الى انقرة ليتخذ لنفسه مقراً يتوسط ولايات الاناضول

ومصطفى كمال نائب ارضروم فى المجلس الجديد يذهب الى انقرة ليجس النبض

ما بال النواب نلبيهم النيابة عن شئون وطنهم الرازح تحت نير الاحتلال ؟

وما بالهم يهمون بوجوب العودة الى استامبول وعقد المجلس الجديد هنالك تحت انف الاسطول البريطانى الجاثم فى مياه الدردنيل ؟

وما بال بعض ذوى القلوب المريضة يقولون بوجوب حل مؤتمر سيواس لأنه لم يعد له كيان حكومى معترف به بعد الانتخابات الجديدة للمجلس الجديد ؟

وهل يقف الوطنيون فى أول الطريق اذ ينالون أول نصر تافه يصادفهم ويعمون عن المستقبل المبهم ـ المستقبل الذى ينذر بالحرب وويلات الحرب ؟

مصطفى كمال يتصور جلسته فى شرفة المجلس القديم فى استانبول حيث رأى وسمع النواب وهم يؤيدون حكومة توفيق باشا على حساب وطنهم ، فيتساءل : هل يعود السياسيون الفارغون الى عهد التردد والهزيمة ؟

انه جندى . وانه يرى الجندى أصلح من السياسى لقيادة السفينة فى خضم الحادثات الهائج

ولكن النواب من رجال السياسة لا يقرونه على رأيه . بل انك لتسمع من بعضهم كلاما غريباً ما كان ينتظر من قوم كانوا الى الامس القريب ينادون بوجوب قيام حكومة ثانية فى الاناضول تعمل مستقلة عن حكومة السلطان . فهل يا ترى تبدلت الحال وزال الاحتلال ؟

كلا ولكنه خور فى العزائم لا نزال نراه الى الآن فى الشرق ـ واءسفاه ! ـ وهم اذ ينادون بوجوب العودة الى استامبول يكتفون من الجهاد بالقليل التافه الذى قاموا به احتجاجاً وكلاما ، لا حرباً وصداماً . .

ورءوف بك ـ الرجل الكبير الذى رأيته فى القاهرة وأكبرت اخلاقه واعجبت بدهائه وذكائه ـ يقود تلك الحركة الخطيرة ويسير فى طليعة النواب الى استامبول .. فاذا حاول كمال أن يحتفظ لنفسه بحق رئاسة البرلمان ، وقام ينادى بوجوب بقائه فى انقرة سخروا منه ـ بل قل أوجسوا خيفة من الوجه الضامر وعينى الذئب المتألقتين . .

اذاً فليذهبوا الى استامبول . وليبق الذئب فى انقرة وحده لينظم فلول الجيش الوطنى وليستعد لكفاح موعده قريب

وسيعلم النواب الذين ذهبوا الى استامبول أى منقلب ينقلبون !

سعيد في الدارين من يقتل مصطفى كمال !

النواب يصلون الى مياه البسفور ويعبرونها الى العاصمة خلال بوارج الاحتلال، ثم يدخلون مجلس المبعوثان دخول الظافرين هاتفين مهللين لأنهم استعادوا مجلسهم وقانون انتخابهم الحر . .

مهزلة طالما تكررت فى الشرق ـ وما زالت تتكرر !

النواب يرفعون الى الخليفة كتابا لسان حاله يقول : المجد لوحيد الدين ، ومنبوذ هو ذلك المارق الجاثم فى انقرة

ثم يشرعون فى العمل . فيتناقشون ، ويطول بهم النقاش

وعندما تصلهم أنباء انسحاب الانجليز من بعض جهات الأناضول ، والفرنسيين من بعض الولايات التركية ، تبلغ بهم حمى النقاش أشدها ويخيل اليهم أنهم حقيقة يعملون ـ فيتناقشون ، ويتناقشون . .

وعندما يتدخل الانجليز فى شئونهم الداخلية : يحتجون ، ثم يحتجون . .

فيضرب الانجليز ضربتهم القاضية فى فجر يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ : فهذه جحافلهم تنزل من الاسطول لاحتلال العاصمة ، فتسير من كوبرى غلطة الى وزارة الحربية ، ثم الى ميدان بايزيد

وهنا يقف التاريخ ليتحدث عن مذبحة بايزيد ووحشية الانجليز فى قره قول بايزيد : فهؤلاء عساكر القره قول نيام . وهذه قوات انجليزية تأمر محمدا النوبتجى

بالتسليم ، فيرفض ، فتصرعه لتوه . . ثم تدخل القره قول فترى العساكر فى ثياب النوم ، فتصرعهم دون رحمة . . فيسجل التاريخ موتهم فى أول قائمة الشهداء فى حرب الاستقلال

النواب المجاهدون يصممون على الاحتجاج فيشتت جنود الاحتلال شملهم ويسوقون بعضهم ـ وعلى رأسهم رءوف بك وفتحى بك ـ الى مالطة

وتبزغ الشمس على بلد أرضه محتلة ، ومياهه محتلة ، وفى وسطه قصر يجلس فيه خليفة وسلطان يقال انه حامى حمى الدين وخليفة المسلمين

ومن عجب ألا يحتج هذا الرجل والاحتجاج أوهى مراتب الجهاد !

* * *

فلول النواب يفرون الى الأناضول . وفلول وزارة الحربية : عصمت وفوزى ولا أدرى من من كبار الضباط وصغارهم ، يلحقون بزملائهم كمال وكاظم ورأفت وعلى فؤاد وعارف

والعاصمة لا تنبس ببنت شفة وكأنها طلل ينعق فوقه البوم

فى هذا اليوم المشئوم يدخل تلاميذ احدى المدارس فصولهم . وفى أحد الفصول النهائية يجلس الأستاذ صامتا مفجوعاً . ويطول صمته . فيقوم أحد التلاميذ فيقول : «ما بال استاذنا لايتكلم ؟» فيرفع الأستاذ رأسه ويقول : « اليوم لا كلام ولا درس . فالدروس تلق لخير الوطن ، ونحن منذ اليوم لا وطن لنا نعمل من أجله ! » ثم تتألق عيناه ببريق رهيب ويقول : «لتقطع الألسنة ولتقصف الاقلام ريثما نستعيد مجد الوطن . . فاذا سألتمونى : أين هو الوطن ؟ قلت : انه هناك فى قلب الأناضول حيث مصطفى كمال ومحمد وفاطمة * . . فهل فيكم من يعمل مع هؤلاء ويستشهد فى سبيل وطنه ؟ ! »

التاريخ يقول : أجل . وان من لم يقدر له الفرار الى الاناضول ليعمل فى العاصمة ، والا فكيف نفسر عثور الانجليز على عشرات من قتلاهم فى الطرقات صبيحة كل يوم ؟

* * *

الانجليز ضربوا ضربتهم القاضية . وبقى أن يقوم وحيد الدين بدوره

---

* محمد وفاطمة اسمان يطلقان على الجندي التركى والمرأة التركية

هوذا يخرج من اعتكافه الى ميدان العمل . واذا برز الخليفة الى الميدان فلا غنى له عن الخفاش الاسود

والخفاش الاسود انجليزى أكثر من جون بول . وهو يرى تشتيت النواب واغلاق مجلس المبعوثان بداءة حسنة لم يبق بعدها الا القبض على كمال واركان حربه ليتم له بذلك الفوز الحاسم

وما أسهل القضاء على كمال وحركته بمنشور يحل فيه الخليفة سفك دمه !

والمنشور مكتوب لا ينقصه الا توقيع الخليفة . وتوقيع الخليفة يتم دون تردد منه

وفى اليوم التالى يذاع المنشور فى دواوين الحكومة وفى الطرقات . ويتلى فى المساجد وتوزعه الطائرات اليونانية ـ برضاء الخليفة ـ فى سائر انحاء الأناضول ، ويخرج الشعب منه بأن الحركة القائمة فى الأناضول حركة سداها الخيانة ـ وأن زعماءها خائنون ، وأن الخليفة يدعو كل مواطن مسلم الى نصرته ونصرة الدين الحنيف ـ فالجهاد الجهاد تحت لواء الخلافة للقضاء على اعداء الوطن الكافرين ، ومباح هودم مصطفى كمال المارق ، وسعيد فى الدنيا والآخرة من يقتل هذا الخائن !

قضى الامر

الخليفة وخفاشه الاسود ينتصران على طول الخط

والحركة الوطنية تتساقط كاوراق الخريف فى يوم عاصف

ومعاقل الوطنيين تسقط فى يد الخلافة تباعاً مبتدئة من السواحل موغلة شطر قلب الاناضول

و « جيش الخليفة » الذى جمعه سليمان شوكت باشا بأمر من مولاه يدخل الاناضول ضافراً وكأن الاناضول قطعة من أرض العدو يفتحها سليل آل عثمان والجالس على عرش محمد الفاتح

ورجال الدين يستنفرون الناس الى الجهاد الدينى ، فاذا برز لهم أنصار كمال قتلوهم ومثلوا بجثثهم أفظع تمثيل

قرية فى اثر قرية . وولاية فى اثر ولاية تعلن ولاءها للخليفة : أزمير . . بروسة قونية . . . . . بازار . . سمسون . . هو ذا جيش الخليفة أوشك أن يبلغ أنقرة . .

ثم ان الفرنسيين يتقدمون من ناحية الحدود السورية ، والانجليز والايطاليون يتحفزون . واليونانيون يزحفون من أزمير الى الداخل . والارمن يقومون لتحقيق حلمهم العتيد : مملكة أرمينيا . والاكراد يرفعون علم الثورة بايعاز من الانجليز . وكل تركى من أنصار الخليفة يتعطش الى سفك دم مصطفى كمال ونيل المكافأة التى قررت لقاتله

فاذا بحثت عن قوات الوطنيين لم تجد إلا جيش كاظم قره بكير فى الولايات الشرقية . أما بقية القوات فهى إما مرتدة الى جيش الخليفة ، واما فلول لا خطر لها ، واما عصابات ضررها اكثر من نفعها

فقد مصطفى كمال كل شيء ، الا الأمل !

هو ذا جالس الى مكتبه العتيق فى بهو مدرسة الزراعة بأنقرة ومعه صديقه عارف ونفر من الحراس المخلصين ، وأمامه خريطة ينظر فيها من حين لحين .. هوذا جندى يرفع يده بالسلام العسكرى ويسلمه رسالة برقية . فيقرأ فيها نبأ كارثة جديدة . فيصدر الامر باتخاذ بعض الاجراءات . ثم يدخل الجندى بكارثة أخرى ، فيصدر اليه أمراً جديداً

وهكذا الى ساعة متأخرة من الليل ، كل يوم !

ترى هل يخونه حراسه وجنوده ؟

ولم لا وفى قتله رضاء الخليفة وبضعة آلاف من الجنيهات ! ؟

فاذا ظل حراسه له مخلصين ، فهل ينجو من خطر الاغتيال طالما ان انقرة محاطة بطائفة من السفاحين المتعطشين الى الدم المباح ؟

فاذا نجا من السفاحين ، فهل ينجو من الثورة التى توشك ان تندلع فيما حول انقرة ثم تسوق الموت على آخر معقل من معاقل الوطنية ؟

وحدة أليمة . . ويأس قاتل . . وصراع مع القدر فوق طاقة البشر !

الذئب يظل فى وحدته حديداً جليداً . ويهتف من حين إلى آخر : « ليكن ما يكون . . . ان تركيا لم تمت بعد ! »

* * *

وبعد بضعة أيام يفتح الباب ويدخل عليه رجلان : عصمت القصير الضئيل . وفوزى الطويل الفحل . فيتعانق الرجال الثلاثة ولا يتكلمون، بل ينفرد كل منهم فى غرفة ويعمل

ثم يفد عليهم نفر آخرون :

خالدة أديب نابغة نساء الترك . زوجها عدنان . نواب نجوا من التنى الى مالطة ووفدوا الى رئيسهم السابق وهم على ما بدر منهم آسفون وعلى الخلافة ثائرون . رجل كبير الرأس ضامر الجسم ذو لحية صغيرة أعرفه وتتلمذت له ، فر من العاصمة ودخل على كمال وصحبه ليلهب الثورة بشعره النارى وليضع للحركة الوطنية نشيداً . هذا الرجل هو شاعر تركيا الاوحد واستاذى العزيز محمد عاكف

وفيا عدا ذلك فاليأس القاتل ما يزال مخيا على انقرة . والسفاحون ما يزالون متعطشين الى الدم المباح !

لك الله يا فاطمة !

عجيب والله أمر هذا الشعب التركى : تحمسه خطبة ثم يثبطه منشور . يثيره كمال ثم يقعده الخليفة ومن ورائه الخفاش الاسود

ولعل السر فى هـذا التقلب أنه شعب ذهبت كوارث الحرب برصانته المعهودة وبروده المألوف وأشرفت به على تلك الخفة وهـذا النزق الذى تتأدى به الهزيمة إلى الفناء

كان الاتراك حتى الأمس كتلة واحدة تؤيد الخليفة وتسعى فى قتل كمال . واليوم تتغير الحال غير الحال وينقلب الرأى العام آفلا إلى الرجل الحديدى الجاثم فى أنقرة . فقد تسامع الناس بأنباء احتلال أرض العاصمة ومصرع العساكر فى قره قول بايزيد ونفى النواب واغلاق مجلس المبعوثان ، وأيقنوا أن الخليفة وخفاشه الاسود يعملان بوحى من الانجليز إذ يبيحان دم كمال ويسعيان فى القضاء على حركته التى لا مصلحة له فيها إلا مصلحة الوطن . وحتى الذين احسنوا الظن بالخليفة لم يعودوا يؤمنون بقدرته على فعل الخير وهو السجين فى قصره فى العاصمة المحتلة ، والرأى العام الذى تاب الى كمال وأناب وترامى على مكتبة العتيق فى دار مدرسة الزراعة بانقرة ، رأى عام مؤمن برسالته ثائر لخيانة الخليفة . ولا نظن أنه سيتراوح بين الشك واليقين بعد ذلك

جيش الخليفة تنقصه الروح المعنوية . وهو كل يوم يشهد فرارعساكره وانضمامهم الى القوات الوطنية . ولا تكاد تمضى الأسابيع حتى يضمحل ويزول كما يزول كل باطل يواجهه حق عتيد

والجنود الذين ارتدوا عن القوات الوطنيــة يعودون إلى الانخراط فى فرقهم وينحنون على قدمى كمال يلثمونهما بدموع الندم

والشباب ، والشيوخ ، والنساء — وفيهن العقائل المحصنات — سيل يتحدر من سائر الانحاء ويجتمع فى انقرة

والقروية الحسناء فاطمة تحمل الى انقرة الأقوات وتخدم الجنود . ثم تــكرس أعصابها لحمل البنادق والسدسات ومئات الألوف من قطع الرصاص والقنابل المهربة من حيث لايعلم أحد . فاذا أشرف عليها الليل وهى فى عرض الطريق نامت حيث هى وحيثما اتفق واستكثرت الغطاء على نفسها فى صبارة الشتاء والمطر ينصب عليها انصباباً فغطت به ما تحمل من أسلحة وذخائر !

وهى لا تحمل السلاح والذخائر وحسب ، وانما تقدم للوطن ابنها ووحيدها قرباناً حلالا

لك الله يا فاطمة يا بنت الشهيد ، وزوجة الشهيد ، وأم الشهيد !

مصطفى كمال يرى كل ذلك فلا يزال حيث كان وكما كان حديداً جليداً . ويطيب له الآن أن يدرب عساكره بالحديد والنار على صراع مقبل رهيب ، الذخائر فيــه شحيحة والراحة محرمة والقوت تافه قليل . وانك لتراه هنا وهناك فى كل مكان كالهيكل الجبار من فولاذ أسلاكه

وهو يدعو سائر نواب الأمة الى أنقرة فيجتمعون فيها ويعقدون مجلسا يسمونه « المجلس الوطنى الـكبير » . وهم إذ ينتخبون كمالا للرئاسة فى هذه المرة انما ينتخبون أصلحهم عن عقيدة وايمان . ولا يخيفهم — بعــد — الوجه الضامر وعينا الذئب المتألقتان

بعد نكبة « سيفر »

وتمضى معاهدة سيفر . والسلطان يتحمس لها . والمعاهدة تنشر وتذاع فيقرأها الاتراك فتجيش الثورة فى قلوبهم من جديد

ألهذا أمرهم السلطان بالصبر والتريث وعدم القيام فى وجه الاحتلال ؟

ألهذا افتى العلماء بكفر مصطفى كمال وأباح الخليفة دمه ؟

إن تركيا لتقسم بين الحلفاء قسمة عادلة .. ولا يترك للوطنيين منها الا قسم ضئيل. ثم إنهم لا يدعون للاتراك شيئاً من الحق فى الاشراف على شئون بلادهم :

فالجيش سيأمر الحلفاء بتسريحه . والمواصلات ستكون تحت اشرافهم المباشر . والضرائب والعوائد والمكوس كذلك . وكل بارقة أمل فى الاستقلال يمحونها محوا ازلياً . .

نكبة فادحة . ومعاهدة جاءت بدون كفاح دموى . . معاهدة رخيصة هزيلة ، جاء بها سياسى كذاب يلوح بمطالبه بيد وبالمدفع بيد أخرى

ذئب انقرة يتحدى السلطان والخفاش الأسود وأولئك الجبابرة الذين يقررون مصائر الدول والشعوب لمصلحتهم بعد أن خرجوا من الحرب العظمى ظافرين

وهو لا يتريث حتى تتوطد أقدام الحلفـاء فى الأناضول ، بل يأمر جيوشه فى الشمال والجنوب والشرق والغرب بمناوشتهم واحتلال كل شبر من الارض ينسحبون منه ، فتخلص له ولايات بأسرها من مخالب الفرنسيين والانجليز

وهو فى تلك الاثناء يلهب نواب المجلس الوطنى الـكبير بخطبه النارية . ثم يعود إلى الشعب فيرى منه أذنا صاغية واستعداداً للـكفاح :

« لقد خرج الحلفاء ــ أو كادوا ــ من الأناضول . ولم يبق إلا اليونان فى ازمير ، والانجليز فى استامبول . وإن حملة واحدة موفقة لتدفع باليونان الى البحر ، وبالانجليز إلى حيث . . . »

وهو يقول إن الاحتلال الانجليزى فى استامبول احتلال ضعيف لا يقوى على المقاومة . ثم ان أحرار الفرنسيين والايطاليين والامريكيين يقولون ــ بوحى من صاحبنا الهزيل ذى الخصلة النابليونية ــ إن الحلفاء فى حالة من الضنك والسأم لانسمح لهم بمعاودة الحرب من جديد ، وإن الشعوب الأوروبية لن تتيح لحكوماتها بعد ذلك أن تزج بها فى نيران حروب جديدة مهما يكن الباعث عليها . .

ثم ان جيش الاحتلال فى استامبول خائف متوجس بعد أن علم بقوة الحركة الوطنية وتصميم بطل الدردنيل على الـكفاح . والانجليز اذ يتصورون كمالا يتصورون معه عشرات الألوف من قتلاهم الثاوين تحت تراب غاليبولى . .

إذاً فالبدار البدار الى استامبول !

* * *

ميت يبعث من جديد !

جيش الخليفة لا تبق منه باقية !

جلاء الحلفاء عن أطراف الأناضول يتم بسرعة عجيبة !

كاظم قره بكير ينظف منطقة أرمينيا ويزيل شبح الأرمن . الى الابد!

صناديق وافرة من الرصاص يغنمها هذا الرجل من الاعداء فيبادر الى ارسالها الى أنقرة

على فؤاد ينظف المنطقة المحيطة بازمير من طلائع اليونان والأرمن

أدهم الشركسي — رئيس العصابات فيما سلف — يقوم بأعمال حربية باهرة مع على فؤاد !

جعفر طيار : هذا الجندي الكبير المخلص لكمال والحامل لواءه في تركية أوربا ، في منطقة أدرنة ، يشرع في الزحف على استامبول

ومصطفى كمال في انقرة كالقلب الجبار يبث في الجنود روح الاستبسال ويدفعهم الى هنا والى هناك

وإن في ارادته الفولاذية وروحه القوية ونظراته النارية لآية لمن يرى ويسمع

فنزيلوس رجل الساعة !

رجل ضئيل أصفر : فيه من الذئب والثعلب الغدر والدهاء . في كريد ولد ، وفي الثورات شب عن الطوق . وفي الدماء ولغ . وله في عالم السياسة الدولية جولات بارعات

فدائي كأروع ما عرف عن شيخ الجبل وطائفة الحشاشين !

مئات الألوف من الجثث يتخطاها . وبحار من الدماء يعبرها ليصل الى غايته في الحياة : مجد اليونان ، ورفع الصليب على مسجد أيا صوفيا

هو الآن رجل الساعة : فقد جلس مع جبابرة العالم ليبت معهم في مصائر الأمم والشعوب ، فرأى ما هم فيه من ارتباك بعد أن ثار الترك واعتزموا اجلاء الحلفاء عن استامبول ، فتطوع لافناء الترك بجيش من بني وطنه

جبابرة العالم يرحبون بما عرض عليهم ثعلب كريد ، فلئن كانت شعوب أوربا في

حالة من الضنك والسأم لا تسمح بقتال الأتراك ، فهذا شعب يتطوع قائده بالقتال دون أن يرغمه أحد على ذلك

ثعلب كريد ينقلب ذئباً ، ويطلب إلى جبابرة العالم امداده بالاسلحة والذخائر ، فيمدونه بما بقي لديهم من مخلفات الحرب ، مدافع وقنابل ورشاشات وبنادق وطلقات وطائرات وخيول وعربات

وذئب كريد يسوق إلى ازمير زهرة الضباط والجنود اليونانيين تمهيداً للزحف على الأناضول

وفي طرفة عين يرى كمال أن الموقف انقلب رأساً على عقب : فبعد فلول الحلفاء الراغبة عن القتال يفد على الأناضول جيش عرمرم متحمس للحرب مستعد لها

وفى ٢٣ يونيه سنة ١٩٢٠ يشرع اليونان في الزحف :

ففى تركية أوربا ينهزم جعفر طيار بجيشه ويقع فى الاسر ، ويستولى اليونان على ما بقى فى يد الاتراك من القرى والبلدان

وفى ازميت يقضى الجيش اليونانى على مقاومة الأتراك قضاء مبرما

ومن ازمير يزحف جيشان يونانيان جاران فيكتسحان عصابات أدهم الشركسى وقوات على فؤاد ، ويسيران فى الأناضول صعداً رافعين ألوية النصر على القرى والمدائن

اليونانى فى السلم نذل وبقال . ولكنه في الحرب جندى جبار . وهو فى زحفه هذا على الأناضول وحش كاسر أيقظ فيه ذئب كريد ثأره القديم فراح يقاتل كأروع ما يقاتل جندى تركى أو فرنسى

ثم انه لم يقاس أهوال الحرب الكبرى . والسلاح والذخيرة فى متناول يده ، والاموال تنهال عليه . والحلفاء من خلفه يدفعونه ويؤيدونه . والوطنيون أمامه عصابات وفلول جيوش جائعة ، فقيرة ، لا سلاح معها ولا ذخائر

***

ما أشنع فرار الوطنيين أمام الزحف اليونانى! وما أسعد الخليفة والخفاش الاسود بهذا الفرار !

اليونان أوشكوا على بلوغ اسكيشهر . وقوادهم يصرون على وجوب الزحف حتى يبلغوا شرقى الاناضول . ولكن ثمة ارادة عليا من الحلفاء تمنعهم من مواصلة

الزحف حتى يوطدوا أقدامهم فى الارض التى فتحوها

وفى انقرة ثورة كلامية توشك أن تؤدى الى فشل ذريع . فنواب المجلس الوطنى الـكبير الذين سمعوا بالأمس من كمال أنهم على وشك الظفر وبلوغ استامبول تهولهم انباء الهزائم والفرار ، ولا يصدقون أن الحالة تغيرت عما كانت عليه . فهل كان كمال يلعب بعقولهم عندما قال إن استرجاع استامبول أصبح قاب قوسين أو أدنى ؟ أم أنه تسبب ـ بحماقته وطيشه وجبن قواده ـ فى فشل الحركة الوطنية ؟ !

مصطفى كمال يكاد يصبح عدو الشعب فى نظر بعض النواب . وعصمت وفوزى لا يصلحان لادارة المعارك . وعلى فؤاد الذى انسحب أمام اليونانيين خائن يجب اعدامه . وأدهم الشركسى ـ السفاح ـ ورئيس العصابات فيما سلف ، هو المنقذ الوحيد والرجل الذى يصلح الآن لادارة المعارك !

بل ان في النواب من ينادون بوجوب حل الجيوش المنظمة وجعلها عصابات يقودها أدهم الشركسى . . .

وأدهم الشركسى يزور أنقرة فتستقبله استقبال الغزاة الفاتحين . وزعيم العصابات السفاح يدخل المجلس الوطنى الـكبير فيقوم له النواب اجلالا ويهتفون له ويصفقون، فاذا دخل كمال المجلس استقبلوه ببرود وفتور ، وتفرسوا فيه بنظرات ، الاغتيال كامن فيها والثأر فى أشعتها يتألق . .

مصطفى كمال لا يزال كما كان وحيثما كان حديداً جليداً

إنه يتقدم إلى منبر الخطابة بخطوات ثابتة ، ويقف أمام النواب صامتاً ريثما تفرغ جعبة هتافاتهم العدائية ، ثم يتكلم خافت الصوت فى أول الأمر ، قويه بعد لحظات . مدمدماً بعد دقائق . . .

إنه يقول للنواب إنهم لا يقدرون الموقف حق قدره . وإن الحركة الوطنية لا ينتظر منها أن تقف فى وجه الزحف اليونانى وهى بعد فى مهدها . وإن الجيش اليونانى جيش جبار مزود بالمال والسلاح والذخيرة . وان الخليفة وخفاشه الأسود هما الملومان فقد سرحا القوات الوطنية ثم وقعا على معاهدة سيفر ، ولم يكفهما ذلك بل أثارا حرباً أهلية بين أهل البلاد فأصبح التركى يقاتل أخاه وكأنه يقاتل عدواً دخيلا . . فكيف ينتظر من بلد هذا شأنه ، وجيش تلك حالته ان يقف أمام اليونانيين ويهزمهم فى أول معركة يواجههم فيها ؟

ثم ينطلق موجها كلامه الى دعاة التسليم بالأمر الواقع ، فيهتف بهم أن اذكروا مجدكم القديم وفخار آبائكم وأجدادكم ، وتذكروا انكم كنتم لليونان سادة حاكمين . فكيف تقبلون الذل والاسر من عبيدكم بالأمس ! ؟ » حاش لله أن تكونوا عبيداً وقد خلقكم الله أحراراً . ثوروا لقوميتكم ، ووحدوا شتات قوتكم ، واعلموا أن لواء النصر معقود لكم آخر الأمر باذن الله ! »

ويغادر الرجل الحديد الجليد المنبر فيسود الصمت العميق بضع دقائق . ثم تنطلق الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق ممجدة عدو الأمس وبطل اليوم !

الويل لأدهم الخائن !

مصطفى كمال رجل الحرب النظامية يخرج من قاعة المجلس الوطني الكبير ظافراً بتأييد النواب مصمما على القضاء على أدهم الشركسي زعيم حرب العصابات . وهو ـ كعادته دائماً ـ لا يعفو عمن أساء اليه والى قضية الوطن . وقد أساء أدهم الشركسي اليه كما أساء الى الحركة الوطنية بغروره وحركات عصاباته الجنونية ، وتسبب في هزيمة القوات الوطنية أمام الجيش اليوناني الزاحف ، وأوشك أن يقضي على النظم العسكرية التركية، وشجع نفراً من الضباط والجنود على خلع اللباس العسكري والتزيي بزي العصابات

وكمال رجل النظم العسكرية والخرائط والارقام يرى في حرب العصابات الهزيمة المحققة . فهو لذلك يعين عصمت قائداً للجبهة الغربية ، ويأمر أدهم وأتباعه بتلقي الأوامر من قائدهم وتنفيذها تنفيذا حرفياً

ولكن أدهم يرفض أن يكون تابعاً لعصمت وتميراً لجيشه . ويجمع من أشتات عصاباته جيشاً يسميه « الجيش الأخضر » . ويحاول أن ينفرد بالولايات الغربية وبقتال اليونانيين . ويجمع من أهل القرى ضرائب فادحة ، ويتحدى كمالا وحكومة أنقرة . بل أكثر من ذلك كله أنه يهدد كمالا بالشنق اذا تعرض له بسوء !

ولقد حاول كمال أن يردعه عن غيه فما ارتدع . واستقدمه إلى انقرة ذات مرة ليقنعه بوجوب حل عصاباته ، فهدده زعيم العصابات بمسدسه . . ودعاه إلى زيارة عصمت في خط النار وفض النزاع القائم بينه وبين غريمه ، فقفز أدهم من القطار في احدى المحطات واعتصم بعصاباته مخافة أن يغتاله مصطفى كمال . .

وهناك فى ولاية كوتاهية يشق أدهم عصا الطاعة على كمال وعلى الحركة الوطنية . ويعود السفاح إلى أصله فيعيث فى الأرض فساداً . ثم ينقلب خائناً فيفاوض حكومة الآستانة ويعرض عليها مساعدته ، ويعمل على قتل الروح المعنوية فى صدور الأتراك ، ويصدر النشرات بوجوب الكف عن القتال والاستسلام للامر الواقع ومفاوضة الحلفاء على أساس التسليم بكل شيء . .

كل ذلك يوحي من حقده على كمال ورغبته فى القضاء على حركته . وهو فى هذا الانحدار من الوطنية المتطرفة فى أول الحركة الوطنية ــ إلى الخيانة السافرة فى منتصفها يسعى في أحد أمرين : اما القيادة العليا ، وإما القضاء المبرم على الحركة الوطنية !

وأخيراً يضرب كمال ضربته القاصمة إذ يوجه رأفت إلى كوتاهية بجيش كبير يهزم عصابات أدهم ويشتت أتباعه ، فيفر أدهم الى حيث استقر جيش اليونان ، ومن ثم يندثر اسمه كزعيم وطني . . الى الأبد

ومصطفى كمال رجل النظم العسكرية والخرائط والارقام يتنفس الصعداء فقد استراح من خصم عنيد أوشك أن يشطر تركيا المجاهدة الى معسكرين متقاتلين

عصمت في « اينونو »

فى منزل السيدة الكبيرة القلب بايان شريفه صالح كورخان جلست فى أحد أيام العام المنصرم أتحدث إلى رءوف بك ، وكان موضوع حديثنا عصمت . فقال رءوف بك:

« انه رجل كبير . كان القواد يتنافسون فى الحصول عليه عندما كان ضابطاً بسيطاً . وقد عرفته في اليمن فعرفت فيه رجل المستقبل . ولما عين أنور وزيرا للحربية اتخذه مديراً لشعبة الحركات ـ وهى وظيفة كبيرة بالغة الخطورة . وان أنس لا أنسى سفرنا إلى « يافيا » مع بعثة أركان الحرب ، إذ قال لى وهيب باشا ـ وكان معنا ـ مشيرا إلى عصمت : هذا رجل ليس له مثيل . . . »

ثم صمت رءوف بك لحظة ليعاود حديثه :

« وأنا لا أظن ان مصطفى كمال خلق عصمت كما يقول الكثيرون ، فعصمت خالق نفسه بنفسه . وكل ما استطيع أن أقوله فى صدد الكلام عن رجلى تركيا العتيدين أن أحدهما يكمل الآخر »

هذا الرجل الكبير الذي يقول رءوف بك انه يكمل مصطفى كمال يفتتح الآن تاريخه الوطني الحافل بنصر مجيد في معركة « اينونو » الأولى ، فقد حسب اليونان أن انضمام أدهم اليهم معناه انقسام الجيش الوطني ، فزحفوا على مدينة افيون قره حصار واحتلوا جانباً من الخط الحديدي الرئيسي في الاناضول ، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بهجوم واسع النطاق من عصمت اجلاهم عن المدينة التي احتلوها وأعادهم الى صفوفهم الأولى عند اسكيشهر

عصمت في هذا الهجوم موفق إلى أقصى حده . واليونانيون — بعد — يستشعرون الخوف من الجيش الوطني الذي زعم ذئب كريد — وكان محقاً في زعمه — أنه الى الفلول الواهية أقرب منه الى الجيش المنظم الكبير

وفي انتصار عصمت الذي يكاد يكون احدى المعجزات اضعاف للروح المعنوية في صفوف اليونان ، وتقوية لروح الكفاح في الجيش الوطني . وتلك الفلول التي حقر نزيلوس من شأنها يعاودها الحماس ويصور لها الانتصار تصاوير باهرة فتجالد الفقر والجوع والعرى وتستعيد ما فقدته من البسالة والنظام تحت لواء عصمت

وأما اليونانيون فيظلون معسكرين حول اسكيشهر . وهم في هذه الشهور الستة يزيدون في قواتهم ويطلبون المزيد من الاسلحة والذخائر من حلفائهم استعداداً لهجوم المنتظر

أيام انقرة ولياليها

مصطفى كمال في أنقرة يعمل . وعلى كثب منه فوزي مكب على خرائطه وشئون الجيش التي لا أول لها ولا آخر . وعصمت في « اينونو » كما عهدناه — وسنعهده دائماً — كتلة من العمل صماء بكماء

ويحلو لي في هذا الصدد أن أعدل في أقوال رءوف بك قليلا : فمصطفى كمال وعصمت وفوزي أقانيم ثلاثة يكمل أحدهم الآخر وتتألف منهم — مجتمعين — تلك الحركة الوطنية الباهرة التي نتحدث عنها في هذا الكتاب

ومن حق فوزي أن نصفه للقراء ما دام يزهد في الاعلان عن نفسه :

هو رجل مديد القامة ممتلئها ، حديدي الارادة ، كامل الأخلاق ، لا يدخن ولا

يعرف الخمر أو الميسر ، متزوج وله ذرية صالحة ، محافظ على الشعائر الاسلامية فى مظهره ومخبره ، يصلى ويصوم ويزكى ويرتل القرآن منـذ نعومة أظفاره ، زاهد فى المال والجاه ، لا يعرف الا مكتبه وخرائطه وجنوده وسجادته . اذا تحدث خلته رجلا عاديا . وهو فى تنظيم الجيش وتدبير الأقوات والأسلحة عسكرى من الطراز الاول عالمى الكفاءة الحربية . ملم بخريطة بلاده إلمام الرجل منا بتصميم منزله ، لا تسأله عن قرية أو جدول أو رابية أو طريق زراعى فى أية جهة من جهات الأناضول حتى يحدد لك مكانه بالضبط وكأنه ولد وعاش فيه طوال أيام حياته . .

مصطفى كمال يعمل فى أنقرة الى جوار هذا الرجل . وهو موقن أن اليونانيين فى اسكيشهر يستعدون لهجوم واسع النطاق ، فهو لذلك يصدر الاوامر الى سائر الولايات بتجنيد المتطوعين ، ويشرف على الحركات العسكرية بنفسه ، ويأمر أهل الاناضول باقراض حكومة أنقرة نصف محصول أراضيهم وما يربحون ، ويعدهم بتسديد هذا القرض عندما تستقر الأحوال بعد طرد العدو من أرض الوطن

وأهل الاناضول لا يترددون فى اقراض الحكومة نصف محصولاتهم . بل ان منهم من يتبرعون بهذا النصف ولا يطالبون الحكومة به . ولقد يعجب المرء لهـذه التضحية من شعب استنزفت الخلافة موارده طوال ستة قرون ، كان ينفق فيها بسخاء على اليمن وبلاد العرب والعراق والشام ويسكب دماءه فى تلك البوادي السحيقة ، دون أن يعترف له أحد بفضله عليه — وانى لأجد السر فى تلك التضحيات الجديدة فى هذا الروح الجديد الذى نفخه مصطفى كمال فيهم ، فهو الآن لا يطلب منهم أموالهم ومحصول أراضيهم للدفاع عن أقطـار أخرى وتعميرها ، بل يأخذ منهم ليعطيهم . ويستخدمون فى الدفاع عن الوطن الذى يشربون ماءه ويعيشون تحت سمائه . وهو فى حركته الوطنيـة الجديدة مصمم على أن يكون الاناضول لأهل الاناضول ، ومنهم واليهم ، وهو دائماً أبداً يعترف بأن أهل الاناضول هم تركيا الحقيقية ، تركيا التى ستتخذ مكانها فى طليعـة الدول الشرقية وعلى قدم المساواة بالدول الغربية . وأهل الاناضول لذلك مغتبطون مزهوون بتلك المسئولية العظمى الملقاة على عواتقهم ، فلا عجب أن يجودوا الآن بآخر قطرة من دمائهم ، وآخر سنبلة فى أراضيهم

وتضحياتهم لا تقف عنـد اقراض الحكومة وحسب . بل انهم يتطوعون فى الجيش الوطنى غلمانا وشيباً . فمن لم يتطوع فى الجيش منهم انضم الى القواطر العاملات

فى نقل المؤن والذخائر الى خط النار . وان السائر فى المنطقة بين أنقرة و « اينونو » اذ ذاك ليرى ألوفا مؤلفة من النساء والرجال فيهم وفيهن حاملة القنابل على ظهرها ، وحامل الغلال على عربته التى تجرها الثيران فى طرق متعرجة ووهاد ونجاد ، دون أجر معلوم أو مجهول

وفى الميدان اليونانى كنت ترى سيارات النقل الكبيرة والقطر والطائرات تستعمل فى نقل المؤن والذخائر والرجال الى خط النار

***

ومصطفى كمال ينتقل الآن من دار مدرسة الزراعة الى دار ناظر محطة انقرة . فتراه هناك فى حجرة ضيقة مظلمة فيها من الاثاث أقله، ومن الخرائط والمحابر والاقلام والاعلام الصغيرة التى تستعمل فى رسم الخطط على الخرائط آ كام

يومه من مطلع الشمس الى مغربها ينقضى فى المجلس الوطنى الكبير ، وحيث الجنود والحديد والنار ، وأمام عامل التلغراف ، وهنا وهناك وفى كل مكان

وليله ينقضى فى غرفته الضيقة حيث يجلس على نور الغاز وأمامه منضدة فوقها خريطة الاناضول وبجواره عشرات من لفائف التبغ يدخنها تباعاً ويلقى بأعقابها فى المنفضة أو فى الغرفة حيثما اتفق . وهو فى جلسته أمام الخريطة دائب على تثبيت الاعلام الصغيرة على مواقع العدو ومواقع جنوده ، يرسم خطته ويناقشها ساعات طويلة ، فاذا وجد فيها نقطة ضعف عدل عنها فى جملتها أو فى بعض تفاصيلها . وكثيراً ما ترى بجواره صديقه عارف ، أو مساعده فوزى ، أو هذا أو ذاك من ضباط أركان الحرب أو من حراسه المعروفين « باللاظ » وعلى رأسهم عثمان أغا

والفجر وحده يجد كمالا متمدداً على فراشه الخشن . . !

وبعد بضعة أسابيع ينتقل كمال من منزل ناظر المحطة الى قمة رابية « تشان كايا » المشرفة على قرية انقرة . هنا يقيم فى منزل متواضع مبنى من الحجر فتصلح حاله قليلا . وتعمل أمه « زبيدة » على توفير أسباب الراحة له فترى لونا مؤثراً من حنان الامهات

« زبيدة » التى رأيناها فى سلانيك وسمعناها تنصح ابنها كمالا بعدم التعرض للخليفة الذى يملك قوة سبعة من الاولياء . . زبيدة التى أشرفت الآن على مرحلة عمرها الاخيرة ، والتى لا تزال تتصور كمالا طفلا فى المهد يبكى ويضحك ويرضع اللبن من ثديها . . زبيدة هذه لاتكاد تصدق أن ابنها أصبح « باشا » من الباشوات وأنقذ تركيا

من نكبة غاليبولى وها هو ذا الآن ينقذها من نكبة سيفر . .

انها تتحدث اليه كما تتحدث الأمهات الى طفل شقى . فيضحك كمال ـ وما أندر ما يضحك !

وهى تشرف على طعامه وفراشه بمساعدة فكرية هانم ولا تنسى أن تقول : «ابنى كان يحب كذا ولا يحب كذا من ألوان الطعام لما كان طفلا يلعب . . »

وهى تقوم من فراشها فى الصباح مبكرة فلا تجد ابنها فى المنزل . فتدخل غرفة نومه فتجد أثاثها منقلباً رأساً على عقب : كثيباً مهيلا فيه « قلبق » وطربوش وحذاء عسكرى خشن وملابس داخلية وخارجية وخرائط وأعلام صغيرة وعشرات من أعقاب السجاير تملأ أرض الغرفة . . فتتنهد

* * *

المجلس الوطنى الكبير دائب على العمل . يعقد جلساته فى الحقير والخطير من الأمور . والنواب يعملون باخلاص وتضحية ولكنهم فى نظر كمال جمهرة من الناس لهم ألسنة تتكلم ، وأفئدة تجيش فيها الوطنية ، وأكف تجيد التصفيق ، ولا أكثر من ذلك . . شأن سائر البرلمانات فى سائر انحاء العالم

نعم ان فيهم السياسى ، والعالم الدينى ، والزارع ، والتاجر ، والصانع ، والشاعر الاديب . وكل ما يصدر من قوانين أو أوامر لابد أن يناقشوه ويوافقوا عليها .
ولكن من الذى يشرع القوانين ويوحى باصدار الأوامر ؟

نحن نقرر ـ للحقيقة والتاريخ ـ انهم كانوا يرهقون أعصابهم فى النقاش والهتاف ولكنا نقرر ـ للحقيقة والتاريخ أيضاً ـ ان كمالا هو الذى كان يقرر وينفذ . بيد أن وجودهم ووجود المجلس الوطنى أمر لا بد منه لتتخذ قرارات كمال ومشروعاته صفة القوانين

ومصطفى كمال إذ يجلس على أحد مقاعد المجلس الخلفية شخصية لا بأس بها فى نظر النواب . بيد أنه ينقلب شخصاً غير مرغوب فيه اذا استكثر مناقشاتهم وسئم تشعب وجهات أنظارهم فارتقى ذروة المنبر وظهر أمامهم بوجهه الشاحب الضامر وعينى الذئب المتألقتين . . فاذا تحدث وعلا صوته ودمدم ، وراح يخلب ألبابهم بسحر بيانه وروعة خطابته ، صفقوا له طويلا وأيدوه على طول الخط . .

وان كمالا ليفاجئهم فى كل يوم بكل جديد مستطرف :

فروسيا البلشفية التي قامت على انقاض القيصرية تختط في مستهل حياتها سياسة جديدة أساسها هدم الرأسمالية وعداء حلفاء الأمس وعلى رأسهم انجلترا . وهي تنسى تلك العداوة التقليدية للاتراك التي توارثها الروس قيصراً عن قيصر ، وتتقرب الى حكومة انقرة بعد اعترافها الرسمي بها وعقد محالفة معها في ٢٤ أغسطس سنة ١٩١٩

وكاظم قره بكير يهزم الأرمن عند (قرص) ويستولى على كميات وافرة من الذخائر والمدافع والبنادق صنعت في معامل انجلترا ومنحت للأرمن بعد عقد الهدنة فيرسلها فوراً الى أنقرة

وفرنسا وايطاليا تشعران بالضيق والحرج من جراء السياسة الانجليزية اليونانية ، فتوحيان الى حكومة انقرة بأنهما — منذ الساعة — على الحياد ، وبأنهما على استعداد لبيع السلاح للجيش الوطني

وانجلترا لا تقل عن زميلتيها ضيقاً وحرجاً . ولكنها لا تزال تؤمل في نجاح الغزوة اليونانية ، فهي لذلك جاثمة بأسطولها وجيشها في مياه استامبول وثكناتها ، عاملة على امداد اليونانيين بالأسلحة والمؤن والمال

وفي الشرق الاسلامي موجة من الحماسة تمحو آثار العهود البائدة ، وتيار من العطف يتحدر على انقرة من سائر الانحاء ، وأموال تجمع ، وأدعية تلقى في المساجد وقصائد يهتف بها الشعراء ممجدين كمالا وحركة الوطنية ، قائلين :

« من العار أن يفدى الغزاة نفوسهم   ونحن بدينار نضن ودرهم . . . »

وان فيهم من يبلغ به التأثر شأوه فيهتف :

عظم المصاب وضج كل موحد   وملا الأسى في القبر قلب محمد
وتزلزل الحرمان حتى أوشكا   يتداعيان الى الحضيض الأوهد . .

كل هذا يقصه كمال على النواب من فوق المنبر ويضفي عليه الواناً من آيات بلاغته فيتحمسون ويهتفون ! وبذلك يحتفظ بمكانته في قلوبهم في تلك الأشهر الطويلة المملة التي تسبق زحف اليونانيين وتنذر بهبوب العاصفة النكباء

ثم ينطلق داهية الحرب والسياسة في تحميس النواب والجنود فيقترح تأليف نشيد للحركة الوطنية . ويعين للفائز جائزة كبيرة . فيتبارى الشعراء والمتشاعرون في تأليف النشيد . ولكن أنى لهم ذلك وشاعر تركيا الأكبر محمد عاكف مقيم في

أنقرة ؟ وهل يؤلف النشيد وعاكف في المدينة ؟

أطال الله بقاءك يا استاذى العزيز . . انه يضع نشيدا : الاعجاز في كل بيت منه ، والنار فيه تتوهج . . فيفوز بالجائزة ، ولكنه يتنازل عنها للحركة الوطنية وهو أحد أقطابها قائلا : ان قبول الوطن لنشيده يكفيه فخاراً وتخليدا

ويلقى النشيد في المجلس الوطني الكبير في يوم اشتدت فيه الحماسة ، فيقاطعه النواب بعد كل شطرة منه بعاصفة من التصفيق تستمر بضع دقائق ، حتى اذا ما وصل الشاعر الى قوله :

« لتبزغن أيام مجدك التي وعدك بها حقك العتيد . . .

« ومن يدرى . . فلعلها تبزغ غداً ، أو لعلها أقرب اليك من الغد القريب ! »

نرى كمالا يخرج عن طوره فيرتفع للنشيد وواضع النشيد ، وينادى بأن أيام المجد أقرب اليه من حبل الوريد ، ويقفز الى فوق المقاعد هاتفاً مصفقاً ، حتى تسجل عقارب الساعة مرور عشر دقائق !

المناحة الكبرى

عصمت في خط النار يستعد لملاقاة الهجوم اليوناني . وهو الآن سعيد بجيشه المنظم بعد أن رحل أدهم الشركسي وتشتت فلول عصاباته ، معتزم الدفاع عن اسكيشهر وافيون قره حصار وما حولها بما بين يديه من جيش صغير واسلحة لا تكاد تقارن باسلحة الاعداء

وفي كل يوم يسمع عصمت ازيز الطائرات اليونانية فوقه ، فيصر على أسنانه غيظاً لأن قوة دفاعه لا تملك طائرة واحدة . .

وكأن القدر يأبى الا أن يكون ساخراً فيبعث الى الجيش بطائرة واحدة من طائرات الانجليز يقودها شاب تركي جسور . .

ولهذه الطائرة قصة : فهذا الشاب الاستامبولي يخجل لأنه لم يتمكن من الالتحاق باخوانه المجاهدين ، فيبعث بزوجته الحسناء الى حيث ضباط سلاح الطيران الانجليزي فيلعب جمالها دوره الساحر الخطير ويأسر لب أحد الضباط ، ويحاول العاشق أن ينال من معشوقته ما يتمنى فتقول في دلال واغراء : « قبل أن انيلك أمنيتك خذني معك

فى الطائرة مرة واحدة . . » فيوافق الطيار على ذلك ويدعوها للركوب معه . فتقول له : « ألا تركب زوجي معنا ؟ ! إنه أبله لا خطر له . . . » فيركبه الطيار معه أيضاً . .

وفى عالم الفضاء نشهد مأساة رهيبة : فالشاب التركى يصرع الطيار الانجليزى ويلقى بجثته الى الأرض ، ثم يقود الطائرة بمهارة فائقة الى انقرة . . الى مصطفى كمال . . . فتكون الطائرة الوحيدة التى يملكها الجيش الوطنى !

عصمت لا يقدر على مبادرة اليونانيين بالهجوم فكل جندى يفقده ، وكل طلقة يضيعها تضعف الجيش الوطنى

أما اليونانيون فقادرون على الهجوم . وها هى ذى مدافعهم تملأ الفضاء قصفاً وتدك استحكامات الاتراك دكا . . هاهى ذى طلائعهم تخرج من الخنادق معتصمة بقنابل المدافع ، حاملة على جيش عصمت حملات رهيبة توشك أن تحمله على التقهقر . . . والويل له اذا تقهقر !

وهناك فى انقرة رعب شديد ونقاش طويل . . ونواب المجلس متشبثون بضرورة صد اليونانيين مهما تكن النتيجة . ومصطفى كمال يشعر بخطورة الزحف اليونانى فيعمل ليل نهار ، ويتصل بعصمت فى كل ساعة ليقف على سير المعارك ، فيعلم منه أن الزحف اليونانى لا يمكن الوقوف فى سبيله ، وأن العدو احتل كوتاهية وافيون قره حصار وأوشك أن يدخل اسكشهر . . . فيأمره بالدفاع عن اسكيشهر . ولكن عصمت يوقفه على استحالة ذلك ، ويتوسل اليه أن يأتى بنفسه ليدير المعارك أو يأمر بالانسحاب الى موقع آخر منيع . فيغادر مصطفى كمال انقرة ويذهب الى خط النار

وسرعان ما تذاع انباء الزحف اليونانى وتقهقر الجيش الوطنى فتقوم فى الأناضول كله مناحة كبرى . .

لن يبقى اليونانيون على شىء اسمه تركيا في هذه المرة !

ولينتقمن الأرمن من الاتراك أشد انتقام !

ولتحرقن القرى والمدائن . ولتباحن الاعراض . وليقتلن الشيوخ والنساء والاطفال بعد الرجال . ولتهدمن المساجد . وليصمتن الى الابد صوت المؤذن : « الله أكبر الله أكبر ! » ولتنقلبن تركيا ارضا غير الأرض ، وقوما بعد قوم ، ودينا بعد دين . .

أهل القرى يستعدون للفرار فيحزمون أمتعتهم ويودعون مساكنهم ويستودعون الله مساجدهم وقبور أوليائهم وشهدائهم . .

وأهل أنقرة يفرون الى الداخل فتكاد تخلو القرية الا من أعضاء المجلس الوطنى والجنود وبعض الرجال الشجعان

واليأس ، والخراب ، والموت ، كل أولئك أشباح تتراءى للنـاس في نومهم ويقظتهم

وهناك فى استامبول لا يزال خليفة المسلمين وظل الله فى الأرض صديقاً للعدو ، عدواً للمجاهدين

***

مصطفى كمال يذهب الى خط النار فيستقبله عصمت بحرارة ويتخلى له عن القيادة مكتفياً بتنفيذ الأوامر

وفي بضع ساعات يقضيها مصطفى كمال متنقلا فى خط النار يؤمن إيمانا لا تردد بعده بأن الانسحاب الى الداخل أمر لابد منه ، والا فالهزيمة المحققة .

ومصطفى كمال إذا آمن بشيء لم يتردد . فهو لذلك يأمر عصمت بالتقهقر إلى ضفاف نهر سقاريا

معركة سقاريا

أرأيت الذئب الذى دوخ مراعى آسيا منذ فجر التاريخ ، وانطلق يقفز من تلك القمة الشامخة إلى هذا النجد الشاهق ثم ينحدر إلى الوديان ومنها يعاود ارتقاء النجاد ليهبط الى الوهاد من جديد ؟

أرأيت ضمور وجهه وتألق عينيه فى ساعة الخطر ؟

إن هذا الذئب بعينه يقطع المسافة بين اسكيشهر وانقرة قفزاً ، حتى إذا ما بلغ نقرة هرع إلى حيث تجتمع الذئاب فى المجلس الوطنى الكبير ، فتستقبله بعواء : الموت فى جلجلته واليأس القاتل فى نبراته . فيعوى أمامها بدوره ويقول لها كما قال ذئب آسيا لاتراك آسيا من قبل : « النجاة من هنا . . على كثب من انقرة . . على ضفاف سقاريا . . »

فتعاود الذئاب العواء ، وتكشر عن أنيابها ، ويتألق الموت فى عينيها ، وتهم باقتراس زعيمها فى ساعة الخطر ولكن بعد ذلك ما يكون . .

ولكن الذئب الزعيم يتحدى الانياب والنظرات القاتلة بأنياب ونظرات أشد منها فتكا وأروع تألقاً ، ويقول وهو يلهث : « ما بالكم تجنون ، وفي ساعة اليأس تتمردون ؟ أقول لكم النجاة من هنا . . على كثب من انقرة . . على ضفاف سقاريا . . امنحوني قيادة الجيش العليا أمهد لكم سبل النجاة . . »

فعاود الذئاب العواء من جديد . وقاعة المجلس الوطني تكاد تحترق من تألق النظرات النارية . والموت ترقص اشباحه في عالم من اليأس مميت

وهناك في أقصى القاعة يقعى الذئب الزعيم على ذنبه ويتحفز للهجوم . .

يا له من منظر !

إن عواءه يصم الآذان . إن وجهه الضامر يبدو كقطعة من الفولاذ حمراء ملتهبة . إن عينيه تصرعان سائر الذئاب بتألقها الوحشي المخيف . . إنه لا تكاد تمر لحظات حتى يخرج الذئب الزعيم من المجلس قائداً أعلى للجيش لا يرد له أمر

***

والذئب الزعيم يقطع المسافة من انقرة إلى سقاريا قفزاً . وهو إذ يدنو من خط النار يسمع دوي قنابل العدو فتتألق عيناه بشدة . . ويلهث !

فاذا اشرف على مواقع العدو ، نراه على ظهر جواده وفي يده منظار الميدان المكبر . نراه يطبع تضاريس الميدان على صفحة ذهنه . نراه يقيس كل شبر في هذا الميدان ويقدر لذاك السهل يوماً ، ولتلك الرابية ليلة ، ولهذه التلال وما وراءها ليالي وأياما

ثم نراه فوق السهل . وعلى الرابية . وفوق قمم التلال . وفي كل مكان . كما رأيناه في غاليبولي من قبل يتحدى الموت وهو موقن أن الموت ليس من نصيبه

آلاف من الطلقات تصوب اليه فلا يموت

مئات من القذائف تتهاوى حوله فتعصف الأعمار : أعمار القواد ، والضباط ، والجنود ، وهو رغم ذلك كله لا يموت

وثمة طلقة واحدة تصيب جواده فيهوى الى الأرض صريعاً . فيقوم الذئب من فوقه وقد تكسرت ثلاث عظام من ضلوعه . .

ولكن هل مات ؟

كلا . . إنه يقعى على ذنبه ويهتف في جنوده وهو يلهث : « إليَّ بجواد آخر . .

هنا فوق هذه الراية سقطت عن ظهر الجواد ، وهنا فوق هـذه الراية سينهزم العدو ! »

ثم نراه فوق ظهر جواده ثانياً واربعين ساعة متتالية لا يذوق خلالها طعم النوم، مع أن ضلوعه المكسرة تذيقه من الآلام ما هو فوق طاقة البشر

إنه يتحدى القدر . . إنه يعلم أن سقاريا هي الأمل الأخير : فاما نصر فحياة ، واما هزيمة ففناء . فهل يعبأ بعد اليوم بسقطة من فوق جواد ، أو تكسير في بعض الضلوع ؟

* * *

سقاريا تسجل تاريخها بدماء عشرات الألوف من الضحايا

فعلى كثب من النهر يحمل اليونانيون على الأتراك حملات صادقة ويفنون منهم في كل حملة كتلا هي زهرة الشباب التركي وآخر امل للذئب الزعيم

واليونانيون إذ يقاتلون الترك انما يصبون عليهم حمما من الثأر القديم الهاجع ، الثأر الذي أيقظه فنزيلوس ذئب كريد

والأرمن الذي يقاتلون في صفوفهم ينتقمون اليوم من الاتراك أعداء الامس واليوم ، ويؤملون في قيام دولتهم على انقاض دولة آل عثمان

وعلى مسيرة أميال من النهر حيث تتعرج التلال وتنحدر الطريق الى انقرة ، نجد جنود الذئب الزعيم جاثمين في حيثما تتهم الارض أو تنجد . نجدهم في حالة من اليأس لا شبيه لها فيا قرأنا من صفحات التاريخ . ولكن ثمة رجلا واحداً يبث في نفوسهم الأمل وفي قلوبهم الاستبسال والجبروت : هذا الرجل هو الذئب الزعيم . .

فاذا انحدرت مع الطريق المؤدية إلى انقرة رأيت معالم الهزيمة في كل مكان :

فهذه اسر تفر الى قلب الاناضول على ظهور الخيل أو عربات تجرها الثيران

وهؤلاء تجار أو زراع يصفون أملاكهم بسرعة ويحزمون حقائبهم استعدادا للفرار

وأولئك ذئاب المجلس الوطني بعثوا بزوجاتهم وأفلاذ أكبادهم الى حيث الأمان ووقفوا على باب المجلس يسمعون دوى القنابل وازيز الطائرات ويصرون على انيابهم صارخين : « الويل للذئب الزعيم اذا عاد الينا مدحورا ! ! »

* * *

وهناك فى قرية « آلا كوز » نجد منزلا صغيرا منفرداً يقف ببابه نفر من الحراس الشاكي السلاح ، ونسمع فى الطريق المؤدية اليه وقع حوافر الخيل على الصخور ، وصليل بعض السيوف ، ونرى من حين لآخر ضباطاً وجنوداً يدخلون ويخرجون بوجوه فى صفرة الموت ونظرات دامية وأعصاب تكاد تتحطم

فاذا ولجنا باب المنزل رأينا حارساً مخيفا يقف بباب حجرة القيادة . فاذا ولجنا بابها وقفنا أمام هذا المنظر :

غرفة حقيرة ، أثاث تافه محطم ، سقف يكاد يتداعى ، مائدة كبيرة ، مصباح غاز ، خريطة لتركيا ، أعلام صغيرة مثبتة فوق الخريطة هنـا وهناك ، والذئب الزعيم نراه أمام المائدة رهيبا مخيفا . .

كل شيء هادىء فى غرفة الذئب . ولـكن العاصفة توشك أن تعصف . .

هوذا جندي يدخل عليه برسالة طويلة . فيتناولها الذئب دون أن ينظر فى وجهه ، ويقرأها ، فيلبث . .

العدو اكتسح الترك حيث الجناح الايسر !

الذئب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابا . ثم يعود الى المائدة ويتطلع الى الخريطة. ثم يقتلع بعض الاعلام الصغيرة من أماكنها ويثبتها فى أماكن أخر . ثم يصدر أمره بالهجوم من حيث ثبتت الاعلام . فيهجم الأتراك فيكتسحون العدو ايما اكتساح !

وبعد بضع ساعات :

رسالة أخرى يقرأها الذئب ، فليبث . .

ثم يثبت الأعلام فى أماكن جديدة . ويصدر أمره بالهجوم . فيهجم الاتراك ولـكنهم لا يكتسحون العدو فى هـذه المرة . فيقوم الذئب من فوق المائدة ويقفز بجواده إلى حيث المعركة الدائرة . ولا يكاد يشرف عليها ويراه الجنود حتى يستميتوا فى الدفاع ويردوا اليونان على أعقابهم منهزمين !

***

وفى منتصف الليل :

كل شيء هادىء فى غرفة الذئب الزعيم

الذئب الزعيم غارق فى تأملاته الحربية . والأعلام الصغيرة تكاد تغطى نهر سقاريا والتلال الملتفة حوله

عارف يدخل عليه . ثم عصمت . ثم فوزى

وكل واحد من هؤلاء الذئاب يصف هول المعارك ويخشى الهزيمة فى الغداة . .

ولكن الذئب الزعيم لا يتوقع الا النصر . . ويقول بصوته الذى يتحدر من فمه كالرصاص : « انظروا . . ألا ترون تلك الراية المشرفة على العدو هناك ؟ فوق هذه الراية سوف ننتصر على اليونانيين . . . »

يقولها هكذا على البديهة دون أن يتدبرها . .

ومن عجب أن يحقق الغد نبوءته المعجزة !

* * *

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل :

كل شىء هادىء فى غرفة الذئب الزعيم

الذئب الزعيم متمدد على فراشه الخشن بحذائه الضخم ولباسه العسكرى ومعطفه الرمادى الطويل . .

وعلى كثب منه المائدة الكبيرة ، وعليها مصباح الغاز ، والخريطة ، والاعلام الصغيرة ، ومئات من اعقاب السجاير

إنه ينام . وعشرات الألوف من جنوده ينامون فى خط النار استعداداً للغد . .

وفى الساعة الخامسة صباحاً :

الذئب الزعيم يقوم من نومه ليعاود الكفاح

والشمس تشرق عليه وهو يمتطى جواده فى طريقه الى خنادق الجيش

لم يعد مكانه فى غرفة القيادة فى « آلاكوز » بل وجب عليه أن يعيش مع جنوده فى خنادقهم رغم الحاح القواد عليه بوجوب الابتعاد عن مراكز الخطر

لقد بدأت المعارك فى صباح يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ وهاهى شمس ٦ سبتمبر تشرق دون أن يظفر بأعدائه . فهل تظل المعارك هكذا أبد الآبدين ؟

لقد دحر اليونانيون غير مرة . ولكن ظهر أن قواتهم لا ينضب لها معين . فهم فى كل يوم يعاودون الهجوم بقوات جديدة . وذخائرهم ــ لوفرتها ــ تطمعهم فى النصر آخر الأمر . فهل ينتصرون ؟

الذئب الزعيم يقفز بجواده فوق التلال والمرتفعات وفى يده منظار الميدان ، ويقيس الابعاد ويدبر الخطط الحربية بسرعة ، ويزور تلك الفرقة زيارة مفاجئة ، ثم ينطلق

الى الفرقة التالية فيتفقدها ، ثم الى خط النـار حيث يتحدى القنـابل والرصاص ، ثم يعود الى الفرق مرة أخرى ، ثم ينزل عن ظهر جواده ويتحدث الى ضباطه اركان الحرب ، ثم يقف هو وعصمت وفوزى ويناقشهم فى خططهم الحربية ، ثم يعالج بنفسه اطلاق احد المدافع ، ثم يقفز الى التلال حيث يهجم اليونانيون على الاتراك ويكادون يجلونهم عن أماكنهم ، فيجد جنوده على وشـك الفرار ، فيحمسهم ويخطب فيهم ويهددهم بالقتل ، ثم يعود فيتوسل اليهم ألا يفروا ، فتنقلب الهزيمة آخر الامر نصراً ...

وفى الليل تراه فى كل مكان

وقبـل الفجر بساعات تراه بحذائه الضخم ولباسه العسكرى ومعطفه الرمادى الطويل متمدداً على أرض الخندق ، أو تحت عجلة مدفع من مدافع الميدان . هكذا حيثما اتفق !

وفى الصباح المبكر تراه حيث يجب أن يكون . تراه فى مناطق الخطر . فتعجب كيف توحى اليه غريزة الحرب أن يكون هناك فى الساعة التى يجب أن يكون فيها هناك

وينقضى النهار بطوله والذئب الزعيم يقفز بجواده فوق المرتفعات ويزور الجنود فى الخنادق ويحادث الضباط ويناقش القواد ويساهم فى اطلاق المدافع ، ويرى حوله آلافا من الجثث فلا يعيرها التفاتا . ويسمع آلاف الآهات فلا تختلج احدى عضلات وجهه ولا يبدو عليه شىء من التأثر ..

انه يحارب . والحرب ضريبة الحياة على الانسانية . وهذه الجثث يدفعها الذئب الزعيم لعزرائيل عن طيبة خاطر . أما الأنين والتأوه فضعف فى القلوب وخور فى العزائم لا يود الذئب أن يراه ، ويصم أذنيه دونه ..

***

وفى صباح ذات يوم تشرق الشمس على خط النار فيبدو كما هو ، ولا يرى فيه القواد أو الجنود شيئاً جديدا

ولـكن الذئب الزعيم يتطلع اليه بمنظاره المكبر فيرى هذا الشىء الجديد الذى لا يتاح الا لمن كان ذئباً أو زعيما ..

انه يرى ان اليونانيين على وشك الهزيمة والتقهقر !

ومن العبث أن تناقشه فى رأيه هذا فهو لا يقبل النقاش ولـكن يأمر بالهجوم ، والهجوم بشدة ..

فيهجم الأتراك ، ويستميت اليونانيون فى الدفاع عن خطوطهم . بيد أن جحافلهم لا تقوى على القتال ، فهى لذلك تغادر الميدان فى ١٣ سبتمبر وتعبر نهر سقاريا ممعنة فى الفرار !

فيبتسم الذئب الزعيم وهو واقف فوق تلال من الجثث والأشلاء

فقد انتصر !

«لم ننتصر بعد ..»

انهزم اليونانيون فى « سقاريا » وارتدوا الى مواقعهم الأولى حول اسكيشهر وعاد مصطفى كمال الى أنقرة

انقرة تستقبل بطلها استقبال الغزاة الفاتحين . والأتراك الذين كانوا يسمعون أمس قصف المدافع فيراودون أنفسهم بين البقاء والفرار ، يحملون رجل الساعة على الأعناق ويهللون ويهتفون فى فرح جنونى

والمجلس الوطنى الكبير يجتمع ويقرر منح مصطفى كمال لقب « الغازى » ورتبة « الماريشالية »

وبعد أسابيع :

أعضاء المجلس الوطنى الكبير يقولون : لقد انتصرنا . فلنعقد مع الأعداء هدنة ومع الحلفاء معاهدة نستعيد بها استقلالنا المفقود

ومصطفى كمال يقول : لم ننتصر بعد ، وإنما أوقفنا تقدم العدو باحدى معجزات . أما الهدنة والمعاهدة فلن أسمح بهما حتى نقذف بالعدو الى مياه البحر الابيض !

وتنقضى أسابيع فى صراع بين أنصار الوقوف فى منتصف الطريق والأمل فى المعاهدات الرخيصة ، وبين الرجل المصمم على السير الى آخر الرحلة واملاء شروط الصلح على العدو المغلوب

وأخيراً ينتصر مصطفى كمال . ليبدأ صراعاً آخر

فالنواب يقولون : لم لا نهاجم العدو مادمت مصمما على اجلائه عن الأناضول ؟ فلا يجيبهم مصطفى كمال بل يستعد للقتال باذلاً جهود الجبابرة فى ترميم أنقاض الحرب وتجييش الجيوش وشراء الأسلحة والذخائر . ويعقد مع الروسيا معاهدة « قرص »

ومع فرنسا « ميثاق أنقرة » الذى استعاد بمقتضاه ثمانين الف جندى أسير ضمهم الى الجيش الوطنى ، ويشترى من ايطاليا وفرنسا عشرات الألوف من البنادق ، ويحمل الشبان على التطوع فى الجيش ، ويحمس الأتراك الراغبين عن القتال بخطبه النارية ، ويقاوم رغبات السياسيين فى الصلح ، ويضرب على مؤامراتهم بيد من حديد . ويسمع إذ ذاك أن أنور رجل الخيال والخطط الجنونية أصبح أميراً فى بخارى ، وأن جمالا أصبح مستشاراً فى حكومة افغانستان ، وتصله منهما برقيتان يقول أنور فى احداهما انه مستعد للانضمام الى القوات الوطنية بجنوده من التركستانيين ، ويقول جمال فى الأخرى انه يمهد لتحالف عسكرى بين تركيا وأفغانستان ، فيمزق البرقيتين فى غضب واحتقار ، ويهتف بصوت كعواء الذئب : « لن أسمح لأنور وجمال بالعودة الى تركيا ، ولن أسمح لتركيا أن تستقل الا بجهاد أبنائها ! »

* * *

وفى الثلث الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ يزور مصطفى كمال خط النار زيارة قصيرة يسر فيها الى عصمت وفوزى بأن يستعدا للهجوم فى يوم ٢٦

ولكى يحيط حركاته بالكتمان ويبعدها عن الشبهات يأمر باقامة مباراة فى كرة القدم بين جنوده . . وفى ساحة اللعب يجتمع بالقواد ويفضى اليهم بتفاصيل الهجوم ثم يعود الى أنقرة فلا يشعر أحد بأن ثمة شيئاً جديداً . . بل إن داهية الحرب ليدعو سائر النواب الى حفلة ساهرة فى ليلة ٢٦ أغسطس ، فى ليلة الهجوم العتيد . .

وفى تلك الليلة بالذات يعود الذئب سراً الى خط النار . .

الى الامام !

فى الساعة الرابعة من فجر ٢٦ أغسطس يصدر الأمر التالى :

« أيها الجنود . . الى الأمام . . الى البحر الابيض ! ! »

فيهجم الجنود على « دوملوبنار » ويأخذون العدو على غرة ، ولا تغرب الشمس فى هذا اليوم المجيد حتى يشطروا الجيش اليونانى الى شطرين . . .

والقائد الأعلى لجيش العدو يسقط أسيرا هو وجميع أركان حربه . .

قضى الأمر . وانهزم اليونانيون أشنع انهزام !

هاهي ذى فلولهم ترتد على أعقابها فى فرار مخجل مشين . الغزال لا يلحق بهم اذ يفرون . الدمار والموت والنار فى كل قرية عنها يرتدون . شيوخ وفتيان ونساء تبقر بطونهم أو يذبحون

وفرسان الترك فى أثر العدو المنهزم يرون كل ذلك فيصابون بجنون الحرب فلا يرحمون . يقتلون ولا يأسرون . وفى الدماء يخوضون . وعلى الاشلاء يسيرون . . .

ونساء الترك ينقلبن ذئابا يذدن عن أعراضهن ويحملن السلاح مع الرجال ويتقدمن الصفوف فاتكات مقاتلات . .

وفى احدى القرى يحملن رءوس الزجاجات المحطمة ويقتلن بها مئات من اليونانيين

والطيور الجوارح تحلق فوق الجثث ثم تنحدر اليها لتشارك الذئاب والكلاب فى وليمة الموت . .

والهواء تسممه روائح الجثث المنتنة فى منطقة بين « دملو بنار » والبحر الابيض ذرعها مائتان من الاميال . .

ذئب انقرة على ظهر جواده يسير فى أثر العدو فوق الانقاض والقرى المحترقة وعشرات الألوف من الاجداث دون أن تطفر دمعة من عينه أو يبدو على وجهه الضامر ظل من التأثر !

إنه يسير ويسير . . ولا يسمع أنين هذا الجريح . ولا حشرجة هذا الطفل ولا نواح تلك الأم الثاكلة ، ولا لعنة هذا الشيخ التى يصبها على العدو ، ولا عواء الذئاب، ولا نباح الكلاب . .

إنه يسير ويسير . . ومن حوله أرواح تزهق ، وقرى تحترق ، ومساجد تنهار ، ومزارع لا تبقى فوقها نابتة ، ونسور تشيل من فوق الرمم وتحلق فى الفضاء . .

إنه يسير ويسير . . عشرة أيام كاملة حتى تبدو ازمير من بعيد . .

انه يسير . . حتى يدخل المدينة فى عاصفة من التهليل والهتاف ، ويسير فى طرقاتها فى موكب عسكرى فرسانه قد جردوا سيوفهم فتتصاعد الهتافات من صميم الافئدة ، وينهال الاتراك على قدميه ويديه وجواده تقبيلا وبكاء . .

انه يسير حتى يرى مياه البحر الابيض . . فيبتسم !

وكما تلمع البرقة الخاطفة ثم تستتر فى بهيم الليل ، تختفى هذه الابتسامة ويعود الذئب كما كان وحشيا كان حديداً جليدا

الخدعة البارعة ! !

مصطفى كمال لا يزال غير راغب فى الصلح مع أنه قـذف باليونانيين الى ميـاه البحر الابيض

انه مصمم على اجلاء آخر جندى أجنبى عن تركيا ليتمكن بعد ذلك من املاء شروط الصلح على الحلفاء ـ لا مفاوضتهم عليها

ومع ان اليونانيين خرجوا من الاناضول ، فانجيوشهم لا تزال فى تركية أوربا ، فى تراقيا

ومصطفى كمال مصر على عبور الدردنيل وافناء الجيش اليونانى عن آخره . .

ولـكن ثمة مشكلة دولية تقوم فى طريقه ، فالانجليز معسكرون فى منطقة جناق قلعة ، وقد رفضوا السماح للجيش التركى بالمرور الى تراقيا . وهاهم أولاء يقفون أمام طلائع الاتراك ويهددون باطلاق النار . .

المجلس الوطنى الـكبير فى انقرة فى أزمة عصبية . . والنواب فريقان : فريق يصر على وجوب عقد الهدنة والشروع فى مفاوضة الحلفاء ، وفريق يرى وجوب الهجوم على الانجليز والاشتباك معهم فى حرب طاحنة ، وليـكن ما يكون !

ويقوم بين الفريقين صراع دبلوماسى خطير . فيقف مصطفى كمال فى المجلس بين التيارين المتعارضين ، ويقول انه لا يقبل رأيهذا الفريقولا رأى ذاك ، فالصلح قبل اجلاء آخر جندى أجنبى عن أرض تركيا نكبة فادحة . والاشتباك مع الانجليز فى الحرب نكبة أفدح . . فلينتظروا قليلا ريثما تهدأ العاصفة . .

ثم يعود الى منزله فيستعرض الموقف من أوله الى آخره ويرسم خططاً عديدة يناقشها واحدة بعد الأخرى حتى يستقر على خطة بارعة فيصدر الأمر الى القوات التركية بالتقدم الى خنادق الانجليز خافضى بنادقهم معلنين رغبتهم عن القتال . !

ويتقدم الجنود الأتراك شطر الخنادق الانجليزية بخطى وئيدة وبنادقهم مخفضة الى أسفل ، فيرتبك الانجليز أمام هذا الزحف السلمى العجيب ويستشيرون ضباطهم فيما يجب عليهم عمله ، فيستشير الضباط قوادهم ، فيستشير القواد قائدهم الأعلى السير شارلس هارنجتون ، فيفغر هارنجتون فاه دهشة ، ويرتبك بدوره ! !

ولا عجب فى ذلك فهارنجتون لا يقدر على مقاومة الأتراك . ثم إن الرأى العام

الانجليزي يتكل الآن بكل من يمهد لحرب جديدة . والحلفاء يخشون أن يؤدى اشتباك الأتراك مع الانجليز الى حرب دولية أخرى . .

مصطفى كمال يشاهد فصول هذه الرواية التى ألفها تمثل أمامه على مسرح السياسة، فيبتسم . وعندما يدخل عليه فرانكلن بويون ممثل فرنسا الرسمى ويطلب اليه فى الحاح وخوف أن يوقف زحف جنوده مخافة أن تنطلق فى الفضاء طلقة طائشة فتؤدى الى الحرب . . فيقول مصطفى كمال ببرود انه ينتظر هذه الطلقة بصبر نافد . . فيقف شعر فرانكلن بويون عندما يتصور هول الحرب المنتظرة ، ويحسب أن كمالا يريد اعلان حرب جديدة تؤيده فيها الروسيا . . فيصرح له بكل شيء ويسلم بكل شيء :

فاليونان يتعهد الحلفاء باجلائهم عن تركية أوربا . وجيش الاحتلال يتعهدون بسحبه . والصلح يتعهدون بقبوله . .

وامام إصرار فرانكلن بويون وتوسلاته الهستيرية يقبل مصطفى كمال أن يوقف تقدم جنوده . . ويكون ذلك منه تفضلا على الحلفاء ومنة يقابلونها بالشكر وعرفان الجميل !

وفى قرية « مودانية » تعقد الهدنة فى ٩ أكتوبر على يدى عصمت . وبعد أيام لا يبقى فى تركية أوربا يونانى واحد ! !

مصطفى كمال كما أعرفه

تمت المعجزة . وانتصر مصطفى كمال . ولم يبق من آثار الاحتلال الا جيش بريطانى هزيل فى استامبول أوشك أن يستقل بوارجه الى بلاده . وخليفة خائن أوشك أن ينبذ نبذ النواة

ومصطفى كمال الآن رجل الساعة . رجل الشرق . رجل العالم

وهذا الرجل النحيل بوجهه الضامر وعينى الذئب المتألقتين يقف على قمة الانتصار والفخار وسط هالة من المجد

والأتراك يهتفون له من أعماق قلوبهم : « يعيش الغازى مصطفى كمال ! »

والشرقيون يهتفون : « يعيش البطل الشرقى ! »

والاسلام يهتف : « يعيش سيف الاسلام » !

ومن مصر ، وسوريا ، والعراق ، وإيران ، وافغانستان ، والهند ، والصين ، وجزر الهندالشرقية ، والحجاز ، واليمن ، والسودان ، والحبشة ، وتونس ، والجزائر ومراكش ، تنهال البرقيات ، والدعوات ، والسبح ، والمصاحف ، والسيوف ، والخناجر المرصعة بالجواهر . . .

وفي كل قطر من هذه الأقطار ، وفي كل مدينة وقرية ، وفي كل منزل ، يمجد المسلمون بطل الشرق والاسلام

ومئات الملايين من المسلمين الذين خرجوا من الحرب العظمى مستعبدين مضطهدين ، يتمنون لو يعاود التاريخ سيرته الأولى ، ويحمل الغازي مصطفى كمال سيف الاسلام ولواء الاسلام ، ويدعو سائر المسلمين الى الجهاد في سبيل الحرية ، في سبيل الشرق ، في سبيل الاسلام . .

ودعاة الأمبراطورية العثمانية من الاتراك يتمنون لو يصبح قائدهم محمداً وفاتحاً آخر يشرع في بناء امبراطوريتهم من جديد . .

وفي وسط هذا العالم الزاخر المتأجج ، والحماسة المستعرة ، والسيل العرم ، والشرق المضطرم ، يقف الرجل النحيل بوجهه الضامر وعيني الذئب المتألقتين كما كان وحيثما كان حديداً جليداً . .

فأما الراغبون في بعث الامبراطورية العثمانية فجوابه عليهم : « لا . . دعوا العظام النخرة في قبورها ولا تزعجوا الأموات في عالم الأموات . . نحن لا نحيي الموتى ، ولا نشيد الأنقاض الخربة من جديد »

وأما الراغبون في الجامعة الاسلامية فنصيبهم منه : « لا . . أنا لا أومن بالجامعة الاسلامية في عصر نارى حديدى لا يعرف الا دولا مستقلة وحدوداً معترفاً بها في القانون الدولي العام . فان كان ثمة اتفاق فليكن بمعاهدات هجومية دفاعية ، ومثل هذه المعاهدات لا أعقدها الا مع الدول المستقلة ذوات السيادة والقوة ، والمصلحة التي أراها أمامي كما أرى أن ١ + ١ = ٢ »

وأما الراغبون في المساعدة فيقول لهم : « لا . . كيف نساعدكم ونحن أنفسنا في حاجة الى المساعدة ؟ ! أنا أعلن على رءوس الاشهاد انى لن أساعد أحداً . وكل ما هنالك انى أتمنى لسائر الشرقيين الخير والحرية »

وأما الراغبون في بعث الاسلام بالسيف والجهاد فجوابه عليهم : « لا . . لسنا في

عصر الحروب الصليبية . دعوا الاسلام وحده وجاهدوا انتم لتستقلوا ، فاذا نلتم استقلالكم ورأيت على خريطة العالم عشرات من الدول الاسلامية المستقلة أيقنت أن الاسلام بعث من جديد . أما الجهاد فى سبيل الاسلام وأنتم مستعدون لحرب تعلنونها على الاسلام . .

وأما البلاشفة ، أولئك الذين جاءوا بنظام عالمى جديد ، وعولوا على اتخاذه بوقاً شرقياً وخليجاً يعبرونه ليصلوا منه الى الشرق لجوابه عليهم : « انتم تقولون انكم سترفعون عن الطبقات المستعبدة نير الاستعباد . فأقول لكم انى لا أعرف طبقات مستعبدة (بالكسر) وأخرى مستعبدة (بالفتح) ، وانما أعرف طبقات تسمح لغيرها بأن تستعبدها . ومثل هذه الطبقات يجب أن تفنى فى الرق والاستعباد . . دعونا من البلشفية فأنا لا أومن بها . وتعالوا نتفق على الهجوم والدفاع كما تفعل سائر الدول الغربية »

كلمة « نعم » لم يقلها هذا الجبار لأحد قط . . ولو كان أحد غيره فى مكانه لأسكرته نشوة الظفر ، وأخرجه الشرق المضطرم عن طوره ، فراح يتخبط فى سياسات خرقاء ، كتلك التى سارت عليها الامبراطورية العثمانية فى أواخر عهدها ، فيتحطم ويحطم معه الشرق أجمع

وانى لأراه فى هذه الساعة واقفاً فوق قنة الانتصار والفخار وحوله هالة المجد ، فأرى كتلة من الحديد الجليد ، وأرى عينين متألقتين ولكنهما لا تبصران إلا حدود تركيا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأسمع كلمات كأنها الفولاذ المصبوب :

« ألا بعداً للعاطفة . ! ألا سحقاً للحماسة الزائفة والتعصب الدينى الكليل الزائف . لن أكون بطلا شرقياً ، ولا بطلا اسلامياً . . لن أقاوم الغرب . . فقد رأينا الويل من عداء الغرب . . لن أقاوم المسيحية فقد قاومناها قرونا وها نحن أولاء نقف أمامهم مهزومين مدحورين . .

« الجامعة الاسلامية والجهاد الدينى يوقظان عداوة الغرب وتعصبه ، فيطالبنا أبداً بأن نعيش له عبيداً . . سأعيش ويعيش الأتراك لتركيا وحسب . . حدودنا لا نتجاوزها . . صداقة الغرب لابد منها . . مجاراة الغرب فى مدنيته واختراعاته وعلومه ديننا . . أما الاسلام ، دين الله ، فسوف أمحو من معالمه الدنيوية ما يثير تعصب الغرب وعداوته . . ألا بعداً للشيوخ المتعصبين الجاهلين . . ألا بعداً للتعصب وكل ما يمت الى التعصب

بسبب . . ألا بعداً للخلافة . . ألا بعداً لكل ما يعيد الى الأذهان عهد الخلافة فيوقظ عداوة الغرب الهاجعة .. الدين بيني وبين ربي ، أما الدنيا فبيني وبين الغرب ، ولأفصلن بين ديني ودنياي ما دمت حياً . . تلك رسالتي للعالم ، وللشرق خاصة . . »

* * *

وهناك على رابية بعيدة فى التركستان ترى قبراً كقبور الأولياء يحج اليه التركستانيون ويبللون صخوره بدموعهم الحرى

تحت هذه الصخور عظام أنور : رجل العاطفة ، رجل الحماسة الزائفة ، رجل الخلافة ، رجل الامبراطورية ، رجل الجامعة الاسلامية . .

قضى هذا الرجل نحبه شاهراً سيف الاسلام – سيف الشرق المجاهد – فى وجه الروسيا – فى وجه الغرب المتعصب !

فماذا كان نصيبه الا الدموع ! ؟

ألا تعساً لأولئك الباكين ولتلك الدموع الحرى ان كانت العاطفة والحماسة الزائفة والخلافة ، والامبراطورية ، والجامعة الاسلامية تؤدى بالشرق الى قبر كقبور الأولياء يحج اليه الضعفاء باكين مترحمين !

تم الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

عهد جديد

« لقد قمنا فى وقت قصير بأعمال عظيمة مثمرة . وان أجل هذه الاعمال خطرا هو اعلان الجمهورية التركية التى ترتكز على بطولة الشعب وثقافته العالية . ويجب علينا أن نعمل على نجاح هذا الأثر معتمدين على ارادة الظفر الحديدية التى أظهرها شعبنا وجيشنا الباسل . ولكن هيهات أن نعد ما فعلناه كافياً ، فان من الواجب علينا وفى نيتنا ـ أن نقوم بأعمال أخرى وآثار أعظم من سائر آثارنا . لنرفعن وطننا فوق مهد سيكون أعظم أقطار العالم رخاء وأرقاها مدنية ، ولنتيحن لأمتنا أحسن الموارد وأغناها ، ولنمنحنها وسائل الرخاء والرفاهية ، ولنشيدن ثقافتنا الوطنية فوق مستوى المدنية المعاصرة »

كمال اتاتورك

اكتوبر سنة ١٩٢٣

رسول انقرة في استامبول

فجر ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢

ما بال استامبول تدفع بأهلها من مساكنهم الى الطرقات فى تلك الساعة المبكرة ؟

الطرقات تموج بالرجال والنساء والأطفال وفى يد كل منهم علم وصورة مكبرة لمصطفى كمال . وساحل البسفور لا تكاد تجد فيه موطئاً لقدم

والجميع يهتفون ويهللون ويكبرون . .

وتبزغ الشمس . ويرتفع الضحى . وتدق الساعة الثانية بعد الظهر . فتظهر من بعيد الباخرة « جول نهال » . .

وتمر بضع دقائق تخفق فيها القلوب بشدة . . وفى تلك الاثناء تدنو الباخرة من الميناء متهادية على صفحة الماء ، لابسة من الأعلام والاكاليل حلة الظفر . .

الحناجر تنطلق بهتافات تشق عنان السماء ، وتهتز لها صفحات الماء :

« يحي الغازى مصطفى كمال باشا ! » . . « يحي رأفت رسول انقرة ! »

آلاف من الزوارق تنطلق الى الباخرة وعليها عشرات الألوف من أهل استامبول ذهبوا يحيون رسول انقرة فى عرض البحر . وانك لتسمع لهم هتافات لن تنساها مياه البسفور أبداً . .

وتلق الباخرة مرساها ، وينزل منها وحوله الألوف المؤلفة ـ رأفت باشا مندوب مصطفى كمال فوق العادة فى استامبول

رجل قصير جداً ، نحيل جداً ، فى بذلة عسكرية انيقة جداً ، على رأسه « قلبق » طويل جداً ، الابتسامة لا تفارق شفتيه ، والذكاء يتألق فى عينيه

ولا يكاد رأفت ينزل من الباخرة حتى يختنق فى خضم زاخر من الكتل البشرية الأيدى تمتد اليه وترفعه الى الأعناق فيرتفع ، ولكنه ـ لفرط صغر حجمه ـ لا يكاد يظهر من بين الجماهير الا اذا قفزت الى الهواء لتتبينه . .

« باشا ! ! باشا ! ! بيك باشا ! ! »

شباب وشيب . رجال ونساء وأطفال . . الجميع فى نشوة الظفر سكارى وما هم بسكارى

الرصين منهم يقفز فى الهواء مصفقا مهللا .. فما بالك بغير الرصين ؟ !

طرقات استامبول تشهد من المواكب الحماسية ما لم تشهده أبداً — حتى فى عصر السلاطين واستقبال الغزاة الفاتحين !

ولا عجب ، فتلك عاصمة الاحتلال تستقبل رسول عاصمة الحرية . وهذا بلد الذل والاسر والهوان رفع النير عن كاهله فعاد — كما كان — حراً ، وبحريته سعيداً . وتلك نفوس كادت تزهقها أغلال العدو الغاصب أتيح لها الآن أن تتنفس الصعداء بعد أن قطع الرجاء

وتغرب الشمس فلا تغرب مواكب الجماهير . وتأوى ذكاء الى مضجعها ولكن هيهات أن تؤوى الجماهير المضاجع !

إنها ليلة فى العمر . فلا حرج عليهم أن يقضوها فى مرح وسرور وتهليل وتكبير . . المشاعل تحيل الليل نهارا . المنازل والمساجد تغرقها الثريات أنواراً . استامبول تتطلع إليها من عل فترى — وما أجمل ما ترى ! — ترى من الانوار المتألقة أنهاراً . .

* * *

وفى احدى طرقات « بيره » يرى فريق من الشبان الوزير السابق والصحافى اللاحق على كمال : الخائن المرتشى الذى طالما نادى بوجوب القضاء على الوطنيين وعلى الحركة الوطنية . فيختطفونه فى سيارة ويسيرون به إلى شاطىء البسفور حيث ينقلونه الى ازميت ويودعونه فى منزل حاكم المدينة نور الدين باشا

ومن منزل الحاكم يساق الخائن إلى السجن ، فلا تكاد الجماهير تراه فى حراسة الجند حتى تنهال عليه بصقا وضرباً ورجماً بالحجارة فيموت الميتة التى يستحقها هو وأمثاله

ومصرع على كمال يصل الى مسامع وحيد الدين فيملأ الرعب قلبه ويتساءل : أهكذا اعتزم الوطنيون أن يعاملونا ؟

ثم يطلب من هارنجتون قائد جيش الاحتلال فى استامبول أن يزيد قوة الحرس الانجليزى الذى يحمى قصره ، فيوفد اليه صديقه الحميم عشرات من الجنود الانجليز

ولا يهدأ بال خليفة المسلمين بعد تلك الحماية ، فيطلب الى صديقه هارنجتون أن يتوسط له لدى رأفت باشا في تحديد موعد لمقابلته والتحدث اليه في شئون المستقبل ، فتحدد المقابلة في الساعة السادسة من مساء ٢٩ أكتوبر

وفى تلك الساعة يلج رأفت أبواب قصر يلدز ، ثم يدخل على وحيد الدين دون

أن يكترث بما يسمونه « البروتوكول » ، يدخل في ثوبه العسكرى والغدارة معلقة فى منطقته

ويقف الرجلان وجهاً لوجه :

هذا شيخ جاوز الستين من عمره ، قضى سنى ولايته للعهد فى عالم الحريم فنهل من عالم اللذات وكرع ، وأمضى سنى سلطنته في هزائم متتالية فتحت بها الحرب الكبرى ، وفى صراع دموى رهيب استهل به حرب الاستقلال ، فوافق على صلح مودروس ، وسلم للعدو المحتل بلاده وحل جيشها ، ورضى باحتلال أزمير ، وأمر كاظم بتسريح القوات الوطنية فى شرق الاناضول ، وقاوم الحركة الوطنيـة فى مهدها إذ سلط عليها العشائر الكردية والجاسوس الانجليزى ، وأباح دماء الوطنيين بمنشوره اللعين الذى وزعته الطائرات اليونانية على سائر بلاد الأناضول ، وقنع بمعاهدة سيفر وحكومة خفاشه الاسود ، وانضم إلى الانجليز واليونانيين طوال حرب الاستقلال .. وهو إبان تلك الحادثات لم يزل فى عالم الحريم واغلا وفى وهدة الخيانة متردياً وعلى فراش الذل والخنا متقلباً سعيداً . .

وذاك رجل دعاه وطنه فأجاب ، وبهره الجهاد فانبهر ، فقاتل ، فظفر . .

الرجلان يقفان وجها لوجه . فيحاول الخليفـة الخائن أن يستوضح رأفت رأى حكومة انقرة فيـه ، فيقاطعه رأفت بحدة قائلا : « سيدى ! الموقف الحالى لا يقبل التأجيل أكثر مما أجل ، ومحال أن تظل فى تركيا حكومتان احداهما فى استامبول والأخرى فى انقرة . فهل لك في أن تحنى رأسك أمام الأمر الواقع فتوقف هذا الازدواج الذى يتعارض مع مصالح البلاد باقالة حكومة الباب العالى ؟ »

وحيد الدين يراوغ . . ويشرع فى التحدث عن الدستور وواجبه نحوه ، ويقول إن حكومة أنقرة لا تمثل البلاد تمثيلا صحيحاً . . ويقول أشياء كثيرة يختمها بالسؤال عن نيات حكومة أنقرة . فيصيح رأفت فى وجهه :

« ماذا تنتظر من الذين حكمت عليهم بالاعدام ! ؟ إن أغلبية المجلس الوطنى الكبير تأبى أن تقبلك سلطانا على تركيا بعد ما كان من صداقتك لاعداء الوطن . ومن يدرى فلعلها ترغب أيضاً فى إراحتك من سلطانك الروحى كخليفة للمسلمين ! ! »

وحيد الدين وجهه فى صفرة وجوه الموتى . . ولكنه سرعان ما يستعيد رباطة جأشه فيقول إن مسألة الخلافة أخطر من أن يفصل فيها مجلس انقرة ، فهى مسألة

الشرق الاسلامى أجمع .. ثم يحاول أن يهدد رأفت فيقول : إن بقاء حكومة استامبول أمر لا مفر منه . . فيحز رأفت على أضراسه ويصيح :

« لا تنس يا سيدى أنك الآن فى يدنا . . أما وزراؤك فانهم إذا كانوا يصرون على البقاء فى مناصبهم ضد ارادة الشعب ، فمعنى ذلك أن حبل المشنقة معد لكل واحد منهم ! ! »

ويخرج رأفت . فيتهالك وحيد الدين على أحد المقاعد الوثيرة ، وتمر أمام الخليفة الأسود أشباح سوداء معلنة دنو الخاتمة . .

خاتمة السلطنة

أنقرة بعد الظفر . .

معالم الفرح توشك أن تزول ، وانك لتتفرس فى القرية فتراها كما كانت : منازل عتيقة ، وأكواخا حقيرة ، ووجوهاً شاحبة ظاهرة الاعياء

معركة السياسة تقوم بعد معارك القتال ، نواب المجلس الوطنى الكبير يتناقشون فى خير الطرق للحصول على معاهدة تعيد الى البلد استقلاله ، وزعماء المجلس يتطلعون بلهفة الى رئاسة وفد المفاوضة وعضويته

وعندما تبلغ أنباء استامبول انقرة ، ويتسامع النواب بتلك المقابلة التاريخية التى تمت بين وحيد الدين ورأفت ، يدب الشك فى نفوسهم ، ويتوجسون شراً من نيات كمال نحو الخلافة والسلطنة

نعم انهم يمقتون وحيد الدين ويلعنون عهده الأسود . ولكنهم لا يمقتون السلطنة ولا الخلافة . بل انهم لا يتصورون تركيا بدون سلطان وخليفة . وما كانت الجمهورية تخطر لأحد منهم ببال

ورءوف بك الذى يكاد يرأس الآن حركة المعارضة فى المجلس ، يكثر من الهمس والغمغمة والمناورات السياسية . فيشعر كمال بأن فى جو المجلس شيئاً غريباً ، شيئاً ينكره العقل والمنطق وتنكره البرامج السياسية التى وضعها فى مخيلته ورسمها فى صفحة ذهنه

وفى ذات يوم يدخل عليه رءوف فى غرفته الخاصة فى المجلس الوطنى فى حالة

عصبية ، ويظهر له رغبته فى الافضاء اليه بأمور خطيرة ، ويدعوه للحضور الى منزل رأفت باشا والسماح لعلى فؤاد باشا بالحضور أيضاً ، فيقبل كمال الدعوة

وفى منزل رأفت يجتمع الأربعة : كمال ورءوف ورأفت وعلى فؤاد ، ويشرع رءوف فى الحديث فيقول إن المجلس قلق أشد القلق من جراء الاشاعة الرائجة عن الغاء مقام السلطنة ومحاولة هدم الخلافة ، وانه - أى رءوف - مرتاب فى خطط كمال المقبلة ويطلب منه بالحاح أن يطمئن المجلس - ببيان رسمى - على مقامى السلطنة والخلافة

مصطفى كمال يلعب دوره بمهارة فائقة ، فيعبث بشاربه قليلا ثم يشعل سيجاراً ويسأل رءوفا فى هدوء عن رأيه هو فى السلطنة والخلافة ، فيقول رءوف انه مرتبط حساً ووجدانا بمقام السلطنة والخلافة ، لأن والده نشأ فى ظلال نعمة السلطنة وأصبح من أركان الدولة العثمانية . وان ذرات من تلك النعمة تجول فى عروقه . وإنه لن يكون كافراً بهذه النعمة . وانه يشعر بواجب المحافظة على إخلاصه للسلطان . أما ارتباطه بالخلافة فمرجعه الى تربيته الدينية . ثم انه فضلا عن ذلك كله يرى استحالة تصريف الأمور فى تركيا بدون السلطنة والخلافة . . وأخيراً يقول إن محاولة إلغاء هذا المقام الجليل يؤدى - بلا شك - الى أعظم النكبات . . .

فيسأل رأفت عن رأيه ، فيقول انه يشترك فى الرأى مع رءوف . وانه لا يمكن التفكير فى أى شكل للادارة غير السلطنة والخلافة . .

فيسأل على فؤاد ، فيتهرب من الاجابة بلباقة قائلا انه عاد من موسكو أخيراً وليس فى استطاعته ابداء رأى قاطع فى هذه المسألة . .

ويسود الصمت المجلس بضع دقائق يشعر فيها كمال بخطورة الموقف . ولكنه رغم ذلك يعالجه ببروده ودهائه المعهودين ، فيقول متفرساً فى وجوه الحاضرين بنظراته المخيفة ، ان المسألة التى يتحدثون عنها ليست مسألة اليوم ، وانه لا محل لقلق بعضهم فى المجلس

فيبدو على رءوف انه ارتاح لهذا الجواب . . ولكنه لا يقوم ليعود الى منزله بل يظل يتحدث فى نفس الموضوع ساعة بعد ساعة . . حتى ينتصف الليل . . ثم الى الصباح ! وأخيراً ينال من كمال وعداً بالقاء بيان فى المجلس يطمئن النواب القلقين . فيدون كمال بالقلم الرصاص بعض ما قاله خلال المناقشات ، ويعد بالقاء البيان

وفى نفس اليوم يلقى كمال البيان فيخيل إلى أعضاء المجلس أنهم سجلوا عليه وعداً صريحاً بعدم التعرض لمقام السلطنة والخلافة ، مع أنه لم يعد بشىء ، ولم يقل أكثر مما قاله رءوف بك ـ وهو أن هذه المسألة ليست مسألة اليوم . .

ثم يجلس كمال فى مقعده فى المجلس منتظراً يوم السلطنة كما ينتظر اللاعب الماهر نهاية لعبة مضمونة النجاح

ويحين هذا اليوم إذ تصله من الصدر الأعظم توفيق باشا برقية يقول فيها : إن النصر « الذى أحرزناه بعونه تعالى ! » قد أزال أسباب العداء بين استامبول وانقرة ومهد للوحدة القومية . . وانه لم يبق فى البلاد عدو . ومعنى ذلك أن الخليفة لا يزال على عرشه ، وأن الواجب يقضى بالانقياد لأوامره . ثم يطلب اليه أن يوفد ـ على وجه السرعة ـ شخصاً يوثق فيه ليحمل الى الوفد المسافر من استامبول تعليمات انقرة ـ إذ أن الدعوة الى مؤتمر الصلح موجهة الى حكومتى استامبول وانقرة معا !

هذه هى القنبلة التى سينسف بها كمال السلطنة . . وها هوذا يثور إذ توجه الدعوة الى حكومة استامبول الخائنة التى لم تعد تمثل الا نفسها ، وإذ يرى الصدر الأعظم يتحدث عن النصر « الذى أحرزناه بعونه تعالى . » مع ان الخليفة وحكومة استامبول كانا حربا على الحركة الوطنية وشوكة فى ظهرها وسيفاً مصلتاً فى أيدى الاعداء

ومصطفى كمال يعرف متى يجب الصمت ومتى يجب الكلام والعمل ، فهو لذلك يقيم القيامة على حكومة استامبول ، ويستمطر عليها اللعنات ، ويستخرج من نفوس النواب عوامل الثأر الهاجعة ، ويعلن على الخونة حربا شعواء يتجلى فيها على حقيقته : رجل حرب فى ميادين القتال وفى عالم السياسة المضطربة . وانك لترى فى عينيه ذواتى البريق الذى رأيناه فوق مرتفعات غاليبولى وعلى شاطىء سقاريا . .

ومصطفى كمال لا يرحم . فهو لذلك فى صراع رهيب مع دعاة الابقاء على قوائم عرش مزعزع الأركان ، يريد ان يثله لينقض خرائب ينعق فوقها البوم . وانه لينتصر ـ كما انتصر دائماً وسينتصر ـ وانك لترى زعماء المعارضة يلتفون حوله ويسلمون له على طول الخط

المجلس ينعقد فى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢

النواب ثائرون . والاعصاب متوترة . ومنصة الخطابة تهتز من تحت الخطباء الذين راحوا يتعاقبون فوقها منادين : الويل للخونة المارقين . .

وثمة بيانات تلق . وتقارير تقدم بوجوب محاكمة وزراء استامبول بتهمة الخيانة العظمى ، لأنهم ـ بانتحالهم صفة ممثلى الأمة أمام مؤتمر الصلح ـ انما يطعنون الحركة الوطنية فى الصميم

وثمة تقرير طويل يقدم الى المجلس موقعاً عليه من أكثر من ٨٠ نائباً ـ بينهم كمال طبعاً ـ متضمنا انقراض الامبراطورية العثمانية وقيام دولة تركية جديدة لها دستور وحقوق مستمدة من الشعب نفسه . .

وفى ثورة النفوس وتوتر الأعصاب يوافق النواب على ما جاء فى هذا التقرير وهم لا يكادون يشعرون بأنهم انما قضوا على السلطنة بقرارهم هذا . بيد أن فريقاً من غلاة المعارضين يصيحون ملء أفواههم بأنهم لا يوافقون على القرار ، فيبتلع هتاف المجلس صياحهم وتطغى الاغلبية المتحمسة على معارضتهم الضئيلة

وفى ركن من أركان المجلس يجلس كمال كالساحر الرهيب يوزع نظراته المتألقة الملتهبة ذات اليمين وذات الشمال ويسجل على كل نائب حركاته وسكناته وأقواله تمهيداً للعقاب والثواب فى يوم موعده قريب

ثم يجتمع المجلس فى أول نوفمبر والحماس بالغ أشده . فيسعى كمال الى المنبر كما سعى من قبل إلى خط النار ، ويقف أمام النواب حديداً جليداً ، ويلق عليهم خطاباً هو البيان والتاريخ والمنطق أجمع ،أعده للنواب فى الليلة السابقة ـ ولا ندرى بأية معجزة أعده ـ فيقول إن البشرية مرت بطورين : طور الطفولة والشباب ، وطور الرجولة واكتمال القوى الروحية والعقلية . وإن الطور الأول هو العهد الذى بدأ بآدم وتخلله الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد ، حتى إذا ما بعث نبينا الكريم بدأ الطور الثانى . ثم يحدثنا عن ميلاد محمد حديثاً يخلب الألباب ، ويقول إن مولده كان فى مثل هذا اليوم الذى يخطب فيه ، فما أجمل المصادفة السعيدة ! . .

ثم يصف لنا محمداً : وجه نورانى ، وكلام روحانى ، ورشد لا رشد بعده ، وصدق وحلم ، ومروءة ، وأمانة لا حد لها ، وفخر للعالم أى فخر

ثم يحدثنا عن ذاك الصراع الرهيب بين محمد والكافرين ، بين الكتاب والاصنام ، بين الروح والمادة الصماء ، بين الحق والباطل

ثم يقول إن محمداً انتقل الى الدار الآخرة بعد أن ترك للدنيا ديناً هو خاتمة الاديان وأصبح ـ برسالته العظمى ـ خاتم النبيين والمرسلين

ثم ينتقل بنا إلى انتخاب أبي بكر للخلافة ويطيل الحديث عن هذا الانتخاب ، ويعيد كلمة الانتخاب غير مرة عندما ينتقل إلى خلافة عمر . . ثم يحدثنا عن فتوحات عمر وشعوره بالانقلاب الشامل الذى سوف يتطور بالاسلام الى أمبراطورية واسعة النطاق ، ويصف لنا عمر التقي الورع الذى يخشى أن تؤثر الفتوحات والمدنية الدنيوية على روح المسلمين فيسأل حذيفة بن اليمان عن الباب الذى سيؤدي الى هذه الفتوحات ، هل سيفتح أم يتحطم ، فيقول حذيفة : بل سيتحطم . . فيقول عمر إنه إذاً لن يغلق بعد ذلك . .

ومن عجب أن يصل بنا كال فى حديثه التاريخى هذا الى قمة النضج التاريخى إذ يصف فتوحات عمر ووفاته ، وانتخاب عثمان وما جره على الاسلام من نكبات ، وخلافة على وما دار بينه وبين معاوية من حروب ، وموقف عمرو بن العاص من أبى موسى الاشعرى ، ومصرع على ، وخلافة معاوية . . وهنا يحدثنا عن مبدأ ظهور السلطنة مع الخلافة ، تلك السلطنة الوراثية التى جرت على الاسلام أهول النكبات طوال تسعين عاماً اندثرت بعدها وظهرت على صفحات التاريخ الدولة العباسية ، دولة الملك والأبهة والترف والرخاوة ، دولة الخلفاء الذين كانوا يولون ارضاء لشهوات سياسية أو طائفية ، الخلفاء الماجنين السكيرين الهاجعين فى عالم الحريم بين الكأس والطاس والمحرمات . . وفى هذه الدولة لا يبقى للخلفاء من السلطنة شيء ، فقد انتقلت ـ أو كادت ـ الى الاتراك السلجوقيين ، ولا يبقى لهم من الخلافة شيء ، فمن العار أن يمثلوا دين الله وخلافة دين الله وهم أبعد ما يكونون عما أمر به الله والرسول . فما أشبه تلك الحال بحال الخليفة فى استامبول ، والمجلس الوطني الكبير فى انقرة !

ثم تمر القرون من بين شفتيه سراعا ، فيحدثنا عن قيام جنكيز خان فى أواسط آسيا واكتساحه الشرق والغرب ، ثم انحدار حفيده هولاكو الى بغداد وقتله الخليفة المستعصم ومحوه بذلك معالم السلطنة والخلافة من عالم الوجود . . وينجو المستنصر بالله ـ أحد ورثة الخلافة العباسية ـ من مذبحة بغداد بأعجوبة فيفر إلى مصر ويعتصم بها . وتمر قرون أخرى تتنقل فيها الخلافة بين بلاد المغرب ومصر ، وتقوم دول وتندثر أخرى ، حتى يركب السلطان سليم جواده ويدخل مصر ظافراً ، فيجد فيها ـ فيم يجد ـ رجلا هزيلا يكاد ينكره قومه ولكنهم يدعونه « خليفة المسلمين » ولا يستعملونه الا فى مواكب النصر ومعالم الافراح ، فلا يجد بأساً فى اغتصاب لقبه منه . ولكن سرعان ما تلهيه فتوحه عن التفكير فى أنه أصبح « خليفة للمسلمين »

وورث عرش سليم سلاطين آخرون لا يكادون يفكرون فى الاستفادة من الخلافة، حتى يدب الانحلال فى السلطنة العثمانية ، ويظهر على مسرح التاريخ العثمانى سلاطين ضعفاء متخاذلون ، فيحاولون ستر ضعفهم باللقب الذى ورثوه عن سليم ولم يستفد منه أحد من آبائهم ، فيحيون ما اندثر – أو كاد – من معالم الخلافة ، ويهولون فيها ويفخمون حتى نصل الى عهد عبد الحميد فنجد السلطان الداهية يستغل لقب الخلافة إلى أقصى حدود الاستغلال ليسير به سلطته التى بلغت أقصى حدود الضعف والهزال . .

ثم تنحدر الخلافة والسلطنة إلى وحيد الدين ، فيستغل لقب الخلافة فى التسليم للعدو بكل شىء ويسرح الجيش بأمر الخلافة ، ويتآمر مع العدو باسم الخلافة ، ويعد للوطنيين حبل المشنقة باسم الخلافة ، ويمحو تركيا من عالم الوجود فى معاهدة سيفر باسم الخلافة . .

(أصوات صاخبة : الويل لوحيد الدين ! !)

« هذا الرجل الدنىء يحاول القضاء على الوطن باسم الحكومة ، باسم السلطنة ، باسم الملكية ، باسم الخلافة . . . »

(أصوات مدمدمة : قاتله الله ! !)

« ولكن هيهات أن يضمحل الوطن أمام شخص كهذا نخر فى عظامه الاضمحلال من عهد بعيد . . »

(تصفيق حاد . .)

* * *

وهناك فى احدى غرف المجلس الوطنى الكبير تجتمع ثلاث لجان لبحث مسألة فصل السلطنة عن الخلافة : لجنة الدستور ، ولجنة الشئون الشرعية ، ولجنة الشئون القضائية

ويرأس هذه اللجان الثلاث الشيخ مفيد افندى : رجل عتيق الافكار ، غارق الى شوشته فى خضم من كتب الفقه لا يعرف لها براً . .

ويبدأ النقاش . . ويطول . . ويطول . .

والمشايخ المنتمون الى لجنة الشئون الشرعية يدعون أنه لا يمكن فصل السلطنة عن الخلافة . .

وأعضاء اللجان الأخرى لا يعارضون . .

وتمر ساعة بعدها ساعة والنقاش في تشعب مستمر . .

ومصطفى كمال الذئب جالس فى ركن من أركان الغرفة كالبركان يوشك أن ينفجر

وتمر ساعة أخرى . . فيثور البركان ، ويقف كمال الرهيب على المنصة فيبدو كالجبار المارد ، ويقول بصوت قاصف :

« اسمعوا . . ليست السلطنة أو الحكم من المنح التى تمنح بالنقاش على اعتبار انهما من ضرورات العلم ، إنما السلطنة تؤخذ قوة واقتداراً . . وقد سيطر آل عثمان على الشعب التركى زهاء ستة قرون قوة واقتداراً ، أما الآن فهاهوذا شعب يثور فى وجه مغتصبي حقوقه ويسترد منهم حقه المهضوم . هذا أمر واقع وليست مسألة ترك السلطات للشعب مسألة اليوم فهى مفروغ منها . وإنما مسألة اليوم هي : تقرير هذه السلطات ، وهذا التقرير لا شك واقع . وإلا فمن المحتمل قطع بعض الرءوس ! ! »

ثم يخفف من حدته قليلا فيشرح لأعضاء اللجان حقيقة الخلافة والسلطنة بجمل عسكرية مقتضبة ـ ولكنها مقنعة ـ فيقف النائب الشيخ مصطفى افندى ويقول بصوت مضطرب :

« معذرة فقد كنا ندرس المسألة من وجهة أخرى . والآن وقد ظهرت الحقيقة بما أدليتموه من بيانات فقد انتهت اللجان المشتركة من حل المسألة . . . »

وقانون فصل السلطنة عن الخلافة يعد بسرعة عجيبة تمهيداً لعرضه على المجلس الوطنى الكبير . .

* * *

مصطفى كمال يخرج من غرفة الاجتماع الى غرفته الخاصة فى المجلس . وهناك يستدعي رءوفا ويستقبله استقبالا عسكريا ويقول له بلهجة آمرة :

« سنفصل بين الخلافة والسلطنة ونعمل على الغاء السلطنة . أريد منك أن تلقى من فوق منبر المجلس بيانا تحبذ فيه هذا الأمر . . »

فيخرج رءوف دون أن ينبس ببنت شفة !

وهناك فوق المنبر يلقي رءوف بيانه فى حماس عجيب ، ويقترح اتخاذ يوم الغاء السلطنة عيداً من أعياد تركيا القومية ! !

* * *

١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢

أعضاء المجلس الوطني الكبير يستمعون في دهشة واستنكار إلى برقية رسمية وردت من استامبول هذا نصها :

« لقد اختفى وحيد الدين افندي من السراي هذه الليلة »

ثم تقرأ برقية أخرى هذا نصها :

« الحضرة السلطانية وضعت نفسها في حماية انجلترا وغادرت استامبول على ظهر سفينة حربية انجليزية على الوجه المبين بالبلاغ الرسمي المرفقة صورته »

١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ إمضاء

« هارنجتون »

وفيما يلي نص البلاغ الرسمي :

« يعلن رسمياً أن الحضرة السلطانية قد طلب حماية الانجليز ونقله في نفس الوقت من استامبول بصفته خليفة جميع المسلمين اجتنابا للخطر الذي يهدد حريته وحياته على أثر الحالة الحاضرة . وقد تمت رغبة الحضرة السلطانية في هذا الصباح اذ ذهب الجنرال سير شارلس هارنجتون القائد العام للقوات الانجليزية في تركيا لتسلمه ورافقه الى سفينة حربية انجليزية . واستقبله على ظهر الباخرة الاميرال سير دوبروك القائد العام لاسطول البحر الابيض . وزار السير نيفل هندرسون المندوب السامي الانجليزي الحضرة السلطانية في السفينة واستفهم عن رغباته لابلاغها الى جلالة الملك جورج الخامس »

مصير وحيد الدين

ماذا حدث في استامبول ؟ وكيف فر الخليفة ؟

ان لهذا الفرار قصة يحلو لي أن أرويها للقراء :

فوحيد الدين لما صمم على أن يرسل وفداً عنه إلى لوزان ، كان يعمل بوحي من صديقه هارنجتون الانجليزي . فلما ثارت أنقرة وتحدى كمال الصدر الأعظم توفيق باشا وشعر الانجليز بان وراء الأكمة ما وراءها ، أعلنوا حيادهم وتركوا وحيد الدين في حمة من اليأس لا يحسد عليها !

بيد أن الخليفة الأسود يأبى الا أن يقاوم . فيظل متمسكا بحكومته ثلاثة أيام

متواليات رغم الغاء سلطته . ولكنه يتخاذل فى اليوم الرابع فيشير على توفيق بالاستقالة . فتشهد بوابة « يلدز » الكبيرة آخر مظهر من مظاهر السلطنة فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٤ نوفمبر ، إذ يخرج توفيق من لدن مولاه مستقيلا

وفى اليوم التالى تبدأ حاشية الخليفة فى الانحلال السريع . . وتصل أنباء مقلقة من أنقرة . . ويصور الوهم لوحيد الدين أن حبل المشنقة فى انتظاره . فيصمم على الفرار . .

ووحيد الدين يستدعى زكى بك مدير فرقة الموسيق الشاهانية وينفرد به فى احدى غرف قصره بعد أن يغلق الأبواب ويسدل الستائر ، ويهمس فى اذنه بأن خليفة المسلمين قد اختاره من بين حاشيته ليؤدى له الواجب الأخير . فيعلن زكى بك استعداده لخدمة مولاه فيأمره وحيد الدين بالذهاب سراً الى منزل الجنرال هارنجتون ومفاوضته فى أمر الاحتماء بانجلترا والفرار على احدى بوارجها الراسية فى ميناء استامبول . .

زكي بك يذهب لأداء واجبه . فيقابله هارنجتون ويقول انه لا يمانع فى حماية الخليفة ومساعدته على الفرار . ولكنه يرجو منه أن يكتب بذلك طلباً كتابياً يوقعه بامضائه الشريف . .

فيعود زكي بك الى مولاه ويبلغه أوامر هارنجتون . فيكتب الخليفة الطلب بيده ويوقعه « محمد خليفة المسلمين » . .

وتمر ايام فى مفاوضات بين هارنجتون ولندن . وهذه الأيام يقضيها وحيد الدين فى يأس ورعب لا حد لها ، ويرى بعيني رأسه كيف ينفض أتباعه من حوله ، وكيف يزول الباطل أمام الحق القوى . .

وفى يوم الجمعة ١٠ نوفمبر يذهب ليؤدى فريضة الجمعة على جاري عادته . فيمر فى طريقه الى المسجد في طرق خاوية . ويقبض صدره انحلال موكبه الفخم الذى اعتاد الخروج فيه

وفى المسجد يقف الخطيب على المنبر داعياً لخليفة المسلمين دعاء فاتراً لا يردد المصلون بعده كلمة آمين . أما « سلطان البرين وخاقان البحرين » وما الى ذلك من ألقاب السلطنة فلا يسمعها الخليفة

والعود من المسجد عود سخيف فاتر . .

وهو إذ يدخل حجرته الخاصة يجد خطابا من هارنجتون يحدد فيه موعد الفرار

وفى اليوم التالى : ١١ نوفمبر ، ينتقل مع ابنه الصغير أرطغرل وكبير أمنائه وزكى بك والدكتور رشاد باشا وبعض الخدم والأغوات الى « كشك المراسم » حيث يقضون الليل ساهرين بعد أن كدسوا فى الحقائب ما خف حمله وغلا ثمنه من جواهر السلطنة العثمانية وتحفها الذهبية ـ الا أرطغرل فقد نام على الفراش الذى نام عليه من قبل امبراطور المانيا فى زيارته لعبد الحميد . .

نام وهو لا يشعر بأنه على وشك مغادرة العاصمة التى ولد فيها وكان مقدراً له أن يجلس على عرش سلطنتها وخلافتها فى يوم من الأيام

وفى الساعة السادسة صباحاً ـ والظلام لا يزال دامساً ـ يخرج من « كشك المراسم خليفة المسلمين وأتباعه ، ويستقلون سيارتين من سيارات الصليب الأحمر الانجليزى الى الميناء ، وتتبعهما سيارات أخرى فيها الحرس الانجليزى

وفى الطريق ينضم اليهم هارنجتون صديق الخليفة

وفى الميناء ينزل وحيد الدين : شيخاً محطم الأعصاب ظاهر الخوف ، فيسير بخطى مضطربة الى حيث رست البارجة الجبارة « ملايا » . .

وقبل أن يستقر فيها يفتقد شيئا . . فيعود الى الجمرك مسرعاً ويبحث عن حقيبة الجواهر ، فيجدها هناك فى احدى القاعات ، فيعود بها الى البارجة ويفتحها ليطمئن على ما فيها . .

ويستقبله الاميرال سير دوبروك القائد العام لأسطول البحر الأبيض استقبالا رسمياً ، ثم يتقدم اليه السير نيفل هندرسون المندوب السامى البريطانى فى استامبول ويسأله عن رغباته ليبلغها الى ملك الانجليز ، فيشكر له وحيد الدين عطفه وللمليك الانجليز كرمه

ثم تهم البارجة بالرحيل فيودع وحيد الدين صديقه الحميم هارنجتون

وتتحرك البارجة :

ها هى ذى استامبول عاصمة السلطنة العثمانية منذ محمد الفاتح تختفى عن الانظار

ها هى ذى غاليبولى حيث هزم كمال الحلفاء

ها هى ذى أزمير التى سلمت لليونانيين بأمر من الخليفة

ها هو ذا رصيف أزمير حيث فر آخر جندى يونانى

ها هى ذى مياه البحر الابيض المتوسط

لقد اختفت تركيا عن أنظار وحيد الدين الى الأبد ، واختفى شبح السلطان الاسود . . الى الأبد ! *

عصمت في لوزان

« بعد الحرب ياباشا يجب أن تستريح . . فقد أجهدت نفسك أيما اجهاد . . . »

هذا ما قالته خالدة أديب لمصطفى كمال قبيل دخوله أزمير ، وهذا ما كان يقوله كل سياسى فى المجلس الوطنى الكبير

مصطفى كمال ، وعصمت ، وفوزى : هم الثلاثة يجب أن يستريحوا ، أو بعبارة أخرى : يجب أن يتركوا الميدان لرجال السياسة فقد ختمت الحرب العسكرية وبدأت الحرب الدبلوماسية !

وفى أزمير — وقبل صلح مودانيا — تصل كمالا برقية من هيئة الوزراء فى أنقرة يفهم منها أن عمله فى السلك الحربى قد انتهى ، وان رئيس الوزراء رءوفا يستدعيه الى أنقرة على وجه السرعة ، فلا يعترف بانتهاء عمله طبعاً ، ويبعث هو فى استدعاء رءوف الى أزمير !

وعند عودته الى انقرة يجد — فيما يجد — ان الاجماع يكاد يكون معقوداً على إيفاد رءوف الى مؤتمر الصلح كرئيس لهيئة المفاوضين . . ومصطفى كمال يعتقد ان الوفد الذى يرأسه رءوف لا ينجح ، لأنه لا يكاد يفرق بين مشاعره وواجباته ، الا أن رءوفا يصر على الرئاسة ، ويحاول — ارضاء لكمال — أن يعين عصمت مستشاراً له . فيقول كمال ان الفائدة تكون أعظم لو أصبح عصمت رئيساً للوفد ، فلا يقتنع رءوف برأيه هذا ، ويظل يقوم بالدعايات السياسية لنفسه

وفى تلك الأثناء يؤدى عصمت مهمته فى صلح مودانيا على الوجه الأكمل ، ويذهب الى بروسه ، فيلحق به كمال هناك ويشرع فى استجوابه عما تم فى مودانيا ،

---

* تساءل الناس بعد فرار الخليفة : لم لم يقتله مصطفى كمال جزاء خيانته ؟ وجواباً عن ذلك نقول إنه أشفق على وحيد الدين أن يصبح ضحية من الضحايا وشهيداً من الشهداء في نظر بعض ذوي القلوب المريضة ، فأراحه من الاعدام ، واستراح منه ، وأتاح له الفرار في حمى الانجليز ليختم حياته بخاتم الخيانة التي لا خيانة بعدها

فيقتنع تماما بكفاءته السياسية ويصمم على أن يعينه رئيساً لوفد المفاوضة

وفى هذا اليوم بالذات يبرق الى يوسف كمال وزير الخارجية راجياً منه أن يستقيل ليعين عصمت بدله تمهيداً لايفاده رئيساً للوفد ، فيستقيل الوزير عن طيبة خاطر معلناً انه يحبذ الفكرة

وفى ذات يوم يربت كمال على كتف عصمت ويقول له بلهجة الامر الواقع إنه أصبح وزيراً للخارجية ورئيساً لوفد المفاوضة . . .

فيظهر التردد والحيرة على وجه عصمت ، ويشرع رجل الحرب فى الاعتذار عن قبول المنصبين بأنه جندى ـ والجندى قد لا يجيد تعاطى السياسة ، فلا يوافقه كمال على رأيه ، وعندئذ يقول عصمت بلهجة عسكرية :

ـــ اذاً أنا أقبل الاقتراح كأمر عسكرى . . .

***

وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ينعقد مؤتمر الصلح فى لوزان ، ويجلس الرئيسان : كيرزون رئيس وفد الحلفاء ، وعصمت رئيس وفد انقرة ، وجهاً لوجه

وكيرزون هذا لورد انجليزى يخيض الصلف عتيق الافكار ، ما جلس فى مؤتمر قط الا حاول أن يفرض أفكاره على العالم فرضاً ، فكان يفشل على طول الخط ، ويكون موضع سخرية المتفاوضين

وهو فى هذه المفاوضات بالذات يمعن فى الصلف والارستقراطية ، ولا يخطر بباله انه يفاوض وفداً وراءه جيش جرار يحمل لواء النصر . فيقابله عصمت ببرود سياسى يكاد يصرعه ، ويتعمد الصمم عندما يسأله أسئلة سخيفة ، ويتجاهله كلما دمدم وضرب على المائدة بقبضته ، ويعبث بطرف المائدة ويسرح ، حتى اذا ما فرغ صاحبنا من بياناته السقيمة راح يعرض عليه أقصى ما يطمع فيه من شروط الصلح . . فيثور . . فينظر اليه عصمت ببرود وفتور . .

وتمر أسابيع وشهور وكيرزون لا يزال بغيض الصلف فاشلا فى مهمته كدبلوماسى يمثل بريطانيا . وفى لندن يثور الرأى العام ويطالب حكومته بانهاء المهزلة التى تردت فيها عندما ساعدت اليونانيين فى حربهم مع الاتراك ، وعندما أمرت بابقاء أسطولها فى مياه استامبول بعد أن فقدت كل أمل فى احباط الحركة الوطنية

والواقع أن موقف كيرزون أمام عصمت كان موقفا أقل ما يقال فيه أنه مزر

بالدبلوماسية البريطانية التي اشتهرت بالتهرب في ساعة الخطر والتسليم بكل شيء للقوى المعتد بقوته . .

كمال يؤسس حزباً سياسياً

المجلس الوطني الكبير يدخل في سنته الأخيرة . والانتخابات الجديدة قاب قوسين أو أدنى

مصطفى كمال يشعر بأن أمامه صراعا سياسيا رهيبا ، فعناصر الرجعية توشك أن تلعب بذنبها ، وفي المجلس الوطني حركة معارضة واسعة النطاق الغرض منها مقاومة مصطفى كمال السياسي وساعده الايمن عصمت

ومصطفى كمال رجل يعرف من أين تؤكل الكتف . فهو يغادر انقرة بخيرها وشرها في ١٤ يناير سنة ١٩٢٣ وفي نيته أمران : الاتصال بالشعب اتصالا مباشراً ، وتحويل جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول الى حزب سياسي . فيزور معظم ولايات الأناضول ويطلب من الجمهور أن يوجه اليه ما يشاء من أسئلة في مختلف شئون السياسة ، ويلقي محاضرات طويلة في كل بلد يمر به ، وبذلك نراه ينقلب رجل سياسة بعد أن كان إلى الأمس القريب رجل حرب

وبينا هو في ازميت يقوم بالدعاية السياسية لحزبه الجديد ، إذا به يسمع أن أحد نواب المجلس الوطني : الشيخ شكري افندي وزع على النواب وعلى سائر الولايات التركية نشرة سياسية دينية عنوانها « الخلافة الاسلامية والمجلس الوطني الكبير » ، وقوامها « أن الخليفة للمجلس والمجلس للخليفة » ، وأن الخلافة « حكومة عينية وليس في وسع إنسان أو مجلس أن يبطل حقوقها وواجباتها » . . وأنه لا بد من توحيد الشرق كله تحت لواء الخلافة الحاكمة . .

نشرة لا شك أنها بالغة الخطورة والسخافة . فالخلافة التي اثبت كمال انقراضها وانحلالها بالبراهين التاريخية التي لا تقبل جدالا هي التي ستحكم الآن ، وستحكم جامعة إسلامية قوامها ثلثمائة مليون مسلم ، وتدير شئون الأمم ، وتعمل على تنفيذ المشروعات النافعة وتدافع عن حقوق المسلمين كافة ، وترد عنهم عدوان الدول الأجنبية . . ! أو بعبارة أخرى ان تركيا التي خرجت من الحرب الكبرى محطمة واهية القوى

ناصية الموارد هى التى ستكون زعيمة الشرق الاسلامى كله ، وهي التى ستدافع عن الشرق كله ، وهى التى ستشمل بتاج خلافتها الاسلام كله ، والاستعمار كله ، والتعصب كله . .

فان لم يكن هذا سخافة فأين هى السخافة بعد ذلك ؟

وهل استشير الشرق الاسلامى فى هذه السيادة ؟ وهل يقبلها إذا هو استشير فيها ؟ فاذا لم يقبلها واعتد باستقلاله فأين هى القوة التى ستخضعه لتاج الخلافة ؟ واذا قبلها فكيف تتحمل تركيا المزقة المحطمة اعباء خلافة حاكمة لم تتح لأحد من الخلفاء قط بعد أبى بكر وعمر ! فاذا لم تكن الخلافة حاكمة مهيمنة على شئون الشرق ، فما فائدتها ، وهلا يكون وجودها كعدمها ؟ والغرب المستعمر المتعصب : ألا يقيم على هذه الخلافة حربا شعواء ويعمل على ألا تقوم لها ــ ولا للشرق التابع لها روحياً أو سياسياً ــ قائمة بعد الآن وخاصة بعد أن خرج الشرق من الحرب العظمى جزأ موزعا بين انجلترا وفرنسا وايطاليا ؟

مصطفى كمال يبشر بهذه المبادىء بين طبقات الشعب الذى تغلغلت الخلافة فى ذرات دمه ، ويشعر وهو واقف أمام تلك الكتل الصماء من التعصب الساذج أنه مستهدف لخطر شديد ، ومع ذلك فهو لا يخاف ، ولا يتردد ، بل يحمل على الخلافة الحاكمة حملات صادقة فيلقى من الجماهير آذانا صاغية ، ولا يترك بلداً من البلدان حتى يترك فيه آلافا من المتحمسين لآرائه السياسية والدينية

وكما ربح منشور شكرى افندى ولاية من الولايات ربح كمال بجولاته السريعة وخطبه البارعة ولايات بأكملها . . .

* * *

وفى استامبول نرى الخليفة عبد المجيد الذى انتخبه المجلس الوطنى للخلافة بعد وحيد الدين كهلا فى الخامسة والخمسين من عمره ، طيب القلب ، رضى الخلق ، ولكنه آسف على ضياع السلطنة ، عامل على استعادة مظاهرها

وأمثال الشيخ شكرى افندى فى تركيا كثيرون . وهم يعملون سراً وعلانية على التمهيد لعودة السلطنة . وعبد المجيد لا شك مرتاح إلى هذه الدعايات والمؤامرات . وثمة علائق متينة بينه وبين رأفت ورءوف وغيرهما من رجال الحرب والسياسة . علاقات قد يرون هم انها بريئة ، ولكن ذئب انقرة لا يراها كذلك . .

اعلان الجمهورية

« حافظوا على حزبكم وناضلوا عنه . ان العدو خرج من بلادنا ، ولكن الحرب لم تضع أوزارها بعد . البلاد ملأى بالخائنين . ادعوا الى سبيل حزبكم ، وانشروا مبادئه فى كل بلد ، وفى كل قرية ، وفى كل منزل ، وقفوا فى الجهاد دونى وأطيعونى . فبكم سأبنى تركيا الجديدة ــ تركيا التى ستظل أبداً للاتراك

« حزبكم هذا هو حزب الشعب . والسيادة فيه للشعب . أى مقام غير مقام المجلس الوطنى الكبير لا سلطان له على الشعب . السيادة القومية هى رائدنا فى سن القوانين وتنفيذها بما يكفل لكم الرخاء والحرية . والقرار الصادر بالغاء السلطنة دستور لا يتغير »

الشعب بأسره ينضم الى الحزب . والمعارضون فى المجلس الوطنى يشعرون بدنو الخاتمة ،فيقاومون كمالا بآخر ما فى جعبتهم من وسائل النضال :

فهذا مشروع بقانون يحرم على كل من لم يولد فى أرض تركية ولم يقم فى دائرته الانتخابية خمس سنوات حق الانتخاب . والغاية من هذا القانون حرمان كمال من حق الانتخاب ، لأنه مولود فى سلانيك ــ وهى ليست داخل الحدود الآن ــ ولأنه لم يقم فى أية دائرة انتخابية خمس سنوات . ولكن هذا المشروع يقبر فى مهده . . .

وهذا رءوف رئيس الوزارة يستغل انقطاع مفاوضات لوزان وعودة عصمت الى انقرة بدون معاهدة ليحمل عليه حملات شعواء الغرض منها القضاء عليه وإضعاف نصيره كمال ، فلا يستقبله فى المحطة بدعوى أن كمالا قابله فى اسكيشهر وعرف منه خلاصة أخبار المفاوضة قبل أن تعرفها الوزارة ، فاذا ما حاسبه كمال على هــذا الاهمال فى واجبات اللياقة استقال من الوزارة وراح يرأس حزب المعارضة فى المجلس . ولكن كمالا يقاومه ويقاوم المجلس ويحمل الجميع على احترام عصمت والسماح له بالعودة لاتمام المفاوضات

وهذا وفد من نواب المجلس يتقدم الى كمال طالباً منه الاستقالة من حزب الشعب لأنه لا يليق برئيس البلاد الأعلى أن يكون رئيس حزب سياسى ، فيرد عليه كمال قائلا انه لا يوافقهم على رأيهم ، فليس حزب الشعب حزبا سياسياً يمثل جانباً من الأمة ، بل هو الأمة بأسرها ، وأنه سيرأس المجلس الوطنى كما يرأس الحزب الوحيد فى البلاد

وهذه جبهة قوية تؤلفت ضده : رءوف ، كاظم قره بكير ، رأفت ، على فؤاد ، نور الدين ، رحمى ، عدنان ، وكلهم من أعظم القواد وأكبر الساسة

مصطفى كمال يحل المجلس الوطنى ويدعو لانتخابات جديدة . فيرى بعد أسابيع مجلساً وطنياً لا يكاد يفترق عن المجلس السابق فى شىء : فرءوف ما يزال على رأس المعارضة ، ودعاة الرجعية موجودون ، والعداء السياسى يستفحل شره

إذاً لابد من الخطوة الحاسمة : وهى اعلان الجمهورية ، فان تركيز السلطة التنفيذية فى المجلس الوطنى لم يعد محتملا ، ولابد من رئاسة تشرف على أعمال الوزراء عن كثب حتى لا تعرض على المجلس كل شاردة وواردة من شئون الحكم

وهذه الخطوة يسبقها عاملان جوهريان فى نجاحها :

فعصمت رجل « اينونو » و « مودانيا » يصبح الآن رجل « لوزان » فقد عاد الى أنقرة بمعاهدة « هى الوثيقة التى تدل دلالة واضحة على هدم المؤامرة الكبرى التى كانت تدبر ضد تركيا منذ قرون ، والتى كانوا يظنون أنهم ختموا فصولها بمعاهدة سيفر . و « هي الاثر الخالد لانتصار سياسى لا مثيل له فى تاريخ تركيا المجيد » على حد قول مصطفى كمال

وأسطول الاحتلال الذى كان راسياً فى مياه استامبول يرحل عن المياه التركية وسط عاصفة من التهليل والتكبير . وبعد أن يحيي جنوده العلم التركى تحية التمجيد والاكبار

مصطفى كمال الآن رجل الحرب الظافر ، ورجل السياسة الظافر . وسيضرب ضربته القاضية عما قريب

هو ذا جالس فى منزله المشرف على أنقرة من « تشان كايا » وفى عينيه بريق ذئب غاليبولى وسقاريا . وحوله هيئة الوزارة وعلى رأسها فتحى بك

هو ذا يلى على الوزراء خطته الحاسمة : فهم سيذهبون الى المجلس الوطنى فى الغداة ويقدمون له استقالتهم . وهم سيرفضون الاشتراك فى أية وزارة جديدة تشكل . وهم سيرون بأعينهم كيف يختلط الأمر على النواب فيتخبطون ويتخبطون حتى تعيير افلاسهم،فيعودون اليه آسفين نادمين ، ويسلمونه زمامهم ويخضعون لكل ما يأمرهم به

وفعلا تستقيل الوزارة . ويتخبط نواب المجلس ثم يتخبطون دون أن يصلوا إلى نتيجة حاسمة . ويتصادف غياب رءوف وبقية المعارضين فى هذا الاسبوع فتزداد المشاكل تعقيداً

وأخيراً ـ وفى عاصفة من النقاش والاحتجاجات والمناقضات ، يقف كمال الدين سامى باشا ويقول إن ثمة رجلا واحداً ينقذ المجلس مما هو فيه ، وهـذا الرجل هو مصطفى كمال .. فينسى النواب أنفسهم وما يحملون لـكمال من سخائم وعداء ويوافقون على الاقتراح بحماس عجيب . .

ويوفد المجلس رسولا الى كمال فى منزله ليحضر إلى المجلس وينقذه مما هو فيه . .

فلا يعبأ كمال بالرسول ولا بالمجلس . . .

فيوفد المجلس رسولا آخر . فلا يعبأ به كمال . . ولـكنه يعود بعـد الحاح منه فيشترط على المجلس قبول ما يمليه عليه دون نقاش أو معارضة . وعلى هذا الاساس يغادر منزله ويتجه صوب أنقرة

وهناك فى احدى قاعات المجلس يجتمع بأقطاب حزب الشعب ويطلعهم على نياته : إعلان الجمهورية ، وتشكيل الوزارة بعد ذلك . ويقف عصمت فيقول : إن ساسة أوربا انتقدوا هيمنة المجلس الوطنى على شئون الوزارة دون وجود رئيس للحكومة ، وإن تشكيل الوزارة غير قانونى إذا لم يسبقه إعلان الجمهورية وانتخاب رئيسها ، فيوافق الحزب على إعلان الجمهورية . .

ثم ينعقد المجلس الوطنى فى الحال . ويدير عصمت ـ نائب الرئيس ـ دفة النقاش بلباقة مدهشة ، فيوافق النواب على اعلان الجمهورية . . فى الحال ! !

وفى الحال أيضا ينتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية باجماع الآراء ! !

وفى الحال أيضا يقف كمال على المنبر ليشكر النواب على ثقتهم فيه ويحضهم على التمسك بالجمهورية : أعظم أثر من آثار حرب الاستقلال ، ثم يعلن تشكيل الوزارة برآسة عصمت ، وينتخب فتحى لرئاسة المجلس

وتطلق المدافع . ويذاع النبأ فى سائر الانحاء فيستقبله الشعب بحماس عجيب : إلا طائفة المعارضين – وهم قليلون

ويتم ذلك كله فيما بين الساعة الثامنة والتاسعة من مساء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣

وفى منتصف الليل يعود الذئب الظافر إلى منزله المشرف على انقرة ، فيخيل اليك أنه مارد جبار يقفز من مرتفعات غاليبولى ، إلى تلال سقاريا ، إلى انقاض السلطنة ، إلى صخرة الجمهورية . . وأن بريق عينيه الذى رأيناه فى غاليبولى وسقاريا ليزداد تألقاً وهولا . .

الخلافة بعد السلطنة

مصطفى كمال يجلس الى رقعة تركيا فيجد كل شيء على ما يرام ، فقـد زالت معالم العهد القديم ولم يبق ثمة الا الخلافة

ومصطفى كمال مصمم على الغاء الخلافة ، فقد مهد لهـذا الالغاء بالمجلس الوطنى الكبير ، ثم بحكومة المجلس الوطنى الكبير ، ثم بالغاء السلطنة ، ثم باعلان الجمهورية . وهو الآن يتحين الفرصة لتحقيق آخر آماله وينتظر دسائس الرجعيين وقلاقلهم ليضرب الضربة القاضية

وما أسرع ما يشرع الرجعيون فى إثارة القلاقل :

فهذه جرائد استامبول « طنين » و « توحيد أفكار » و « وطن » تستقبل اعلان الجمهورية استقبالا فاتراً ، وتقول إن العمل المجدى لا يتاح بتغيير الأسماء واستعارة كلة « جمهورية » من قواميس الدساتير

وهذا رءوف بك المقيم فى استامبول يتحدث الى الصحف حديثاً يفهم منه أنه معارض لقيام الجمهورية ، عامل على تأسيس حزب رجعى لمناهضتها

وهذا لطفى فكرى بك يوجه الى الخليفة خطاباً مفتوحاً يقول فيه إنه سمع أن مقام الخلافة يفكر فى الاستقالة ، ويصف أثر هذه الاشاعة فى نفوس الأتراك ، وينذر بالويل والثبور إذا ما فكر أحد فى التعرض لخليفة المسلمين

وهذا حزب رءوف بك يظهر فى الميدان . وها هو رءوف يغادر استامبول الى أنقرة فيودعه أنصاره : رأفت ، وعلى فؤاد ، وكاظم قره بكير ، وعدنان ، وتتحدث الصحف عن براعيه المعارضة وعن الوداع الحماسى الذى لقيه من أهل استامبول

وهذا رأفت يهدى الى الخليفة جواداً اسمه « قونية » ، ومع الجواد خطاب كله ولاء وعبودية للخليفة عبد المجيد

وفى أنقرة يشرع رءوف فى المعارضة . فيقطع عليه كمال خط الرجعة بدعوته الى جلسة خاصة فى حزب الشعب ليدافع فيها عن نفسه . فيحاول رءوف أن يبعد كمالا من الجلسة ليأمن قوة تأثيره ، ولـكن كمالا يصمم على الحضور

وفى الجلسة يهاجم عصمت رءوفا ، ويقول : « إن الخليفة إذا قمت فى ذهنه فكرة التدخل فى شئون البلاد ، فان صاحب تلك الفكرة لاشك مقضى عليه . وإن كل من

يفكر فى إحداث انقلاب قد يؤدى الى عودة السلطنة يعد خائناً ، فقد كفى ما لقيته البلاد من وحيد الدين » فيتراجع رءوف مقهوراً ويعلن ولاءه للجمهورية وإيمانه بها

وفى تلك الأثناء تقوم القيامة فى استامبول . ويخلق أعداء الجمهورية حول الخليفة جواً مكهرباً بمقالاتهم الشديدة اللهجة وترحمهم على العهود الغابرة

وفى أواسط اكتوبر سنة ١٩٢٣ تنشر جرائد استامبول خطابين موجهين الى عصمت من أغا خان والأمير على (المرحوم الملك على) وخلاصتها أن مقام الخلافة لابد أن يظل قوياً ، وان السلطنة لابد أن تعود الى الخلافة كما كانت من قبل . .

فيكتفى كمال بهذا القدر من عوامل الرجعية ، ويشرع فى العمل الجدى على الغاء الخلافة ، فيقيم القيامة على المعارضين ، ويخطب ساعده الأيمن عصمت فى المجلس الوطنى مستنكراً تدخل أغا خان والأمير على فى شئون تركيا الخاصة ، ويتهم انجلترا علانية بأنها بدأت تحرك ذنبها وتلعب فى الخفاء

وكلمة « انجلترا » وحدها تكفى لاثارة المجلس . ولذلك لا نعجب اذا رأيناه يقرر إيفاد محكمة استقلال الى استامبول لتأديب الرجعيين وتطهير الجو منهم

لطفى فكرى بك يحكم عليه بالسجن خمس سنوات . رؤساء تحرير الصحف التى نشرت الخطابين يقدمون الى محكمة الاستقلال . وثمة مشايخ يسجنون ، والدساسون يحاكمون ، واليد الحديدية تسيطر على الموقف بحزم وسرعة

ويخرج كمال من كل ذلك برأى عام يؤيده ويتوقع الغاء الخلافة يوما بعد يوم !

* * *

٢٢ يناير سنة ١٩٢٤

مصطفى كمال فى أزمير يشرف على مناورات الجيش . فتصله من عصمت رئيس الوزارة برقية مؤداها أن صحف استامبول عادت الى إثارة مسألة الخلافة من جديد . ووضعت الخليفة فى صدر المعارضة . وان الخليفة يود أن يتصل بالحكومة ويشترك معها فى تحمل مسئوليات الحكم . وأنه يطلب زيادة مخصصاته ليظهر بالمظهر اللائق بمقامه الكبير

فيرد عليه كمال ببرقية طويلة يقول فيها ان الخليفة وحده هو المسئول عن الجو السياسى المكهرب فى استامبول ، فقد عمد الى الظهور بمظاهر السلطنة ، وبالغ فى تفخيم مواكبه أيام الجمعة ، واتصل بسفراء الدول الأجنبية ، واستقبل فى قصره كبار

الموظفين وصغارهم . مع أنه لم يعد له ـ بعد قيام الجمهورية ـ كيان سياسي ، بل أصبح تذكاراً من تذكارات التاريخ لا أكثر ولا أقل . فلا معنى إذاً لاتصاله بشئون الحكم الا أن يكون ساعياً في استعادة السلطنة . ولا معنى كذلك لمظاهر فخفخته فهو لم يعد سلطانا وانما هو رجل دين وحسب . والمقام الديني يتنافى مع مظاهر الدنيا . إذاً يجب وضع حد لهذه الحركات الخطيرة ، وإفهام الخليفة صراحة ان الحكومة ستقتطع من كادره مالا ترى مبرراً له

وبعد بضعة أيام يجتمع كمال وعصمت في أزمير ويتفق معه على وجوب الغاء الخلافة بمجرد العودة الى أنقرة

* * *

أول مارس سنة ١٩٢٤

مصطفى كمال يلقي خطبة افتتاح الدورة الخامسة للمجلس الكبير ، فيركز أقواله في ثلاثة أمور :

أولا ــ رغبة الأمة في صيانة الجمهورية حالا واستقبالا

ثانياً ــ الرأى العام يطالب بوضع سياسة تعليمية من غير تسويف

ثالثاً ــ لابد من تنزيه الاسلام وإعلاء قدره بإبعاده عن عالم السياسة

* * *

٣ مارس

ثلاثة مشروعات لقوانين تعرض على المجلس :

١ ــ مشروع بقانون مقدم من الشيخ صفوت أفندي بالاشتراك مع ٥٠ نائبا ، وهو يقضي بالغاء الخلافة وإبعاد الأسرة السلطانية

٢ ــ مشروع بقانون مقدم من خليل خلوق افندى بالاشتراك مع ٥٠ نائبا ، وهو يقضى بالغاء وزارة الشئون الدينية والاوقاف

٣ ــ مشروع بقانون مقدم من واصف بك بالاشتراك مع ٥٠ نائباً ، وهو يقضى بوضع سياسة تعليمية موحدة

فتحي بك رئيس المجلس يطرح المشروعات الثلاثة على المجلس ، فيوافق عليها في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين !

وبمقتضى هذه القوانين تصبح الخلافة ملغاة . وتصبح الأحكام الشرعية من شأن

المجلس الوطنى ، وتلغى وزارة الشريعة والأوقاف ، وتضم جميع المعاهد الدينية إلى وزارة المعارف

* * *

ويقوم الشيخ راسخ افندى فيقول إنه مكلف من قبل المسلمين بعرض لقب السلطنة والخلافة على مصطفى كمال . . فيشكر له كمال ولسائر المسلمين حسن ظنهم ، ولكنه يعود فيقول إن السلطنة والخلافة مقامها مقام رئيس الدولة ، فكيف يستطيع أن يكون رئيساً على دولة شرقية لها ملوكها ورؤساء حكوماتها ؟ وهل إذا أصدر اليها أوامره تنفذ هذه الأوامر ؟ وهلا يكون من المضحك أن يتقلد مركزاً وهميا ليس له مدلول ولا موضوع ! ؟

وبذلك تمحى كلمة الخلافة من التاريخ التركى

* * *

الساعة العاشرة من مساء ٣ مارس

الخليفة عبد المجيد نائم فى قصر « ضولمه باغجة » . والى استامبول ورجال البوليس يطرقون الباب ويدخلون القصر ويطلبون مقابلته . فيوقظه الخدم من نومه ويدعون الوالى والضباط إلى مكتبه فى القصر . وهناك يقابلهم الخليفة فيقرأون عليه قرار المجلس الوطنى بالغاء الخلافة واقصائه هو واسرته إلى سويسرا . فيهتف الخليفة : « لست خائنا . . أنا وطنى وأحب بلادى . . » وتغمره موجة من التأثر فيجلس إلى مكتبه خائر القوى . فلا يلبث أن يكرر عليه الوالى أوامر أنقرة . فيستعد للرحيل . .

وفى فجر اليوم التالى يغادر قصره هو وأفراد أسرته فى سيارات الحكومة .وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يتحرك القطار من محطة « شاطلجة » حاملا آخر خلفاء آل عثمان الى سويسرا

وهناك فى « تشان قايا » المشرفة على انقرة من عل يجلس الذئب وفى يده رسالة برقية تصف رحيل الخليفة هو وأفراد اسرته ، فيبتسم كما ابتسم وهو يتطلع من شاطىء غاليبولى إلى أساطيل الحلفاء الراحلة عن مياه الدردنيل

فقد زالت الخلافة فزال معها تعصب الغرب

المؤامرة الرهيبة

كلا . . لم تفرغ جعبة الرجعيين بعد

إن مؤامرة رهيبة تدبر فى الخفاء لقلب نظام الجمهورية والعودة إلى المثل الأعلى للحكم فى نظر رءوف وأنصاره : المجلس الوطنى الكبير ، والخلافة

ها هو ذا كاظم قره بكير باشا ، المشرف على ثلث الجيش التركى فى الولايات الشرقية، يقدم استقالته إلى رئاسة عموم أركان الحرب بحجة إهمال اقتراحاته لتنظيم الجيش ، وقبل أن تقبل استقالته ويصل خلفه إلى مركز قيادته فى شرقي الأناضول نراه فى انقرة

وهاهوذا على فؤاد باشا مفتش الجيش الثانى فى قونية يستقيل من الجيش أيضا ويعود إلى انقرة على حين غرة ويتصل برءوف وانصاره ولا يلبى دعوة كمال لتناول العشاء معه

وها هوذا رأفت باشا فى حكم المستقيل

وصحف استامبول تظهر فى تلك الأيام العصيبة حاملة حملات شعواء على الجمهورية، وعلى الدكتاتورية المزعومة فى المجلس الوطنى

والنائب الشيخ أسعد افندى يقدم إلى المجلس عدة أسئلة تتناول نقط الضعف فى الحكومة التركية الجديدة ، وهذه الاسئلة تنقلب استجواباً فى اليوم التالى لتقديم كاظم قره بكير استقالته

ويتم كل ذلك بسرعة عجيبة فى تلك الايام السود التي تبعت تأديب النسطوريين واحتجاج انجلترا عليه ، ورد تركيا القاسي على انجلترا ، هذا الرد الذى أوشك أن يثير حربا بين الدولتين . . وقبيل قيام الثورة الكردية الرهيبة التى كانت كل الدلائل تشير الى قرب وقوعها

وقد خيل الى المتآمرين الأربعة أنهم ضمنوا تأييد الجيش وأوشكوا أن يضمنوا تأييد الرأى العام ، فأجمعوا أمرهم على الهجوم ، وبسرعة ، وبشكل حاسم . .

مصطفى كمال كان ينتظر هذه الحركة من المتآمرين . وإنه لسعيد بها فستتيح له القضاء عليهم قضاء أخيراً

إنه يطلب من عصمت وسائر الوزراء الاستعداد للرد على الخصوم فى المجلس ببيانات

وافية مقنعة . ويطلب من فوزى باشا الاستقالة من النيابة فيستقيل فى الحال . ثم يذهب إلى مكتب التلغراف حيث يطلب من بقيـة قواد الجيش الاستقالة من نيابة المجلس ، فيستقيل منهم عز الدين باشا وعلى حكمت باشا وشكرى نائلى باشا وفخر الدين باشا ، ويرفض كل من جواد باشا وجعفر طيار باشا الاستقالة ، فيفصلهما من الجيش ويعين بدلهما اثنين آخرين فى الحال . وبذلك يضمن ابعاد عنصر القواد عن عالم السياسة ، ويضع حداً لتسرب المناورات السياسية إلى الجيش

***

٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤

عصمت رئيس الحكومة يفتتح الجلسة بلباقة وكياسة ، إذ يعلن أن الحكومة لم تكن تنتظر استجواب الشيخ أسعد افندى ، ولـكن تبين لها أخيراً أن هنـاك أسئلة لا عداد لها توشك أن توجهها المعارضة الى الحكومة . ومع انها لم تكن على استعداد لـكل هذه الأسئلة ، فانه يسرها أن تجيب عنها ارتجالا . .

ولا يكاد يعود عصمت الى مكانه حتى يتكلم من فوق المنبر نحو ثلاثين خطيبا ، ويظهر جلياً أن المؤامرة بالغـة أقصى درجات الخطورة ، فالمعارضون يحملون على الحكومة بشدة وعنف ، والحكومة تدافع عن نفسها دفاع المستميت . .

وعندما يجىء دور رءوف يصعد المنبر ويطعن الحكومة طعنات مسممة . ويقول بعد أن يجول فى معارضته ويصول : إن شعار سياسته وسياسة انصاره يقوم على أساس السيادة القومية . . فترتفع من كل مكان أصوات هاتفة : « والجمهورية ! ؟ » . . فلا يعبأ رءوف بالاحتجاج ويقول : « المكان الذى تتجلى فيه السيادة القومية هو المجلس الوطنى الـكبير . . » فيعود الصياح : « والجمهورية ! ؟ » . . فلا يعترف رءوف بوجود شىء اسمه جمهورية . . ثم يمطر الحكومة بوابل من الاسئلة المثيرة عن شئون الجيش والتعليم والزراعة والتجارة والصناعة ، ويتهمها بأن ثمة ظلما فادحا يقع على الاهالى ، ويروح فى حملته الرهيبة واغلا دون أن يرحم أو يقدر أن الفترة بين انقضاء حرب الاستقلال وقيام الجمهورية لا تتيح لأية حكومة أن تفعل أكثر مما فعلت حكومة عصمت . وأخيرا يقول بلهجة (دراماتيكية) مؤثرة : « اللهم احفظ بلادنا ووطننا وارحمنا . . . » ثم يغادر المنبر وهو على يقين من أن طعناته أصابت مقتـلا

مصطفى كمال جالس فى المجلس دون أن يتحرك أو يتكلم . بيد أن الوزراء والنواب لا يلبثون أن يتقاطروا على المنبر لتفنيد أقوال رءوف والدفاع عن سياسة الحكومة . وانك لتلمس فى أقوالهم عزيمة المستميت فى الدفاع . ومن عجب أن يحسنوا الرد على حملات المعارضة ، وأن يشفعوا أقوالهم بالبيانات والوثائق الرسمية ، مما يدل على أن (الارتجال) كان مناورة سياسية بارعة من عصمت !

وبعد بضع ساعات يعود رءوف الى المنبر ليرد على الحكومة . وهنا تظهر خافية أمره وينكشف الغطاء عن مؤامرته ، إذ يعلن من فوق المنبر أنه ـ وان لم يكن من انصار الخلافة والسلطنة ـ إلا أنه عدو لدود لكل من ينتزع حقوق هذين المقامين

ثم تطول المناقشات وتستغرق بضعة أيام ، وكلما اشتدت استماتة الطرفان فى الدفاع عن سياستهما ، حتى تختم بطرح الثقة بالحكومة على المجلس . وعندئذ ينهزم رءوف وانصاره إذ يثق المجلس فى الحكومة بأغلبية ١٤٨ صوتاً ضد ١٩ صوتاً

* * *

ولكن المعركة ما زالت قائمة على أشدها :

فجرائد رءوف تهاجم الحكومة باقلام من نار ، وانصاره يؤلفون حزبا يدعونه « حزب الترقي الجمهوري » . ومبادىء هذا الحزب تقوم على مناهضة الحكومة والعمل على استعادة الخلافة

وثمة دعايات تروج بين سائر الطبقات ، وقوامها الحض على مقاومة الاستبداد والعمل على استرجاع الخليفة ورفع لواء الدين

وثمة مراسلات سرية بين الحزب من جهة ودعاة الثورة فى الولايات الشرقية ثم الأكراد من جهة أخرى . وكاظم قره بكير يصبح فى نظر زعماء الأكراد ـ دون أن يعلم ـ المخلص الوحيد والرجل الذى سينقذ الدين من حكومة انقرة (الكافرة)

وهكذا تتطور حركة رءوف وأنصاره إلى ثورة رهيبة لها فى اسهمها النصف ، وللذهب الانجليزى الذى ينثر فى كردستان النصف الآخر

ولست من السذاجة بحيث أقول إن حزب رءوف ساهم فى الثورة الكردية . ولكنى أقرر أن حركته كانت ـ دون قصد منه ـ أخطر تمهيد لهذه الثورة ، وهو عن هذا التمهيد مسئول أمام التاريخ

حبال المشانق

تركيا فى حالة من القلق يرثى لها ، فالبلاد على أبواب حربين : حرب سياسة وحرب ميدان

معالم اليأس تراها فى كل مكان : فى استامبول ، فى أنقرة ، وفى كل بلد أو قرية ، فرءوف وأعضاء حزبه ما يزالون يطعنون الحكومة والجمهورية طعنات نجلاء ، والشيخ سعيد زعيم الاكراد الرهيب يرفع علم النبوة الأخضر ، علم الثورة الدينية ، ووراءه لورانس وفى يده الجنيه الانجليزى الرنان

كل شيء ينذر بالهزيمة والدمار . والأتراك الجمهوريون فى بيوتهم رابضون كأن على رءوسهم الطير ، الا البيت المشرف على أنقرة من عل حيث يجلس الرجل النحيل الضامر الوجه ، رجل غاليبولى الذى انتصر والدنيا بأسرها تقسم : لينهزمن ، رجل سقاريا الذى انتصر والعقل والمنطق وشواهد الحال تدمدم : ليندحرن ، رجل الغاء السلطنة والخلافة الذى انتصر وتراث مئات السنين يسجل : لأعودن . .

هذا الرجل الحديد الجليد الآن يجلس وأمامه خريطة لتركيا عليها الأعلام الصغيرة ، فيشرع فى تثبيت الاعلام حول منطقة الثورة الكردية ، ثم يسوقها الى قلب الثورة من الشمال والغرب والجنوب ، فاذا فرغ من ذلك أشعل سيجارة وراح يدخن ، فقد اندحر الأكراد !

أى والله لقد اندحر الاكراد وكان القضاء عليهم مبرماً رهيباً :

الطائرات تصب عليهم من السماء دمارا ، والمدافع من فوهاتها ترسل حمما والبنادق ترسل ناراً ، والسيف يحز الرءوس ، والخناجر تبقر البطون ، وأربعون ألفاً من الجنود ألهبهم كمال بخطبة نارية يقفزون فى بلاد الكرد من رابية الى قمة ، ثم الى الوهاد ينحدرون ، والناس يقتلون ، والقرى يحرقون ، ومن الانجليز وعناصر الرجعية فى شخص الاكراد ينتقمون

وتشرق شمس ٢٨ يونيه سنة ١٩٢٥ على مشانق تتدلى فيها حبال تتأرجح بجثث خمسة وأربعين زعيما من زعماء الاكراد

وأخيراً . . ها هو زعيمهم الاكبر الشيخ سعيد يتقدم الى مشنقته مبتسما . فيضع الجنود تحت قدميه كيساً مملوءاً بالذهب الانجليزى ليتخذه كرسياً . فيصعد فوقه

بثبات عجيب ويلتفت الى رئيس محكمة الاستقلال ويقول : « لست أبغضك . ولكنا جميعاً ستقدم الحساب يوم الحساب »

ثم يقول لقائد الجيش التركي الذى دحره : « تقدم أيها الجنرال وقل السلام على عدوك الاكبر . . » فيسأله القائد : « ومن هو عدوى وعدو تركيا الاكبر ؟ » فيبتسم الشيخ سعيد ويقول : « انجلترا . . »

وتكون هذه الكلمة آخر كلماته إذ يسحب الجلاد من تحته كيس الذهب الانجليزى فيهوى به الحبل ، فيموت

ويرفع الذئب النحيل الضامر الوجه ، الجاثم فوق أنقرة خريطة تركيا من أمامه ، ويقبع فى مربضه حديداً جليداً . الا من بريق عينيه . بريق غاليبولى وسقاريا . . .

* **

الآن هو منتصر . والآن الحديد منصهر . فليضربه وليشكل منه ما شاء من النماذج ، وليطهر جو الجمهورية من أدران الرجعية

الآن نراه خطيباً على منبر المجلس الوطنى الكبير . ونرى الاتهام تلو الاتهام ينحدر من بين شفتيه ، ونسمع منه فى الوطنية والقومية كلاما هو كالسحر . يهتف له النواب طويلا ويصفقون . ثم يمنحونه على البلاد سلطة دكتاتورية

ورئيس الجمهورية الدكتاتور سريع فى قراراته وحاسم . فهو يقرر :

أن رءوفا عدو لدود للجمهورية منذ مهد للحركة الرجعية بحزبه الجديد

وإن كاظم قره بكير وعلى فؤاد ورأفت وجواد متمردون رجعيون ، وان كل من يمت الى حزب الترقى الجمهورى بصلة رجعى دساس

وان جرائد استامبول المعارضة شوكة فى ظهر الجمهورية

كل هذا يجب أن يزول . . يزول هكذا بسرعة كما زال الأكراد . .

محاكم الاستقلال فى كل مكان تطهر المدن والقرى من الرجعيين ، والصحف تكمم افواهها ، ومصطفى كمال يطوق أعداءه بطوق حديدى لا يفر منه الا رءوف وعدنان وخالدة أديب . والفرصة الذهبية تتاح له إذ تدبر فى أزمير مؤامرة لاغتياله ، ويقبض على نفر من المعارضين ويعثر على قنابل كانت ستلق عليه من أحد المنازل وهو سائر فى الطريق . وتضبط مراسلات تثبت اشتراك زعماء المعارضة فى المؤامرة أو تواطؤهم

مع المتآمرين . فتنعقد فى أزمير وأنقرة محكتان من محاكم الاستقلال يساق اليها المتآمرون تباعا

وفى منزله المشرف على أنقرة يجلس الذئب ريثما تتم محاكمة أزمير ويحكم على المتآمرين بالاعدام ، فيوقع بامضائه على وثيقة الموت ، ولا يبدو عليه ظل من التأثر إذ يقرر إعدام صديقه القديم « عارف » . . أجل عارف الذى كان أصدق أصدقائه وأخلص أصفيائه ، عارف الذى انقلب متآمراً وانضم إلى الرجعيين عقب الغاء السلطنة والخلافة ، عارف الذى أتاح له كمال فرصة الدفاع عن نفسه فى جلسة سرية فانبرى يقول : « أجل لقد حاولت قتلك . . ولو كان معى مسدس الآن لقتلتك ! ! »

وبعد أيام يجيئه الرسول بوثيقة اعدام الفوج الثاني من المتآمرين ، الفوج الذى يتألف من زعماء المعارضة وفى طليعتهم جاويد بك وزير مالية تركيا سابقا ، ومدبر مؤامرات الرجعيين من وراء ستار . لقد حوكموا فى أنقرة وثبتت إدانتهم — والادانة لا يشترط أن تكون الاشتراك فى تدبير المؤامرة ، بل يكفى كونهم أعداء للجمهورية ساعين فى بعث عهد السلطنة والخلافة — فيفرج كمال عن قواد الجيش الأربعة ، ويوقع على وثيقة إعدام الآخرين

وهناك خارج أنقرة ، والظلام مرخ سدوله إلا من بعض المصابيح الضئيلة ، تتأرجح جثث زعماء المعارضة تحت المشانق . .

كل واحد من هؤلاء كان صخرة معارضة قائمة بذاتها . وها هم الآن يصمتون صمتاً أبدياً . .

كل واحد منهم ألقى كلمات رهيبة قبل أن يموت . إلا جاويد فقد ألقى آخر نكاته على كرسى الاعدام إذ قال لجلاده : « معذرة إذا كنت لا أجيد الموت شنقاً فانى — وايم الله — لم أجرب هذه الميتة من قبل ! ! »

تركيا . ولا شيء إلا تركيا

الآن استقلت تركيا ، وألغيت السلطنة والخلافة ، وأعلنت الجمهورية ، وعلق الرجعيون فى حبال المشانق أو شردوا فى أقصى الأرض

الآن زالت تتوء العهد القديم . فهل يزول العهد القديم كله ؟

مصطفى كمال فى أحرج ساعات حياته : فقد ألغى وشنق وشرد ، وبقى أن يزيل من تراث القرون الغابرة وهاداً بأكملها ان كانت نتوؤها قد زالت فهى بعد باقية

وإزالة هذا التراث تكاد تكون فى حكم المستحيل، لجذوره متأصلة فى أعماق النفوس

بيد أن كمالا رجل غاليبولى وسقاريا والجمهورية لا يعرف المستحيل . لا لأنه كنابليون يتحدى الأرض والسماء ثم تصرعه إرادة الأرض والسماء ، بل لأنه رجل أرقام ، رجل حقائق ، رجل دنيا لايمشى وأنفه فى السماء بل يخطو كل خطوة ونظره مصوب الى الأرض ، وهو الآن اذ يتحدى المستحيل لا يتصور أنه يتحدى مستحيلا بل يرى ويقيس كل شبر من الارض يؤدى الى هذا المستحيل ، ويفكر طويلا فى كيف يجتاز هذا البحر ، ويعبر ذلك المحيط ، ويتسلق تلك القمة الشاهقة ، ويتغلب على ذياك الطريق الشائك ، حتى يصل الى غايته ، فيرى أن ليس ثمة مستحيل ، ويعجب كيف يسمى الناس هذا « البسيط الممهد » « مستحيلا » . .

مصطفى كمال جالس فى منزله المشرف على أنقرة وفى صفحة ذهنه (خريطة) جغرافية سياسية اقتصادية اجتماعية للعالم أجمع . وانه ليخيل الىّ أن فى يده أعلاما صغيرة يثبتها فى هذه الخريطة حيثما أراد الاستقرار ، كما كان يفعل فى غاليبولى وسقاريا وثورة الكرد تماما . .

انى أراه الآن وقد وضع أعلامه الصغيرة حول رقعة من الأرض اسمها الجديد « تركيا » . ثم أراه وقد وجه أعلام هجومه شطر الشرق . وفتح من الناحية الغربية باباً يتيح للمدنية الغربية أن تصب فى بلاده ، وأرى فى يده مفتاح هذا الباب يفتحه به ويغلقه كما يشاء ويشاء التيار الغربى

وانى لأسمعه يتمتم : « يجب أن تنقل شجرة المدنية الغربية الى بلادنا . ويجب ــ لتعيش هذه الشجرة ــ أن تنقل البيئة التى عاشت فيها من قبل . ثم يجب ــ لتترعرع هذه الشجرة فى مهدها الجديد ــ أن نعودها شيئاً فشيئاً على احتمال جونا وتربتنا التى حملناها معنا من قلب آسيا . وهذا كله معناه فصم علائقنا بالشرق ــ تلك العلائق التى ورثناها عن السلطنة والخلافة ــ فصما أبدياً »

والآن أرجو من قرائى الشرقيين أن يتيحوا لى فرصة الدفاع عن تلك الثورة الاجتماعية الكبرى ، وأن يتجردوا ــ عند قراءتهم هذا الفصل ــ من كل ما سمعوه وتأثروا به من أحوال تركيا الجديدة :

الأتراك جاءوا من أواسط آسيا ، وكانت لهم هناك فى مهدهم الأول مدنية قوامها عالم الخيام حيث لا مستقر الا للمكان المعشب ، ولا صناعة الا صناعة الحرب . ولا تجارة إلا فى عالم الأنعام وما اليها من نتاج عالم الخيام ، ولا ملوكية ولا سلطنة بل زعامة بدوية . فلما بلغ سلاطينهم ما بلغوا من مجد وفتوح كان أكثر من نصفها فى الشرق ، واعتنق أولئك السلاطين مدنية الاسلام والشرق الاسلامى ، لم تتغلغل تلك المدنية فى صميم أهل الأناضول، بل ظلت قشرة على مدنيتهم وحسب ، والآن وقد نبذوا سلاطينهم وخلفاءهم ، أفلا يحق لهم أن ينبذوا المدنية التى فرضت عليهم فرضا ، المدنية التى لم يعتنقوها قط بل اعتنقوا منها بعض القشور ؟

وثمة مسألة ثانية : فالاسلام شىء والمدنية الدنيوية شىء آخر . الاسلام دين الله ، والمدنية الدنيوية جلها من صنع البشر . وهذه المدنية الدنيوية لا تمت الى الاسلام فى كل أصولها ، بل انها لها أصولا فارسية ويونانية ورومانية وهندية . ومن الخطل الخلط بين الاسلام وما نسميه « مدنية الاسلام » . ومن الخطل أيضا ربط الاسلام بمدنية الاسلام ، فالدين واحد لا يتغير ولا يتطور ، والمدنية يجب أن تتغير وتتطور . والحمد لله الذى جعل ديننا صالحا — بحدوده وأركانه الخمسة — لكل عصر من العصور ، ولكل مدنية من المدنيات . فلماذا اذاً نطالب التركى بالمحافظة على مدنيتنا الشرقية ، ولا نطالبه هو بخلق مدنية جديدة مادام راغباً فى ذلك ؟

وثمة مسألة ثالثة : هى « حمل لواء الاسلام » . هذا اللواء كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من حمله . ثم حمله بعده الخلفاء الراشدون . ثم خلفاء بنى أمية . ثم خلفاء بنى العباس والفاطميون . ثم حمل فى المغرب ، وفى الأندلس ، وفى مصر بعد أن حمل فى الجزيرة العربية والشام والعراق . فلما جاء دور الاتراك فى التاريخ الاسلامى حملوه بدورهم وناضلوا عنه طوال ستة قرون ، حتى آذنت قوتهم بالزوال ، ثم اندثرت تماما عقب الحرب العظمى والاحتلال الأجنبى . فلما قامت الثورة الوطنية وطرد الاتراك العدو من بلادهم لم يكن معنى هذا الطرد أنهم استعادوا مجدهم القديم ، بل معناه أن أمة مستعبدة نالت حريتها ، وليس ثمة أكثر من ذلك . فلماذا نطالب هذه الدولة التى بعثت مما يشبه العدم ، وأوشكت أن تقف على قدميها ، بما كنا نطالب به السلطنة العثمانية القوية ؟ وكيف يتاح لها حمل لواء الاسلام وهى لا تكاد تقدر على حمل لوائها هى ؟

وثمة مسألة رابعة : هي « الدفاع عن الاسلام » . هذا الشعار لم يكن يحمله أحد قط عندما كان الاسلام عزيزاً بقوته ، بل كان أجدادنا القدماء يحملون شعاراً آخر مقدساً هو « الهجوم » . . هو « الاسلام أو الجزية » . فلما اضمحل الشعب الاسلامي ووقع ـ وا أسفاه ـ تحت نير الغرب ، ظهر شعار آخر هو « الدفاع عن الأمة » حتى تستقل وتقوى ليتاح لها « الهجوم » بالاسلام . والواقع الذي لا مراء فيه هو أن الدين ليس ضعيفا ، بل الدولة هي الضعيفة ، والأمة هي الضعيفة . فلكي نبعث الدين يجب أن تبعث الدولة والأمة . وهذا هو منطق مصطفى كمال إذ ينادي : « الوطن أولا . . الوطن قبل كل شيء »

وثمة مسألة خامسة : هي أن الشرق الاسلامي سام جداً في عقائده وأفكاره ، هابط جداً في حقيقة كيانه السياسي والاقتصادي ـ هذه حقيقة مرة ولكنها لا تقبل جدالا ـ ولذلك نرتقب دائما بحياة « الجامعة الاسلامية » و « الجامعة العربية » و « الشرق أصل الحضارة » و « الشرق الذي علم الغرب وسوف يعلمه » . فإذا تأملنا في حقيقتنا الراهنة رأينا أننا في الأرض ومثلنا العليا في السماء . ولست أسوق هذا القول لأقلل من قيمة مثلنا العليا ، ولكن لأقول إنه حسن أن ننشد الكمال ونتحدى الغرب بجامعة كبيرة ومدنية هي خير من مدنيته ، ولكن يجب علينا عندما نعول على ذلك أن نسلك الطريق من أوله . فنصلح من شأن أنفسنا ، ونربي أبناءنا وأحفادنا على تعشق الحرية والجهاد ، ومجاراة الغرب في سرعة تقدمه . ثم نكافح لننال استقلالنا ، ثم تعمل كل دولة مستقلة منا على المحافظة على استقلالها والاطمئنان إليه . فإذا ما بلغنا تلك المرحلة شرعنا نفكر في المثل العليا ، وكان تفكيرنا فيها في إبانه . ومما يؤسف له حقا أن نقول إن كمالا كان ـ وحده ـ أول من رسم لدولته تلك السياسة المنتظمة التي تقضي بسلوك طريق المثل الأعلى من أوله ـ مهما يكن في هذا السلوك من هبوط مؤقت بالمثل الأعلى إلى مستوى الأرض

وثمة مسألة سادسة : لماذا يظل الشرق روحانياً في دنياه ، مسالماً ينشد السلام ويتغنى بأنشودة السلام ، محقا يطلب الحق ولا شيء إلا الحق وكلمة الحق ، وهو في عالم مادي ، محارب ، مستعمر ، لا يعرف الحق إلا مع القوة ، ولا يعترف بكلمة الحق إلا إذا رفعتها فوهة المدفع ؟ ولماذا أسمع منكراً من أكبر مفكري الشرق يقول في حديثه عن حرب الاستقلال التركية إنها أدت إلى خير النتائج ، ولكن ثمة شيئاً يشوه

من جمالها ، وهو سفك الدماء والتضحية بمئات الألوف من الأتراك ؟ !.

هذه العقلية لم تكن قط موجودة فى الشرق . ووجودها الآن جريمة كبيرة وعار يلحق بنا وبأبنائنا وأحفادنا . ومما يهون علينا أمرها أن الشرق بدأ يستيقظ من أثر هذا المخدر ، وبدأ يدرك أن الروح لا تقوى على المادة إلا إذا قاتلتها بمثل حديدها ، وأن السلام لا يعيش حيث تغطى أسنة الرماح آفاق العالم ، وأن الحق لا يسود إلا مع القوة

وثمة مسألة سابعة : هى أن الأتراك ظلوا طوال عهد السلطنة والخلافة لا يعرفون لهم وطناً ، فدينهم ووطنهم هو الاسلام . وحيثما كان التركي : فى مصر ، أو سوريا ، أو العراق ، أو الحجاز ، أو اليمن . . كان هنـاك وطنه . وحدود تركيا لم يكن لها وجود . والنفير إلى الحرب لم يكن : « قم ودافع عن وطنك » بل « قم لتدافع عن الاسلام » . وقد كان هذا حسناً عندما كانت القوة والدولة للسلطنة العثمانية . أما وقد خرج الشرق من الحرب العظمى بدول منفصل بعضها عن بعض ، ولـكل منها استقلال تنشده ، وحدود تطالب بها ، فمن العبث أن يظل التركي متخذاً « عالم الاسلام » وطناً له . ولهذا فصل مصطفى كمال تركيا عن « عالم الاسلام » كما فصلنا نحن أقطارنا عنه وجعلنا لـكل منها كيانا مستقلا

* * *

تلك روح الجمهورية التركية : جمهورية مصطفى كمال حللتها تحليلا عاجلا وأرجعت كل مظهر من مظاهرها الى سبب لا ينتقل بالقراء الى عالم جديد ، ودولة جديدة

إنه يفهم الاتراك

ماذا يرى مصطفى كمال بعد أن ألغى السلطنة والخلافة ، وأعلن الجمهورية ، وعلق المعارضين فى حبال المشانق وشردهم فى أقصى الأرض ، وقصم علائقه بالشرق الاسلامى وعول على استنبات المدنية الغربية فى بلاده ؟

إنه يرى على الرءوس الطربوش والقلبق والعمامة البيضاء أوالخضراء أو الحمراء والبدة الطويلة التى يلبسها الدراويش ، والطاقية ، والطرطور الذى يلبسه الاكراد . وكل واحد من هذه الأشياء يشير الى طائفة معينة ويثير فى النفوس التعصب والبغضاء

ويرى على الابدان الملابس الافرنجية ، والجبة والقفطان ، والشروال ، والجلباب ، والعباءة ، وكل هـذه الملابس ألوانها زاهية صارخة . وهى أيضاً تقسم الأتراك الى طبقات وشيع وتثير تعصباً وعداوة

ويرى فى الرءوس ثقافة غربية وأخرى شرقية ، وثالثة تتوسط بين هذا وذاك ، ورابعة هى الجهل بعينه !

ويرى حيثما استقر التعصب فى النفوس مذاهب ليست مما أمر به الله والرسول ، وطرقاً دينية حديثة على الاسلام : فهذا مولوى ، وذاك بكتاشى ، وأولئك نقشبنديون .. وهؤلاء لا أدرى ماذا مما أبدعته القرون الوسطى ومهد له الجهل والتأخر والجمود

ويرى لرجال الدين « دولة فى داخل الدولة » ، ويرى فيهم عـدداً عديداً ممن لا يمتون الى الدين بصلة الا فى لبس العمامة البيضاء أو الخضراء أو الحمراء

ويرى ــ كلما أقدم على ضرب من ضروب الاصلاح ــ حرباً شعواء يعلنها عليه رجال الدين وتعلنها تلك النماذج العديدة من أغطية الرءوس والابدان ولباس العقول ومستقر التعصب ، مع أن الاسلام دين الاصلاح ، دين التقدم ، دين سائر المدنيات

بل انه ليرى فى كل نموذج من تلك النماذج « أمة » مستقلة ويرى داخل الحدود التركية « أمما » متناحرة : فأهل استامبول والساحل الأوربى أمة ، وأهل الأناضول الى أنقرة أمة ، وأهل ساحل البحر الاسود أمة ، وأهل بلاد الـكرد أمة ، وأهل آطنه وما حولها أمة ، وأهل شرقى الأناضول أمة . . .

ومصطفى كمال يريد أن يسير فتقف صخور تلك النماذج فى سبيله صماء شماء

ويريد أن يصلح فتنقلب عليه وتعرقل سير اصلاحه

ويريد أن يستقر الشعب فتأبى هى إلا أن تثور فى كل مناسبة ولأتفه الأسباب !

* * *

« كلا . . هذه ليست تركيا التى أعرفها ، وانما هى تركيا فى ثياب السلطنة والخلافة والمدنية الشرقية الاسلامية . . »

تلك الـكلمة يقولها مصطفى كمال وهو جالس فى منزله المشرف على انقرة بعد أن جمع وطرح وضرب وثبت الأعلام الصغيرة هنا وهناك وهضم الموضوع كله هضما عسكريا منطقيا

« تركيا التى أعرفها لا تتعصب لشىء . الاتراك الذين دفعتهم الى خط النار فى

غاليبولى وسقاريا هم الاتراك الذين أقاموا ــ وما يزالون مقيمين ــ فى أواسط آسيا . إنهم كانوا هناك فى مراعيهم ووسط خيولهم وخيامهم يطيعون زعيم قبيلتهم طاعة عمياء . وإنهم الآن لم تتغير منهم الا القشور . وهذه القشور سأزيلها لأصبح فى نظرهم زعيم القبيلة الأكبر »

« وعندما أشرع فى ازالة هذه القشور والعود بأبناء وطنى الى طبيعتهم الأولى ، سيظهر دعاة التعصب والثورة حاملين ألوية الرجعية . . فأضرب عليهم بيد من حديد وأعوهم من عالم الوجود ، ثم أعود الى قومى لاصلح من شأنهم بالمنطق آنا وبالحديد والنار أحياناً ، حتى أمهد نتوءه وأوحد أزياءه وعقائده وثقافته وعقوله وأقضى على تلك « الدولة فى داخل الدولة » ، ثم أقذف به فى تيار الحياة الصاخب ليكافح وحده ويثبت للطبيعة أنه بالبقاء جدير »

حزب الشعب الجمهوري

وضع (زعيم القبيلة الأكبر) أساسه عندما عقد مؤتمر أرضروم وسيواس . وأكمل نصف بنيانه بالمجلس الوطنى الكبير . ثم أتمه عندما طاف بالمدن والقرى وأسسه وفق مبادىء جديدة تقوم على تعاليم الجمهورية

وهذا الحزب هو تجسيم مادى لفلسفة مصطفى كمال ودستوره فى الحياة . فقد وضع أول الأمر نقطة واحدة هى شخصه . ثم شرع يرسم حول هذه النقطة دائرة من المنطق والحديد والنار ، فنقل الحكم من يد السلطنة الى يد مؤتمر ارضروم وسيواس ، ثم الى المجلس الوطنى الكبير . ولما استقر الحكم فى هذا المجلس قطع الحبل الذى يربطه بالباب العالى فى استامبول بالغاء السلطنة ، ثم الخلافة . ولما خلصت له أمور الدولة أعلن الجمهورية . ولما قاومته المعارضة نبذ المجلس الوطنى وأسس حزب الشعب الجمهورى الذى شمل جميع أفراد الأمة ، وبذلك جعل حزبه هو الناخب ، وجعل المجلس الوطنى هو المنتخب . ولما كانت هيئة الوزارة تنتخب من المجلس الوطنى الكبير وكان المجلس ينتخب من حزب الشعب الجمهورى ، فقد أصبح هذا الحزب مشرفاً على هيئة الوزارة وعلى شئون الدولة

وهنا يتم مصطفى كمال رسم دائرته الجبارة فى أربع سنوات اذ يصل الى حيث

ابتدأ فى نقطة مؤتمر أرضروم سنة ١٩١٩ . فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديداً جليداً ، ثم يديرها من جديد ــ ولكن كما تدار الرحى ــ فيطحن نتوء العهد القديم ورءوس دعاة التأخر ويظل يطحن ويطحن حتى تعود الدائرة الى حيث ابتدأت فى أربع سنوات أخر . فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركزها كما كان وحيثما كان حديداً جليداً ، ثم يديرها من جديد ــ ولكن لتبنى هذه المرة ــ فيبنى ثم يبنى ، ويشيد ثم يشيد ، ويصلح ثم يصلح ، ويعلم ثم يعلم ، حتى تعود الدائرة الى حيث ابتدأت فى أربع سنوات أخر ، فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديداً جليداً . ولكنه لا يديرها فى هذه المرة بل يديرها عوضا عنه جهاز جبار صاغته يد كمال الداهية من تجارب اكتسبها طوال أيام كفاحه الرهيب ، وهذا الجهاز يسمى « الجمهورية التركية » ، وله من مصادر القوى ستة مصادر : هي الوطنية ، والشعبية ، والجمهورية ، والقومية ، والثورية ، والعلمانية

وتم الدورة الرابعة فى سنة ١٩٣٥ عقب الاحتفال بمرور عشر سنوات على الجمهورية التركية

وستتم الدورة الخامسة فى عام ١٩٣٩ . والسادسة فى عام ١٩٤٣ ، والسابعة فى عام ١٩٤٧ . والثامنة فى عام ١٩٥١ . والتاسعة فى عام ١٩٥٥ . والعاشرة فى عام ١٩٥٩ . وسيقضى كمال نحبه قبل هذا العام أو بعده . سيقضى نحبه وهو فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديدا جليدا . وسوف لا يقف الدوران بعد موته فالجهاز الجبار هو روح كمال الذى لا يموت

الزي الموحد

وحزب الشعب الآن فى دورته الثانية . والدائرة التى يجلس كمال فى مركزها تدور كما تدور الرحى ــ فتطحن النتوء والرءوس

وثمة قشرة من مخلفات العهد المنقرض على وشك الدخول فى دورة الرحى :

فالطربوش والعمامة والقلبق و « اللبدة » الطويلة والطاقية والطرطور ، والجبة والقفطان والشروال والجلباب والعباءة ، كل هذه النتوء توشك أن تزول

فأما الطربوش فلباس للرأس أخذه السلطان محمود الثانى عن اليونان فثار جنوده وشعبه عندما أرغمهم على اتخاذه لباساً لرءوسهم . فكيف يثور الأتراك لخلعه الآن وقد ثاروا من قبل عند إرغامهم على لبسه وزعموا أنه مظهر من مظاهر النصرانية ؟

وأما العمامة فأثر من آثار حاخامات اليهود . وقد أصبحت بعد ذلك شعاراً للعلماء والأئمة المسلمين . فلتبق كذلك . أما تلك العمائم التى يلبسها كل من هب ودب من الأدعياء والنصابين والمشعوذين باسم الدين فما شأنها ؟ تلك العمائم يجب أن تدخل تحت الرحى لتطحن . وأما عمائم العلماء والأئمة والمفتيين فتبقى شعاراً مقدساً تراه فتحكم بأن حامله شيخ جليل وإمام كبير . وهذا ما يرجوه رجال الدين أنفسهم

وأما القلبق فيذكرنا بعهود السلاطين وعهد الاتحاديين . فليطحن . .

وأما « اللبدة » الطويلة والطاقية والطرطور فأشكال مضحكة تدعو الى السخرية والزراية . فلتطحن . . .

وأما الجبة والقفطان فكر للعلماء والأئمة والمفتين . فاذا لبسها من لم يكن عالماً أو إماما أو مفتياً طحنته الرحى

وأما الشروال والجلباب والعباءة وما اليها فكاللبدة الطويلة والطاقية والطرطور أشكال مضحكة مزرية ، فلتطحن . .

مصطفى كمال يأمر بتوحيد الزى ، فالقبعة للرأس ، واللباس الافرنجى للبدن

ولكن لماذا يختار القبعة ولا يبتدع شكلا جديداً من أشكال أغطية الرءوس ؟

سؤال يجيب عنه هو قائلا : « ولماذا أبتدع الشكل الجديد ؟ أنا أحارب قشرة التعصب بالقبعة ، ولن يفل الحديد إلا الحديد »

ثم يسأل السائلين بدوره : « ولماذا لبستم أنتم اللباس الافرنجى منذ أكثر من نصف قرن واللباس الافرنجى من مظاهر النصرانية ؟ ولماذا تعترضون على القبعة وانتم أوربيون من الرقبة إلى أخمص القدم ؟ »

* * *

أول سبتمبر سنة ١٩٢٥

مصطفى كمال ألبس الجنود ورجال البوليس والبحرية القبعة فلبسوها طائعين

لزعيم القبيلة الأكبر . وهاهوذا الآن يزور قسطموني زيارة رسمية وقد لبس القبعة..

الموظفون يبادرون إلى لبس القبعة بدورهم كما لبسها زعيم القبيلة الأكبر .
والشعب يقف أمام هذا المنظر العجيب مدهوشاً

لابس القبعة مصطفى كمال يقف أمام الجماهير خطيباً ، ويقول :

— اللباس الدولى الذى تلبسه الشعوب المتمدنة يناسبنا تماما . سنلبس الجورب والحذاء والسروال والقميص والصدرية والحمالة ورباط الرقبة . وسنلبس فوق رءوسنا ما تسمونه «القبعة» . وسنلبس الردنجوت والجاكته والسموكنج والفراك . وإذا كان فيكم من يعارض فى ذلك قلت له فى وجهه أنت غبى وجاهل . .

« إننا إذا لبسنا ملابس تختلف عن ملابس الغرب ظللنا متأخرين ، لأننا سنظل فى نجوة عنه . انظروا الى العالم التركى والاسلامى : ألا ترون أن العلة فيما نقاسيه الآن هى أننا لم نشكل عقولنا وأرواحنا بما يناسب تطور العالم ؟ بلى . . إن هذا سبب تأخرنا وما حاق بنا من نكبات . ولولا أننا غيرنا عقليتنا فى المدة الأخيرة ما استطعنا أن نظفر باستقلالنا . .

« يجب ألا نقف حيث نحن الآن ، بل نسير ونتطور يوما عن يوم . .

« يجب على الأمة أن تدرك أن المدنية تملك من القوة ما تستطيع به أن تحرق وتدمر كل ما يقف فى سبيلها دون أن يجاريها ! »

وبعد قسطموني يذهب إلى اينيبولو ، ومنها إلى بروسه ثم إلى اسكيشهر ، ثم إلى قونية ، وفى كل مرحلة يمثل نفس الدور الذى رأيناه فى قسطموني

وفى إحدى هذه المراحل نراه وسط جمهور عظيم من الشعب فيه لابس القبعة ولابس العمامة ولابس الطربوش ولابس الطرطور الطويل . نراه كالساحر المريد يطوق الجميع بمغناطيسية نظراته النارية . ونسمعه يتحدث فلا نسمع من الجماهير إلا الشهيق والزفير ووجيب القلوب . ثم نراه يشير باصبعه إلى أحدهم ويقول : « صاحبنا هذا الواقف هناك . . ألا ترون الطربوش فوق رأسه ومن تحته شروال عجيب وصدرية صارخة الألوان؟ما هذا الخلط الذى إذا رآه أوربى سخر منا واتخذنا هدفا لنكاته ؟ ! »

فيضحك الناس . ويخجل صاحبنا من نفسه ومن زيه ، ونراه بعد بضع ساعات لابسا القبعة واللباس الافرنجى . .

ويعود لابس القبعة إلى انقرة فيجد القبعة على رءوس معظم مستقبليه فى المحطة ..
وبعد أيام يصدر مجلس الوزراء قراراً بفرض لبس القبعة على سائر الموظفين
ثم تصدر بلدية استامبول مثل هذا القرار لموظفيها
وتمر أيام وأسابيع نرى فيها القبعة على سائر الرءوس بعد رءوس الموظفين : فالطلبة ، والمحامون ، والأطباء والمهندسون والمدرسون ، والحمالون ، والفلاحون ، كل أولئك رحبوا بالقبعة ونبذوا الطربوش وسائر أغطية الرءوس

وعندما يحار الأتراك فى كيفية الصلاة بالقبعة يصدر مفتى استامبول فتوى تقول بأن خلع القبعة علامة من علامات الاحترام ، فلم لا تخلع أمام المولى سبحانه وتعالى وهو أولى بالاحترام والاجلال ؟ ثم يصدر عميد كلية العلوم الشرعية فى أنقرة منشوراً عاما يخير فيه المصلين بين خلع القبعة ولبسها فى أثناء الصلاة

وأما العمامة فتقتصر على المفتين والعلماء وائمة المساجد المعترف بهم من الحكومة . فأما المؤذنون وحراس المساجد وخدمها وخدام المقابر والاضرحة وغاسلو الموتى والدراويش فقد لبسوا القبعة

يبدو لنا من ذلك أن القبعة لم تفرض إلا على موظفى الحكومة . أما سائر أفراد الشعب فقد لبسوها راغبين فيها لا مرغمين بعد أن لبسها « زعيم القبيلة الأكبر »

وأخيراً يتقدم رفيق بك نائب قونية فى المجلس الوطنى مشروعا بقانون يقضى بفرض القبعة على الترك ـ بعد أن لبسها الاتراك جميعاً ، ومن لم يلبسها منهم سار حاسر الرأس ـ فيقف الجنرال نور الدين باشا أحد أبطال حرب الاستقلال فى ٢٦ نوفمبر ويعارض فى المشروع بشدة ، ويقدم للمجلس تقريراً مقتضاه أن قانون القبعة يخالف نص المادة ١٠٣ من الدستور التى تقول بوجوب احترام الحرية الشخصية . . .

وبعد مناقشات طويلة يوافق المجلس على القانون بأغلبية الآراء ، إلا رأى نور الدين باشا ورأى نائب يدعى احسان بك

وتمر أيام وأسابيع تصل فيها انباء معارضة نور الدين باشا لقانون القبعة إلى ولايات الأناضول الشرقية : سيواس وارضروم ومرعش وريزه . فتخرج حشرات الرجعية من أوكارها ، ويحمل بعض المتهوسين من الدراويش العلم الأخضر ـ علم النبوة فى زعمهم ، ألا ساء ما يزعمون ! ـ وينادون بسقوط حكومة انقرة الكافرة !
وتنقضى بضعة أسابيع تسفك فيها الدماء وينادى الدراويش بالثورة . .

وفى القرة ، فى المنزل المشرف على العاصمة من عل :
مصطفى كمال جالس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديدا جليدا
والرحى تدور . فتطحن التوء والرءوس . . !

الويل للدراويش !

كتلة متحركة من القذارة والجراثيم والأوبئة تسير فى أسمال بالية تتألف من مئات الرقع وتلبس عمامة خضراء : هاك أحد الدراويش . .

وكتلة ثانية من القذارة والجراثيم والأوبئة تسير نصف عارية ، وتصدر عنها أصوات حيوانية لا معنى لها تنطلق خلال المخاط واللعاب السيال : وهذا درويش متصل بالملكوت الأعلى ! . . .

وكتلة ثالثة من الشحم واللحم والشعر الغزير الفاحم ، تراها فترى الغباء مجسماً والشهوة جامحة متمردة ، وتراها الجدران الأربعة فى عالم خسيس من الاثم والفجور والحيوانية الوضيعة : وهذا درويش من طائفة المولويين أو البكتاشيين . .

وكتلة رابعة من الجهل والغباء والتعصب تجلس على مثل عرش الملوك وتبيع وتشترى فى سوق الذمم والأعراض وتتصرف فى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ولا يحلو لها الصيد الا فى الماء العكر ولا الحركة إلا فى الظلام : تتسلط على عقول البسطاء السذج بورق وحبر وطلاسم لا معنى لها تسمى « أحجبة » ، وسيوف خشبية خضراء تسمى « سيوف الاسلام » ، وأعلام خضراء كتب فوقها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تسمى « أعلام النبى » ، وهذه الأعلام لا ترفع إلا عندما يقوم الخائنون بحركة رجعية ، أو ينثر جواسيس الأعداء الذهب ذات اليمين وذات الشمال : وهذا هو شيخ الدراويش . .

وإنك لتسير فى أجمل بقاع تركيا ، فترى قصراً شامخاً تحيط به حدائق غناء وكروم تمتد الى مدى البصر ، فتصعد اليه فتراه محاطاً بالأسوار محكم الرتاج كأنه قلعة من قلاع القرون الوسطى ، فاذا أتيح لك الدخول اليه رأيت عالما بغيضا من الأباحية تفصله الأسوار الضخمة عن عالم الحدود والشرائع والأخلاق :

فهذا الكرم تعصر منه الخمر المعتقة التى يشربها ساداتنا الدراويش ــ الخمر الالهية

التى لا تتاح للانسانية أسباب الملكوت الأعلى إلا بها . .

وتلك الكؤوس الفضية والذهبية فى تمالاتها سر الوجود . .

وهذه النار التى يقفون أمامها صامتين خاشعين ما هى إن لم تكن من آثار الوثنية الفارسية ؟ !

وأولئك الغلمان المرد الحسان ما شأنهم فى تكية الدراويش ؟

والنساء ما شأنهن فى هذا العالم الاباحى ووسط تلك الكتل الشحمية اللحمية الشهوانية ؟

وهل يصلى هؤلاء الدراويش ؟

وهل يصومون ؟

وهل يزكون ؟

وهل يحجون ؟

وذكر الله ما علاقته بالرقص على هتفات الناى ونقرات الدف والقانون ؟

وهذا الدرويش الذى يدور على رجله « كالمكوك » : ما خطبه ؟

والله سبحانه وتعالى ، هل يرضى عن ذكر أولئك الراقصين العابثين ؟

وتلك الألوف المؤلفة من الدراويش : ما فائدتها ؟ وما رسالتها فى الحياة ؟ وما علاقتها بالاسلام ؟ وكيف ظلت قائمة طوال تلك القرون الستة ؟ وكيف احتكرت أجمل بقاع تركيا وأجودها ثماراً وأخصبها أرضاً ؟

وانك لترى للدراويش أسماء لا عداد لها : فهذا رفاعى وذاك قدرى ، والثالث نقشبندى ، والرابع خلوتى ، والخامس سعدى ، والسادس مولوى ، والسابع بكتاشى . .

ولكل من هؤلاء تكايا ، وأوقاف ، وأموال مدخرة ، وحقول واسعة ، ومشايخ ، وأتباع ، وأنصار ، وخدم ، وعاسيب . .

وكل واحد من هؤلاء لا يؤدى فرائض الدين إلا لماما ، ويرتكب المحرمات دواماً وله كل الحقوق ، وليس عليه شىء من الواجبات ، وكل عمله فى الحياة ألا يعمل ، ورسالته هى نشر الخرافات فى دنيا القرن العشرين ، ومد اليد الشريفة للبركة والتقبيل

هؤلاء الدراويش كانوا خير عون لوحيد الدين وخفاشه الأسود عندما أصدرا منشورهما اللعين الذى أباحا فيه دم كمال وأتباعه ، فقد راحوا يذيعونه فى طول البلاد

وعرضها وكأنهم ينشرون دين الله ـ قاتلهم الله !

ومن أتباع هؤلاء الدراويش تألف « الجيش الأخضر » الذى رأيناه فى أول حرب الاستقلال

وفى هذه التكايا ـ أوكار الرجعية وأعشاش المؤامرات والخيانة ـ حيكت خيوط من الدسائس والمؤامرات ذاق الوطنيون منها الأمرين

وبضعة رجال من شيوخ أولئك الدراويش تفحهم الشيخ سعيد ببعض ما جاد به عليه الانجليز خرجوا من تكاياهم يحملون « علم النبوة الأخضر » وينادون بسقوط الكفرة الملاحدة

وهؤلاء هم الذين قاموا يناهضون قانون القبعة والزى الافرنجى . . .

* * *

الآن يجلس الرجل الحديد الجليد فى مركز الدائرة التى تدور كما تدور الرحى وبعد أيام تطحن التكايا وما حوته من كسل وغباء وشحم ولحم وشهوة وخرافة ودس وخيانة !

ثم تسمع الرجل الحديد الجليد يقول : « اذهبى فى عداد الذاهبين ، فالجمهورية التركية لا تقوم على الخرافات والدجل والشعوذة ، ولكن على العلوم والفنون ، على المدنية الحديثة »

الدراويش يحاولون إثارة الرأى العام على الحكومة ، فلا يثور الرأى العام ، فقد عرف « زعيم القبيلة الأكبر » وآمن برسالته

فاطمة ترقص !

رآها « زعيم القبيلة الأكبر » فى مراعى آسيا تهم من النجاد الى الوهاد وتنجد من الوهاد إلى النجاد ، وتركب الخيل وتقطع ثدييها إذا ما بلغت سن اليأس وانقطع عنها المحيض لتشعر وهى فى ميادين القتال بأنها « رجل » . رآها فى البيت سيدة مطاعة تأمر وتنهى وتتحكم فى شئون الرجل والطفل . ورأى لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما للرجل وما عليه

ثم رآها في حرب الاستقلال الى جنب الرجل تحمل له المؤونة والذخيرة ، وتضمد

جراحه وتقوم بأعمال الحرث والغرس والحصاد فى غيابه عن القرية : بل انه رآها محاربة ، تحمل البندقية والسيف والحربة والخنجر ، وتفتك باليونانيين برءوس الزجاج المحطم ، وتبلغ فى الجيش رتبة البكباشية

لم يدعها أحد الى التطوع قط ، فقد ازالت معالم الحرب غشاوة كانت ترين على حياتها ، فانطلقت « فاطمة » بنت مراعى آسيا وربيبة الخيول والهجرة والكفاح تستعيد ماضيها العتيد وتلتف حول راية الزعيم كمال كما التفت جداتها حول راية الزعيم ارطغرول

فكيف يزعمون أن فاطمة كانت فى عالم الحريم اسيرة ذليلة مكسورة الجناح ؟ إنها لم تدخل عالم الحريم قط ، وإنما دخلته الجوارى الشركسيات واليونانيات وكل من اشتراهن الخليفة وحاشيته بالمال

وكيف يقولون إنها كانت محجبة ثم أمعنت فى السفور بمجرد اعلان الجمهورية ؟ إنها لم تعرف الحجاب قط منذ انحدرت من مرتفعات آسيا الى الأناضول

ولماذا يعجبون اذا منحت الحرية المطلقة ونالت حق الانتخاب قبل أن تناله معظم نساء أوربا . وساهمت فى الوظائف والاعمال التى كانت حكرا للرجل ؟ إنها كانت تتمتع بكل هذه الحقوق فى نجاد آسيا ووهادها . وكل ما جد فى الأمر هو أن زعيم القبيلة كمال تذكر هذه الحقوق فتشبه بالزعيم ارطغرول ولم يقف حجر عثرة فى سبيل فاطمة

كل ما يخيل للناس أنه جديد فى حياة فاطمة قديم موغل فى القدم . ولعل الشىء الوحيد الذى يتخذ طابع الجدة هو أن الدائرة تدور كما تدور الرحى فتطحن من قشور العهد البائد ما يحول دون ظهور اللباب التركى الأصيل

الرحى تطحن الحجاب الذى يستر وجوه أقلية الفواطم ، وتطحن من تقاليد الحجاب مالم تألفه فاطمة بنت مراعى آسيا ، ومن عالم الحريم ما يندى له جبين الانسانية خجلا ، ومن جمود العهد البائد ما يعطل نصف الجسم التركى ويشل حركته ، حتى إذا ما تمت عملية الطحن برزت فاطمة الى ميدان العمل ، واحتلت فى حياة الترك مكانها القديم ولبست القبعة اسوة بالزعيم

وكمال زعيم القبيلة الأكبر رجل عول على هدم صروح العهد البائد والقضاء على مخلفاته فى الحياة التركية الاجتماعية فهدم وقضى على سائر المخلفات . ثم رأى ان يمن

فى الثورة الاجتماعية الكبرى ويقفز بها قفزات جنونية تدفعها الى الامام ، حتى اذا ما هدأت ثائرة النفوس عادت القهقرى قليلا واستقرت فى الوسط ، وظلت كذلك أبد الآبدين

لذلك نراه يدفع بفاطمة الى عالم الرقص الجنونى ـ فترقص فطمة ما شاءت وشاء لها الزعيم أن ترقص ، وتخاصر الرجل على نغمات « التانجو » و « الفوكس تروت » كما خاصرته على نقرات الطبل وهتفات الناى والمزمار من قبل ، والك ترى عدداً من الفواطم يترددن فى مخاصرة الضباط الترك فى حفلة راقصة أقامها الزعيم فى منزله المشرف على انقرة ، فيدنو منهن الزعيم ويخاطب الضباط على مسمع منهن بصوت يتهدج من فرط الغضب : « هذا أمر عسكرى وليس مجرد لهو أو دعابة . تفرقوا فى صالة الرقص وخاصروا من شئتم من النساء . . هيا . . الى الأمام . . مارش ! »

وسرعان ما تلبى بقية الفواطم أمر الزعيم . .

* * *

وبعد بضع سنوات :

الثورة الاجتماعية التركية قفزت إلى الأمام قفزات جنونية . ثم تراجعت إلى الوراء قليلا فاستقرت حيث شاء الزعيم ، وحيث تتخذ فاطمة فى تركيا الجديدة مكان جدتها القديم فى الخيام المتطايرة فوق مراعى آسيا

* * *

وبعد احتلال فاطمة مكانها القديم :

« القتال أولا . وبعد أن تضع الحرب أوزارها مارسوا فى عالم السلم حياة السلم : فالبسوا جيداً ، وكلوا جيداً ، وثقفوا عقولكم ثقافة حرة ، ومارسوا من الاعمال أدومها واذهبوا فى أوقات الفراغ الى المتاحف ودور السينما والتمثيل والمراقص ، واطربوا ما شاء لكم الطرب »

تلك رسالة الزعيم كمال ورسالة الجمهورية

القتال أولا . ثم العمل الحر ، والثقافة الحرة ، واللهو البرىء الحر

وكل شىء الآن على نقيض ما كان فى العهد البائد :

ففى عهد السلطنة والخلافة لم يكن ثمة من الفنون أو النشاط الفنى إلا أقله . وهذا القليل كان حكراً لخليفة المسلمين وقصور خليفة المسلمين وباشوات خليفة المسلمين

أما الآن فهذه القصور تصبح متاحف عامة أدخلها أنا وتدخلها أنت ويدخلها فلاح الأناضول ليغذى عقله وروحه بما أبدع الفنان من روائع الآيات الفنية

والرحى تطحن من قيود العهد البائد ما كان يشل الحركة الفنية . فإذا مافرغت من طحنها رأينا عالماً جديدا فيه فن حر وثقافة فنية حرة : فالتماثيل تقام فى استامبول وانقرة وغيرهما من كبريات العواصم . واللوحات الفنية تراها فى كل مكان . والسينما يمارسها الاتراك ويتذوقونها . والتمثيل يبعث من جديد . وفاطمة تظهر على الشاشة البيضاء وعلى خشبة المسرح . والاناشيد الوطنية تلحن . وقيود الفن الشرقي يتخطاها التركى الذى لا يعرف التعصب . وثمة أشعة من الفن الغربى تشرق على الفن التركى فتتألف من الفنين ذات فنية مستقلة رائعة فى جمالها ، رائعة فيما توقظه فيك من الروح الفنى الوثاب

الذئب أمام السبورة

الزعيم يقول إن الحروف العربية ليست من تراث القبيلة التركية . ثم انها مظهر من مظاهر العهد البائد : عهد الثقافة العربية والمدنية الاسلامية . وهى فوق ذلك ــ غل من الأغلال التى طالما قيدت الترك وملأت عقولهم بما ليس تركياً

وكمال يعرف أن أفراد قبيلته لا يتعصبون لشىء إذا فرض عليهم زعيمهم نقيضه ، فهو لذلك لا يتردد فى التصريح برغبته فى محو الحروف العربية واستبدالها بحروف لاتينية

ثم ان الحروف العربية ــ بعد ــ صعبة معقدة . وقراءتها قراءة صحيحة تستلزم الاحاطة بقواعد اللغة احاطة لا تتاح لكل متعلم . ولعلها فى اللغة العربية أسهل منها فى اللغة التركية حيث تستحيل القراءة والكتابة بها قبل ثلاث سنوات على اقل تقدير

وهناك حروف عربية كانت تستعمل فى لغة الاتراك استعمالات عجيبة : فحرف الكاف مثلا ينطق (كافا) إذا كتب بدون ملحقات ، وينطق (نونا) إذا وضعت فوقه نقط ثلاث وينطق (كافا) معطشة إذا وضعت فوقه شرطتان . .

وعند جمع الحروف فى الطباعة تجد حرف (الفاء) مثلا يكتب (ف) فى أول الكلام ، (ف) فى وسط الكلام ، و (ف) فى آخر الكلام . .

فلماذا تتحمل القبيلة التركية كل هذا التعقيد من حروف ليست من تراث آبائهم الاولين فى مراعى آسيا ؟

ثم ان معظم الشعوب التركية الاسيوية نبذت الحروف العربية منذ أعوام واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، فلماذا لاتسكون تركيا مثلها ؟ ولماذا لا تمهد تركيا ـ باتخاذ الحروف اللاتينية ـ لذيوع الثقافة التركية وامتدادها من مياه الدردنيل الى مياه المحيط الهادى :

« زعيم القبيلة الأكبر » يقلب الأمر على وجوهه أمام أفراد قبيلته فيرون معه أن الغنم فى الحروف الجديدة ، وأن الغرم كله كان فى الحروف القديمة

وهو يجلس فى منزله المشرف على انقرة وأمامه مائدة عليها كتب وتقارير كتبها نفر من الاخصائيين فى شئون الحروف الجديدة ، فيدرسها ويغير فيها ويبدل كما كان يفعل وهو جالس إلى خريطة تركيا الكبيرة وقد تراشقت فوقها الأعلام الصغيرة

ويظل فى عزلته هذه أياما يعد فيها خطة الهجوم ، ثم يظهر بغتة ، ويسافر الى استامبول فى صيف سنة ١٩٢٨ ـ لأول مرة بعد أن غادرها هو ورأفت عقب الاحتلال المشئوم . .

وفى استامبول يحيي الاتراك زعيمهم أروع تحية . ويستقبلونه بمواكب تاريخية تتضاءل أمامها مواكب رأفت التى شهدناها من قبل . ويجتمع سكان العاصمة حول كمال الذى انقذ الوطن ورفعه الى مصاف الدول الكبرى هاتفين مهللين ، فيمر خلال هذه المواكب وتحت أقواس النصر باسماً مسلماً على الناس سعيداً بما قدمت يداه

* * *

قصر « ضولمه باغجه » الجليل . مثوى سلاطين آل عثمان

القاعة الكبرى لا تزال كما كانت فى عهد عبد المجيد . وذئب انقرة واقف أمام الناس كما وقف عبد المجيد ووحيد الدين ورشاد وعبد الحميد من قبل

وأمام الذئب سبورة سوداء ، وطباشير ، وطلاسة . .

والقاعة تزخر بمئات من المدعوين . فيهم الشاعر والأديب والعالم والصحافى والنائب والتاجر والصانع والزارع والمعلم والطبيب والمحامى والقاضى . .

الجميع صامتون كأن على رءوسهم الطير فى انتظار أوامر الزعيم

وسرعان ما يتكلم الزعيم . فيعلن فى خطبة وجيزة نبذ الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية ، ثم يقف أمام السبورة ويشرع فى كتابة الحروف الجديدة بخط

واضح جميل ، وينطق بكل حرف عقب كتابته بصوت جهوري رنان

وبعد بضع دقائق يتم «درسه» الأول ، ويشرع فى تطبيقه على الحاضرين ، فيدعو أناساً منهم حيثما اتفق ، ويطلب منهم كتابة اسمائهم بالحروف الجديدة ، فيكتبونها بسرعة !

عجباً . . ان هذا الدرس كان يستغرق أياما فى عهد الحروف العربية . . والحاضرون يبعث فيهم الزعيم من روحه فيتحمسون للحروف اللاتينية ، ويصفقون ويهتفون . .

وفى الايام التالية :

الزعيم فى كل مكان فى العاصمة . فهو فى القصر يعلم الناس . وهو فى الطريق يعلم الناس ، وهو فى المساجد والقهوات ودور اللهو وصالات الرقص يعلم الناس

هوذا يمر فى طريقه بجماعة من الحمالين أو العمال ، فيدعو أحدهم ويسأله :

— هل تعلمت الحروف الجديدة يا صاح ؟

فيجيبه الحمال أو العامل سلباً . .

فيخرج ورقة من جيبه وقلما رصاصا ويظل يعلمه الحروف اللاتينية حتى يجيدها فى بضع دقائق . .

هوذا يدخل احدى الصالات باسم الثغر وافر النشاط فلا يرقص مع الراقصين بل يصيح فى وسط الصالة :

— قفوا . . اكفاكم رقصاً . .

فيقف العزف ويجمد الراقصون فى أماكنهم . فيحمل اليهم سبورته السوداء وطباشيره ويلقى عليهم « درسه » المعهود ، فيتعلمون الحروف الجديدة ، ثم يعاودون الرقص من جديد !

ثم يزور منطقة « جناق قلعة » حيث دحر الانجليز ، ويرفع سبورته السوداء حيث نصب مدافعه من قبل ، ويظل يعلم الناس حتى يقرأوا ويكتبوا فى بضعة اسابيع .

وانك لتراه ثمة والابتسامة لا تكاد تغادر شفتيه ، فتنسى ذئب انقرة الى حين وتطبع فى صفحة ذهنك صورة « المعلم الأكبر »

أنه يبتسم .. ويضحك . . ويقهقه كلما رأى أحد الفلاحين يتعثر فى كتابة الحروف الجديدة . انه « يقفش » للناس « قفشات » ظريفة ، فيعجب الحاضرون ببديهته الحاضرة وروحه الخفيفة . وفى هذا « القفش » والضحك يساهم الناس ،ويتعلمون !

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٨ يخطب في المجلس الوطني الكبير فيحض الناس على تعلم الحروف اللاتينية ، ويقول إنها السبيل الوحيد إلى القفز في طريق الثقافة العصرية

ثم يصدر قانون الحروف الجديدة فتنقرض الحروف العربية . . وكل شيء يطبع بالحروف اللاتينية . والصحف تصدر بها . والناس بها يتراسلون . والموظفون الذين لا يجيدونها من وظائفهم يفصلون . والفلاح الفقير يتعلمها في يوم ، ويقرأ بها ويكتب في بضعة أيام !

وهي تصبح « مودة » العصر . والترك يتهافتون عليها في شوق إلى العلم ولهفة إلى الثقافة . وحتى الأجانب يتعلمونها ويدرسون بها اللغة التركية ليكتبوا بها عناوينهم وحساباتهم الجارية

كان أقل من ١٠ ٪ يقرأون ويكتبون في عهد الحروف القديمة . فأصبح أكثر من ٩٠ ٪ من الترك الآن يقرأون ويكتبون !

وكان الخاصة من الناس يتعلمون . فأصبح الناس كلهم يتعلمون الآن « بالجملة » . فقد دفعهم الزعيم الى المدارس « بالجملة »

دفعهم بأمر عسكري لبوه في حماس . فهل يلام أحد بعد ذلك إذ سماه « رئيس أركان حرب التعليم والثقافة » ؟ !

* * *

وبعد ذلك كل شيء يجب أن يكون تركيا :

فالكلمات العربية والفارسية المندسة في لغة الترك يجب أن تستبعد ، ولغة التركية يجب أن تعود إلى عهد القبيلة

والقرآن الكريم يترجم إلى التركية ليفهمه الناس

والأذان وخطب الجمعة تتلى بالتركية

والشركات الاجنبية يجب أن تكون تركية الصبغة ، وأن توظف الترك ، وأن تكتب حساباتها بلغة الترك ، وإلا فالطرد !

والمحامون والاطباء والمعلمون والمهندسون وكل ذي حرفة يجب أن يكون تركيا

والضرائب الفادحة تفرض على كل ما ليس تركيا من الكماليات والضروريات

والتقويم الجريجوري يحل محل العربي

والساعات العربية تحل محلها أختها الافرنجية

وفي يوم العطلة الرسمية يجب أن تغلق البنوك والشركات والمتاجر ، فاذا شاء الاجانب أن يحتفظوا بأيام أخرى لعطلتهم بعد ذلك فلهم ما يشاءون ، ولكن بعد احترام عطلة البلاد الرسمية !

والمدارس الأجنبية يجب أن تمحو معالم الدين المسيحي من براعمها . وأن توظف نسبة محسوسة من المدرسين الترك . وأن تعلم اللغة التركية كلغة أساسية ، والتاريخ والجغرافية التركية ومعظم المواد الدراسية باللغة التركية . .

وبعض المدارس تحاول التملص من يد الترك الحديدية ، فيصل نظارها اليها فى الصباح فيجدونها مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر ، فالزعيم جاد لا يهزل !

ولا تنقضى بضعة أشهر حتى تتبرم معظم المدارس الأجنبية باليد الحديدية ، فتشد الرحال إلى بلادها غير مأسوف عليها ، وسرعان ما تحتل المدارس التركية أماكنها

* * *

وبعد بضع سنوات :

كل شيء أصبح تركياً ، حتى الأسماء !

الزعيم يسمى الآن « كمال أتاتورك » *

ورئيس وزرائه يسمى « عصمت اينونو »

ووزير خارجيته يسمى « رشدى آراس »

وأفراد قبيلته يسمون « كولجاق » و « كورخان » وما أشبه من الأسماء التركية القديمة

والمرأة التركية تسمى « بايان فلانة » بدل « فلانة هانم »

والرجل يسمى « باى فلان » بدل « فلان افندى »

والألقاب كلها تلغى : فلا « باشا » ، ولا « بك » ولا « غازي » . . .

* * *

وتركيا الجديدة تقوم على أنقاض الماضى المنقرض فتية حية

وكل شيء فيها يتم بما يشبه المعجزات . ولا عجب فالزعيم يأمر ، والقبيلة تطيع !

---

* كان اسمه مصطفى . وأطلق عليه اسم « مصطفى كمال » أحد مدرسيه فى مدرسة سلانيك الحربية . أما الآن فقد اقتصر على كلمة كمال — ومعناها بالتركية « القلعة » وأضاف اليها لقب « أتاتورك » — وهي كلمة تركية معناها « أبو الأتراك »

وأنقرة ! القرية الحقيرة التي شرع كمال يؤسس فيها جمهوريته ، والتي كانت عبارة عن بعض أكواخ صغيرة ومنازل حجرية متفرقة يشرف عليها منزل الزعيم من علٍ ، والتي كانت تحيط بها المستنقعات وتسمم هواءها الأوبئة ، والتي تحيط بها المراعي . . . أنقرة هـذه أصبحت عاصمة عظيمة يحق للترك أن يفتخروا بمبانيها الضخمة وميادينها الجميلة وتماثيلها ومدارسها ومستشفياتها ومصارفها ودور وزاراتها ومعاهدها . . .

ولطالما نصح المهندسون والفنيون لـكمال بنبذ هـذه القرية الموبوءة لاستحالة تحويلها الى عاصمة كبيرة ، فلم يعبأ بهم كمال وأمر فردمت المستنقعات ، وأمر فطهر الجو من الجراثيم والأوبئة ، وأمر فزرعت الأشجار والحدائق ، وهنا أكد الزراعيون استحالة نمو هذه الاشجار ، ولـكنها نمت ــ وما زالت تنمو ــ وانك لترى أنقرة الآن تـكتنفها أشجار باسقة بديعة !

وفي أول الأمر رفض سفراء الدول الأجنبية أن ينتقلوا الى العاصمة الجديدة ، وألحوا في ضرورة البقـاء في استامبول ، فأبى الزعيم إلا أن يقيموا في العاصمة ، فجاءوها بعد تمرد واحتجاج ، وما زالوا فيها مقيمين . . .

القوانين الجديدة

ليس الانقلاب الذي أوجده الزعيم ثورة على القديم وحسب ، ولا هدماً وحسب ، بل هو خلق جديد وبناء

والزعيم يود أن تكون الرابطة التي تشمل الاتراك هي « القومية التركية » لا الجامعة الدينية أو المذهبـية

والآن وقد غير وبدل ، وهدم وبنى ، وجعل كل شيء تركياً ، بقي عليه أن يوحد القوانين بحيث تكون صورة مجسمة لحاجات العصر ومشاكله التي تتغير وتزداد تعقداً في كل يوم

والزعيم لا يؤمن ببقاء شيء واحد على حاله . ونظرته الى الحياة نظرة عملية حسابية . وهو لا يهاب التعرض لاقدس ما في الحياة بالتغيير والتبديل . لذلك نراه الآن متحفزاً لوثبة سوف تقلب قوانين البلاد رأساً على عقب ، ثم توحدها في شكل قانون واحد يجمع ما بين القوانين الاوربية وحاجات الترك

وللزعيم أنصار خارق ذكاؤهم حديدية ارادتهم . وهو الآن يأمرهم بالاستعداد للانقلاب المنتظر ، فيستعدون ، ثم يأمرهم باعداد القوانين الجديدة ، فيعدون قانونا مدنياً مقتبساً من القانون المدنى السويسرى ويطرحونه أمامه ، فيعدل فيه قليلا ويطرحه على المجلس الوطنى الكبير ، فيقبله المجلس فى ابريل سنة ١٩٢٦ . ثم يعدون قانونا جنائياً مقتبساً من القانون الجنائى الايطالى ، فيعيد اليه عقوبة الاعدام ويطرحه على المجلس ، فيقره فى أول يوليه سنة ١٩٢٦ . ثم يعدون قانونا تجاريا هو مزيج من القوانين التجارية الالمانية والفرنسية والايطالية ، فيوافق عليه المجلس فى ٤ اكتوبر سنة ١٩٢٦

وبذلك تصبح القوانين التركية خلاصة باهرة لاحسن القوانين العالمية ، وصورة حية للمدنية الاوربية ، مدنية القرن العشرين

بل إن القوانين التركية تصبح أوفى وأرقى من قانون أية دولة أخرى ، لانها خلاصة سائر القوانين ، ولان فيها من كل قانون أحسنه

وبذلك تزول الى الابد فوضى القوانين القديمة ، ويزول القانون الشرعى والمحاكم الشرعية ، ويزول شبح الامتيازات والمحاكم المختلطة والقنصلية والملية ، فالأجانب الذين كانوا يرفضون التقاضى أمام المحاكم التركية الشرعية ، أصبحوا الآن أمام محاكم قوانينها خير من قوانين بلادهم ، فكيف يرفضون التقاضى فيها ، وكيف يستهجنونها بعد الآن ؟

يعجبنى والله هذا الزعيم ! . .

فهو لم يشفق على القوانين القديمة ولم يعمد الى تعديلها أو ترميمها ، بل طحنها وأقام على انقاضها القوانين الأوربية . ولو أنه لم يفعل ذلك ما اطمأن الاجانب قط الى الغاء الامتيازات فى تركيا

ثم انه — وهو الهدام البانى — يضرب للاتراك مثلا جديدا فى وجوب التحرر من القديم النخر جملة ، واعتناق كل ما هو جديد صالح دون التفكير فى التعديل أو الترميم أو الترقيع . وهذا الروح الهدام البانى هو الذى أتاح لتركيا الجديدة هذا القفز الجبار فى عالم المدنية الحديثة

* * *

وفى سنة ١٩٢٧ نرى الزعيم على منبر الخطابة ستة أيام متوالية ألقى خلالها خطبة

واحدة ! وهذه الخطبة هي التاريخ المفصل للحركة الوطنية التركية

في هذه الخطبة نسمع الزعيم يتحدث عن مسألة الدين ، ونراه يصف حديثا جرى بينه وبين أحد الصحافيين في « ازميت » ، اذ يقول له الصحافي :

— ماذا سيكون دين الدولة الرسمي ؟

فيقول كمال :

— يوجد دين ياسيدى هو الدين الاسلامي

ثم يردف ذلك بقوله :

— والدين الاسلامي يضمن حرية الفكر . .

فيسأله الصحافي :

— هل يفهم من ذلك أن الحكومة ستدين بدين من الاديان ؟

فيجيبه كمال :

— لا أدرى هل ستدين أم لا تدين . .

ثم يخرج كمال من هذا الحديث الى مسألة الدين والدولة ، ويشير إلى مادتين في الدستور التركي تنص إحداهما ـ وهي المادة الثانية « على أن الاسلام هو الدين الرسمي للدولة التركية ، واللغة التركية هي لغتها الرسمية . وانقرة العاصمة هي مقرها » ، وتنص الأخرى ـ وهي المادة السادسة والعشرون ـ على أن « تنفيذ الأحكام الشرعية ، من واجبات المجلس الوطني الكبير

فيقول : « هاتان المادتان لا تتفقان مع شخصية الدولة التركية الحديثة وإدارتها الجمهورية العصرية ، ولم نر بأسا في بقائهما إذ ذاك . على أن الأمة يجب أن تقطع هذه الزوائد في أول فرصة مواتية ! »

ولا يكاد ينقضي عام واحد حتى تزول جملة « الاسلام هو الدين الرسمي للدولة التركية » من المادة الثانية ، وحتى ترفع جملة « تنفيذ الأحكام الشرعية » من المادة السادسة والعشرين !

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يقسم النواب « بشرفهم » بدل قولهم « والله » ، وكذلك يفعل رئيس الجمهورية في قسمه

أما الأوقاف الدينية فقد أصبحت « وقفا مليا » توزع الحكومة ريعه على الجمعيات الخيرية والبلديات والمستشفيات ، وكان من قبل يوزع على التكايا والدراويش الثقلين

المرتكبين الذين يرقصون على ضرب الدفوف ويدورون على أعقابهم كما يدور « المكوك » !

* * *

وإذا سألتني عن رأيي في هذا الانقلاب العظيم ، قلت لك إنه خير ما فعل كمال لزعيم ، فالحكومة العلمانية تقضى على آخر مظهر من مظاهر التعصب الديني التى كانت أوربا ترفع لواءه في وجه الاتراك كلما حاولوا النهوض والتقدم . وكلمة « علمانى » لا تؤدى معنى « لا دينى » ، بل تعنى أن الحكومة التركية لا تؤثر دينا من الاديان على غيره . أما الشعب التركى فله دينه الاسلامى ، وللأقليات أديانها الأخرى . والجميع يعيشون فى سلام ووئام تظله حكومة متسامحة . والمساجد والكنائس عامرة والحمد لله بالمصلين المتهجدين . وقد شهدت ذلك عندما كنت فى تركيا وايقنت أن تديننا نحن لا يكاد يذكر إلى جانب تدين الاتراك . وشهد بذلك كل من زاروا تركيا من أنصار الجمهورية وأعدائها

القلم والمهند

« أيها المعلمون !

« سيكون الجيل القادم أثراً من آثاركم الجليلة . وعلى قدر مهارتكم وتضحياتكم سيكون هذا الأثر . . ان الجمهورية تطلب رجالا قادرين هم خلاصة الانسانية فكراً وعلماً وجسما . . وهذا الذى تطلبه الجمهورية فى أيديكم . . ان المعلمين — والمعلمين وحسب — هم الذين ينهضون بالأمم . . فالى الامام . . الى الأمام . . ودائماً الى الامام . . . ! »

تلك كلمة الزعيم الذى سميناه من قبل « رئيس اركان حرب العلم والثقافة »

وعلى هذا النمط يسير التعليم فى تركيا بالجملة

والشباب التركى المتعلم يصبح صورة حية لتركيا الجديدة الوثابة ، وكثيراً ما كنت أقضى معه أياما متواليات أقلبه على وجوهه فلا أرى الا الذكاء والعلم والتأهب للحرب . فهو يحمل القلم فى شهور الدراسة ، والسيف والبندقية والمسدس والمدفع فى العطلة الصيفية

حدثني أحدهم ، قال :

« لا تكاد تنقضي أيام الدراسة حتى يصدر الينا الأمر بالتوجه الى المعسكر . فنذهب اليه حيث نلبس ثياب الجنود ونشرع فى التمرين على اطلاق الرصاص

« وحياتنا فى المعسكر حياة الجندي المتأهب للقتال . نقوم مع الشمس على هتفات البوري ، وينام فى الليل فريق منا ويحرس النائمين فريق . وفى كل يوم تلقى علينا محاضرات فى أصول الحرب الحديثة . فى الحرب البرية والبحرية ، والجوية . . فى البنادق ، والمسدسات، والمدافع ، والسيوف ، والخيول ، وعربات الحرب ، والتانكس ، والغازات السامة ، والغازات المحرقة . . .

« وفى ختام مدة التمرين يقف أحد كبار الضباط فينا خطيباً ويقول : انتم تسيرون الآن على أرض تعرفون أنها لتركيا ، أما نحن فلم نكن فى زماننا نعرف أنها للاتراك . وأنتم ترون الراية الحمراء ترفرف فوق قلاعكم ، أما نحن فكنا نرى رايات الاعداء فوق قلاعنا . تلك مفاخر تركيا الجمهورية ومفاخر الزعيم . . فاهتفوا معي : لتحيي الجمهورية ، وليحيي الزعيم ! »

أما الزعيم فقد قال لهم من قبل :

« يا شباب الترك !

« واجبك الأول الحرص الى الأبد على الاستقلال التركي والجمهورية التركية والدفاع عنهما

« هذا هو الأساس الوحيد لكيانك ومستقبلك . وهذا الأساس هو أنفس ذخر من ذخائرك . وقد تصطدم فى المستقبل بأصحاب الأغراض الدنيئة فى الداخل والخارج ممن يحاولون حرمانك من هذا الذخر ، فتضطرك الحالة فى يوم ما الى الدفاع عن الاستقلال والجمهورية . . فعليك ألا تفكر إذ ذاك فى الظروف المحيطة بك وهل هى مواتية أو غير مواتية . .

« وقد تبدو الظروف المحيطة بك فى مظهر لا يدعو الى الارتياح .. وقد يكون الأعداء الذين يحاولون المساس بجمهوريتك فى مظهر يدل على أن العالم أجمع قد تألب عليك لقهرك والقضاء عليك . . وقد تتطلع فيما حولك فترى أن قلاع وطنك العزيز قد سلبت ، وان العدو يحتل جميع موانئك ومرافئك ، وان الجيش قد تبدد وان الاحتلال العسكري قائم فى كل ركن من أركان البلاد . . وقد ترى فوق هذا

وذاك ماهو أدهى وأمر : قد ترى أن أصحاب النفوذ والشخصيات الكبيرة فى غفلة وضلال . . بل قد يترددون فى مهاوى الخيانة . . وقد تراهم يظاهرون العدو المحتل ويسهلون له مآربه السياسية ليسهل لهم بدوره مصالحهم الشخصية . . وقد تكون الأمة فى فقر وضنك منهوكة القوى قائمة فوق أنقاض الخراب . .

« أيها الشباب التركي . . يا ابن تركيا العتيد . . قد ترى كل ذلك ، فواجبك فى كل هذه الحالات أن تعمل على انقاذ بلادك واستخلاص استقلالها وجمهوريتها من مخالب الأعداء . ولا تبحثن عن القوة فهى كامنة فى دمائك الاصيلة التى تجرى فى عروقك ! »

* * *

ومن هذا الشباب يتألف الجيش التركى : جيش محمد الفاتح وسليمان القانونى وسليم ، جيش الامبراطورية العثمانية الذى دوخ العالم وكان يقاتل على أبواب فينا وفى قلب الروسيا وعلى حدود الهند وفى الحجاز واليمن . . الجيش الذى كان ينشده نابليون ليفتح به الدنيا بأسرها . . وأخيراً جيش كمال فى غاليبولى وسقاريا !

هذا الجيش أصبح الآن لتركيا ، وتركيا وحسب ، والشتات القديم أصبح مركزاً داخل حدود الترك الجديدة ، لذلك تراه قطعة واحدة تسور قبيلة كمال أتاتورك بسور من الفولاذ

وكمال داهية الحرب يعرف جيشه من ألفه الى يائه ، ويعرف جيوش العالم وما تحمله من سلاح وأدوات جهنمية ، فهو لذلك جهنمى فى استعداده للحرب ، جهنمى فى اشرافه على الجيش ، جهنمى فى كل ما يمس سلامة الوطن !

وكأنى أراه الآن فى الحرب المقبلة ـ لا قدر الله نشوبها ـ جاثماً فوق أرض بلاده وأمامه خريطتها وفوقها الاعلام الصغيرة . . كأنى أراه وهو يدير الحرب بأعصاب من حديد . . كأنى أراه يؤدى ضريبة الحرب الى عزرائيل دون كلام أو تردد . فأرى ذئب غاليبولى وسقاريا . . أراه كما كان وحينما كان حديداً جليداً . . .

هل أفلس الزعيم؟

وعلى حين غرة ، ودون سابق انذار ، تقف الدائرة وتثوب الدوامة الهوائية الكبرى الى سكون لا عهد لتركيا به منذ سنة ١٩١٩

ولا يكاد الناس يقدرون على الوقوف على أقدامهم من هول السكون المفاجيء ، بعد الانطلاق الطويل مع الدائرة التي كانت تدور ، وتدوى وهى تدور

ماذا حدث ؟

هل قضى « زعيم القبيلة الأكبر » نحبه ؟

كلا . انه مقيم فى حدائق « يالوفا » بالقرب من استامبول . وإنه سعيد بالمقام هناك حيث الهواء والماء والطبيعة الحسناء

اذاً ماذا جد فى الأمر ؟ هل تعطل الجهاز الجبار ذو الأذرع الست ؟

كلا . فالجهاز كان لا يزال دائراً الى ساعة قريبة . .

كنت فى تركيا إذ ذاك . وأشهد انى كنت أتساءل مع المتسائلين ، وأذهل مع الذاهلين ، حتى مرت أيام سمعنا فيها ما سمعنا من حدوث حدث طارىء . ففهمت السر فى هذا الوقوف المفاجيء :

« زعيم القبيلة الأكبر » كتلة من الحديد والجليد تركزت فيها خلاصة ما فى دم التركى من كفاح ودهاء . وهو فى هذا الصيف (صيف سنة ١٩٣٠) يريد أن يضرب لأفراد قبيلته المثل المادى على أنهم فى داخل الدوامة الكبرى خير مما كانوا فى العهود المنصرمة ، فهو لذلك يمد يده الى الجهاز ذى الأذرع الست فيوقفه عن الحركة ، ثم يقوم من مقعده فى مركز الجهاز فى أنقرة وينزل فى قصر فى « يالوفا » حيث ينسج خيوطه استعداداً لضرب المثل

ولقد سمعت ـ وأنا مقيم فى استامبول ـ نفراً من الرجعيين يقولون ان وقوف الدائرة دليل على افلاس الزعيم وإفلاس فلسفته التى قامت عليها الدائرة والجهاز ذو الأذرع الست . فكنت أسخر من أقوالهم وأقول : « انتظروا فعما قليل تنجلى لكم حقيقة الزعيم » . فيقولون : « لقد انجلت الحقيقة منذ أسابيع ، إذ بعث فتحى بك سفيرنا فى باريس الى كمال خطاب احتجاج طويل يعلن فيه عصمت فيه حرب شعواء وينعى على الحكومة عجزها عن ادارة البلاد وسيرها بها الى وهدة الافلاس والدمار . فماذا تقول بعد ذلك ؟ » فكنت أقول لهم : « انتظروا .. فالزمن وحده كفيل بأن يظهر زعيمكم على حقيقته »

وكنت وأنا فى استامبول لا أخفى اعجابى بهذا الزعيم الداهية الذى أوقف الدائرة وكأنه أفلس حقيقة ، واستدعى فتحى من باريس وكأنه أصاخ السمع الى احتجاجه

الطويل ، وهدد عصمت بانقضاء أجله السياسي وكأن عصمت لم يعد يصلح لشئون الحكم . . .

أجل كنت أعجب بهذا الزعيم ، وكان اعجابي به يزداد كلما تصورت الخطر الجاثم فوقه وهو بعيد عن مركز الدائرة ، هذا الخطر الذي يدركه كل من يدرس حياة الأتراك ويعرف أنهم لا يتعصبون لشيء ولكنهم ينقلبون مردة وشياطين اذا لم يروا « زعيم القبيلة » أو دائرته التي تدور فتشملهم في دوامتها الكبرى

ولكن مصطفى كمال لا يرهب شيئاً . وهو في انسحابه هذا من مركز الدائرة انما يعتبر نفسه في « عطلة صيفية » سوف يقضيها في حدائق « يالوفا » الغناء ناعم البال هادىء الاعصاب ، فاذا ما تطورت الأمور تطورها المنتظر الخطير فليس أسهل عليه من العود الى الذئب وتظرات الذئب النارية ، ثم الجلوس في مقعده في مركز الدائرة لتعاود دورانها من جديد !

أجل والله . . هـذا مصطفى كمال الذي تصورته وأنا على ضفاف البوسفور في صيف سنة ١٩٣٠

وبهذا الروح يجلس كمال في حدائق « يالوفا » ليستمع الى نقاش حاد بين فتحي وعصمت :

فهـذا سفير تركيا في فرنسا يهول من شأن المأساة التركية الكبرى التي وضع عصمت فصولها بحماقته وجهله وتعصبه ، وها هو ذا الفصل الاخير من المأساة يوشك أن يختم بفاجعة دونها فواجع العهد المنقرض . .

وهذا عصمت : رجل الحديد والنار يجلس صامتاً لا يتحرك . فاذا استفزه كمال وطلب منه الدفاع عن نفسه تراه يقول ببروده المعهود : « ليس هذا مكان النقاش في شئون الحكم ، فهنالك مجلس نيابي تدور المناقشات بين جدرانه . فليبرز فتحي أو من شئت غيره الى الميـدان ، وليحملوا على عصمت ما شاءوا من حملات ، وعلى عصمت بعد ذلك أن يدافع عن نفسه . . »

كلام معقول يقبله كمال ، ويقبله فتحي أيضا

* * *

فيخطو كمال خطوته الثانية إذ يعلن على الملأ أنه راض عن فتحي ولمعارضته الجديدة محبذ متحمس ، فعلى من شاء من أفراد القبيلة أن ينضم الى حزب فتحي

الجديد ، وله بعد ذلك أن ينتقد الحكومة كما يشاء وتتطلب مصلحة الوطن

ثم يأمر أخته « مقبولة » ونفراً من أقرب المقربين اليه بالانضمام إلى الحزب الجديد ، فينضمون اليه طائعين ، ويتحمسون لمبادئه طائعين أيضا !

وأفراد القبيلة الذين انقلبوا الآن مردة شياطين ينشطرون فريقين : فريق متحمس لعصمت جداً ، وفريق متحمس لفتحى جداً

* * *

ثم يخطو كمال الخطوة الثالثة :

فنرى فى أزمير أول حفل سياسى حر عرفته تركيا مذ بدأت الدائرة تدور . ونرى الناس يهرعون الى حيث وقف فتحى يخطب فى زرافات متحمسة تشهد فى أعينهم لمحات من التمرد والثورة

ويخطب فتحى ، فتنطلق السهام من فمه وتكاد تصيب كبد عصمت

ويخطب عصمت ، فتنطلق السهام من فمه وتكاد تصيب كبد فتحى

وتصفق الجماهير وتهلل لهذا أو ذاك . وتتعالى الهتافات الودية والعدائية . وتنطلق المظاهرات فى طرقات أزمير وما حولها صاخبة ثائرة ، ترفع هذا الى السماء وتهوى بذاك الى الحضيض

* * *

ثم يخطو كمال الخطوة الرابعة :

نحن الآن فى أنقرة ، فى المجلس الوطنى الكبير

كمال لقن كلا من عصمت وفتحى درسا فى آداب المناقشة ، فهما على منبر المجلس عدوان لدودان ، وفى خارج المجلس صديقان متصافيان . . .

وهذا الدرس بعينه يلقى على سائر النواب بطريقة غير مباشرة

ثم يجتمع المجلس للنظر فى خصومة رجلى الساعة

فيقف فتحى وأعضاء حزبه الجديد فوق المنبر ويوجهون الى حكومة عصمت قارص الكلم ، ويتهمونها بأنها أوشكت بالبلاد على الافلاس والخراب : فهذا التعصب ضد الاجانب ما معناه طالما أن البلاد فى حاجة إلى رءوس الأموال الاجنبية ؟ وهذا النظر الضيق ماذا نسميه ان لم يكن غباء وسيرا بالحكومة الى شرفة الهاوية ؟ وهذه السكك الحديدية التى تمدها الحكومة ما لزومها إذا كانت لا تغل ربحا ولا تجدى فتيلا ؟

وهذا الاحتكار لسائر موارد البلاد ما الداعي له بعد أن تبين للناس أنه العلة في كل هذا البلاء ؟ وهذه اليد الحديدية التي تكم الأفواه وتخنق الأنفاس ما خطبها ونحن نعيش في عصر الحرية ؟ وهكذا حتى يخرج الناس من تلك الحملات بأن عصمت رجل خائن يجب التخلص منه ومن يده الحديدية بأسرع ما يمكن . . !

ثم يخلو الميدان لعصمت ، فيتكلم ، ويتحمس ، ويثور فيدمدم ويصيح بأعلى صوته : هذا التعصب ضد الأجانب معناه زوال هيمنة الأجانب علينا الى الابد . . . وهذا النظر الضيق ليس غباء بل هو عين ما نراه في كل أمة تتعصب لقوميتها في عصر الحق فيه للقوة والويل للضعيف . . وهذه السكك الحديدية لا أبغي منها الربح وانما أبغي سهولة المواصلات في ساعة الحرب إذ أحمل جنودي من شرقي الأناضول الى غربيه في ساعات معدودات . . وهذا الاحتكار قضى على وساطة كبار الممولين ولم يعد يتيح لأحد أن يتلاعب بعد الآن بأهم مرافق الحياة . . أما اليد الحديدية فلا وجود لها طالما كان الرجعيون مندسين في أوكارهم أو مشردين في أقصى الأرض .. وهكذا حتى يعود التيار فيندفع معه بشدة . .

وينزل عصمت من فوق المنبر ليعانق فتحي ويسير معه ضاحكا متلطفا كما أمر الزعيم !

ولكن النواب ينسون الدرس في ساعة الغضب والتحمس ، فيسبون ويلعنون ، وبقبضاتهم في الهواء يلوحون ، وبمسدساتهم يهددون ، وبالالكمات يتناحرون ، وانك لتسمع في هذه الفوضى الرهيبة دوي الطلقات وهزيم الهتافات الثائرة وقعقعة الاثاث المحطم !

* * *

ولا تكاد هذه المناقشات والمشاحنات تذاع ، حتى يندلع لهيب المعارضة في كل مكان : الزراع ، والتجار ، والصناع ، والمدرسون ، والاطباء ، والمهندسون ، وكل ذي حرفة ينغمر في خضم السياسة الى شوشته . .

وعلى القهوات يجلس هلافيت السياسيين فيتناقشون ويتضاربون ، ثم يحررون آلافا من العرائض ويرسلونها الى انقرة . .

وفي الطرقات يترك الناس أعمالهم ويجتمعون حيثما سمعوا خطيباً يخطب ، أوسياسياً هلفوتاً يتحدث ويتحمس . .

وهذه الجماعات تتشاحن ، ثم تتضارب وتتطاحن بالعصى والمدى والمسدسات . .

وفى القرى البعيدة عن العاصمة والبنادر تخرج بقية الرجعيين من أوكارها وتعود الى اعلان الحرب على كمال الكافر وحكومته الكافرة . .

وعلى الحدود الشرقية تقوم فلول الأرمن بثورات دامية تذهب فيها مئات الضحايا . .

والاكراد يرفعون « علم النبوة الأخضر » فوق جبالهم ونجادهم وينحدرون به الى القرى التركية المجاورة فتصطبغ أرضها بالدماء وتتناثر فوقها آلاف الاشلاء . . .

وفى قرية « منيمن » بالقرب من ازمير يقوم دعى من الادعياء يدعى « محمداً » ويزعم أنه المهدى المنتظر ، فتجتمع حوله فلول الدراويش الذين اخرجهم كمال من أوكارهم وتكاياهم ودفع بهم الى عالم الكسب الشريف ، وتقوم ثمة ثورة محلية خطيرة . . .

ويحاول ضابط تركى يدعى « قوبلاى » مقاومة النبى الكذاب فيقبض عليه الشيخ محمد ويذبحه ذبح الشاة أمام مئات من الدراويش والرجعيين الهاتفين المهللين : الله اكبر ! الله اكبر !

قضى الأمر . . وعادت الرجعية تمثل دورا من أدوارها التى خلنا أنها انقضت ودفنت تحت انقاض العهد البائد ! !

* * *

تركيا فى خطر . والاستقلال فى خطر . والجمهورية فى خطر . .

أفراد القبيلة يعاودهم الحنين الى دائرة الزعيم الأكبر التى تدور فتدور معها الدوامة الهوائية الكبرى فتدير كل شىء . .

وهذا الحنين ينقلب رجاء ، فتوسلا . . .

ولسان حال القبيلة يقول : عد أيها الزعيم إلى سابق عهدك ، ولا تدعنا ننقلب فى غيبتك مردة شياطين ، وارحنا من بقايا الرجعية ورءوس الرجعيين . .

ولكن الزعيم يصم أذنيه دون توسل افراد قبيلته . فتراهم بعد قليل له ساجدين ولرسالته مقدسين . .

وعندئذ ـ وبعد أن يوقن الزعيم أن المثل الذى ضربه للقبيلة استقر فى القلوب حيث تستقر العقيدة ـ يتحرك الرجل الجليد فينقلب ذئباً تقطر الدماء من مخالبه،وتتألق

فى عينيه نظرات غاليبولى وسقاريا النارية ، ويذهب الى مركز الدائرة حيث يستقر على مقعده العتيد ، ويمد يده الجبارة الى الأذرع الست ويدفعها بقوة ، فتدور ، وتدور معها الدائرة كما تدور الرحى ، فتطحن فتحى وحزب فتحى ، وتطحن المتذمرين وهلافيت السياسة والشاكين ، وتطحن الارمن ، وتطحن الاكراد ، وتطحن الشيخ محمداً ، وتطحن البقية الباقية من دعاة الرجعية والعود الى القديم !

وبعد بضعة أسابيع تقف الرحى حيث طحنت آخر الرءوس ، وتتابع الدائرة دورانها فتشمل الاتراك بدوامتها الكبرى من جديد . .

وانك لتسمع خلال أزيز الدوامة اصواتا سعيدة تشق عنان السماء هاتفة : « ليحي زعيم القبيلة الاكبر ! »

رجل المعجزات

الزراعة ، ولا شىء الا الزراعة . والصناعة ، ولا شىء الا الصناعة . والتجارة ، ولا شىء الا التجارة . والعلم ، ولا شىء الا العلم . والسلام ولا شىء الا السلام . والحرب ، ولا شىء الا الحرب

تلك أوامر الزعيم . وهى تطاع كأنها أوامر مقدسة . وكل ذى حرفة يقوم بها بنفس الروح التى يجاهد بها الجندى فى خط النار

والزعيم تراه فى كل مكان :

فهو زارع يحمل الفأس مع الزراع

وهو صانع يحمل المطرقة والسنديان مع الصناع

وهو تاجر يبيع مع التجار

وهو معلم يقف أمام السبورة كالمعلمين

وهو ملاك السلام !

وهو إله الحرب !

وتركيا تنقلب فى بضع سنين بلدا زراعيا تجاريا ، والاتراك يتعلمون ، ويعملون للسلام كما يستعدون للحرب

وأفراد القبيلة فى هذا الكفاح الجبار سعداء فخورون بما صنعت أيديهم وما صنع

لهم الزعيم ، شامخو الانوف ، مؤمنون بأنهم أعضاء حية قوية في جسم الانسانية والمدنية الحديثة

وهذا الايمان يدفعهم الى الاتيان بالمعجزات في سائر ميادين النشاط الانساني :

فملابسهم كلها تصنع في تركيا ، ومنازلهم وأثاثهم يصنع في بلادهم ، وأدواتهم ومصنوعاتهم منهم واليهم ، ومعظم بنادقهم ومدافعهم ورصاصهم وقنابلهم تصنع في المصانع التركية ، وحتى الطائرات والبواخر وقضبان السكك الحديدية يصنعها الأتراك !

ومدافعهم تعرض في معرض اليونان الى جانب المدافع الاوربية ، فتقرر لجنة فنية عسكرية أنها أمتن من سائر المدافع المعروضة !

ومنتجات أرضهم ومواشيهم تباع في أسواق موسكو ولندن وباريس

وعلماؤهم يضيفون الى قائمة المخترعات الحديثة اختراعات جديدة

واحدى نسائهم تركب صبغات جديدة تفوق الصبغات الألمانية الشهيرة

كل هذا يراه الزعيم فيبتسم . ويراه الاتراك فيزيدهم بقوتهم ايماناً فوق ايمانهم

* * *

فاذا انتقلنا الى عالم السياسة الدولية رأينا عجبا :

فالدب الروسي عدو الترك اللدود في أيام سلاطين آل عثمان يصبح صديقا لذئب انقرة وحليفا

والبلقان الذي لم يعرف الاستقرار قط ، يكاد يستقر تحت راية الزعيم التركي

واليونان . . اليونان التي قادها فنزيلوس الى قلب الأناضول قبل بضع سنوات تتقرب من الذئب التركي ثم تعانقه وتقبله بحرارة وشغف !

وفرنسا صديقة للروسيا ، فهي لذلك صديقة لتركيا

وانجلترا : سيدة البحار التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، ترى أن البحار يكاد زمامها يفلت من يديها ، وأن الشمس تكاد تغيب عن بعض ممتلكاتها ، فتغير اتجاه سياستها العدائية نحو تركيا وتنقلب صديقة لها ، وتروح تغازل ذئب انقرة حتى يهش لها فتبادر الى تقبيله أيضا !

والذي أود أن أسجله لتركيا هنا بمداد الفخر ، أنها كانت أول دولة شرقية عرفت كيف تقاوم انجلترا وتحملها قسرا على احترامها والاعتراف لها بحق الحياة والسيادة

في عصر طالما تنمرت فيه سيدة البحار وأملت علينا ارادتها وانفنا في الرغام

أجل لقد عرف ذئب أنقرة كيف يسوس انجلترا التي لا تحترمك الا اذا قهرتها ، ولا تعترف لك بحقك الا اذا ارغمتها على أن تعترف به

انجلترا هذه تلقت من ذئب انقرة ضربة قاصمة في غاليـولي . وتلقت الضربة الثانية في عهد الاحتلال . والثالثة في حرب الاستقلال . فلما شبعت أم رأسها من الضرب ، عادت اليه في جلد الحمل وراحت تتودد اليـه وتتوسل ليكون لها نصيرا فى أزمتها الطارئة المخيفة ، أزمة قيام الفاشستية في ايطاليا وتهديد موسوليني بجعل البحر الابيض بحيرة ايطالية

وذئب انقرة داهية من دهاة السياسة . وهو يعرف أن انجلترا محتاجة اليه . ويدرك أن البحر الابيض قد يصبح بحيرة ايطالية ، وأن انجلترا التي تملك مفتاح جبل طارق وكانت تتحكم فى البحر الابيض ، تـكاد تفقد هذا المفتاح فتفقد سيادتها على طريق الهند ، فهو لذلك لا يتهافت على صداقتها بل يسوق عليها الدلال . .

وهذا الدلال لايكاد جون بول يحتمله . . فالازمة عصيبة . وموسوليني لايرحم ، وأوربا فى فوهة البركان . وفرنسا الصديقة تتذبذب ، وألمانيا ، تتنمر ، واسبانيا تتشقلب والشرق الأدنى لايستقر على حال ، والحبشة تفترسها ايطاليا ، وحدود السودان مهددة ، وطريق الهند فى خطر !

وأخيراً . . وبعد طول دلال . . رضي الذئب بصداقة انجلترا ، ويعدها بالمساعدة ولـكن على شرط : هو الاعتراف بحق تركيا فى تحصين الدردنيل !

فتقبل انجلترا هذا الشرط . وسرعان ما تهتز الاسلاك البرقية معلنة للعالم أجمع نجاح مؤتمر مونترو والاعتراف بحق تركيا فى تحصين دردنيلها . . .

ويقف ذئب انقرة فوق مرتفعات الدردنيل ليشرف على عمليات التحصين ، فنرى فى عينيه نفس البريق الذى رأيناه من قبل وهو يحصد بمنجله أرواح عشرات الألوف من الانجليز والاستراليين فى سنة ١٩١٥

لقد انتصر جيشه إذ ذاك . وانتصرت جمهوريته اليوم !

* * *

أما ايطاليا . . فله معها شأن آخر :

فى ذات يوم يركب موسوليني رأسه ويقف فى أحد ميادين روما خاطبا ويقول:

وما يجعلها في حاجة الى التوسع في آسيا وافريقيا . .

ولايكاد البرق يحمل هذا التصريح الخطير الى انقرة حتى يبرق ذئب انقرة ويرعد ، ويستدعي سفير ايطاليا اليه على وجه السرعة . .

وعندما يقبل السفير الى « تشان كايا » يستقبله الذئب في حلة مدنية ، ثم يرجو منه أن ينتظر قليلا ريثما يعود . .

وبعد بضع دقائق يعود فاذا هو في بذلة عسكرية . . بذلة ميدان . . !

فيفغر السفير فاه من فرط الدهشة . .

ولكن الذئب لا يدعه يندهش طويلا ، فهو يبادره بقوله :

« هأنت تراني أيها السفير وقد غيرت ثيابي ولبست البذلة العسكرية في بضع دقائق . . فاذهب الى رئيسك موسوليني وصف له ما شاهدت ، وقل له نيابة عني إن تركيا بدورها تلبس ثيابها العسكرية وتنقلب في حالة حرب في بضع دقائق أيضا ! ! »

ويخرج السفير من عند الذئب ليبلغ موسوليني ما رأى وسمع . فيعتذر موسوليني عما بدر منه ، ويصرح بأن تركيا لم تكن تخطر له ببال عندما صرح بما صرح !

بيد أن الذئب لا يكتفي بهذا الاعتذار . بل يسوق قطعاً جبارة من جيشه الى ازمير حيث يقوم بمناورات عسكرية واسعة النطاق ، وكأنه يقول لدكتاتور ايطاليا : « ها هي ذي تركيا انقلبت معسكرا . . . »

* * *

وأما الشرق فله منه دولتان كبيرتان هما ايران وافغانستان

الأولى نضجت واتخذته استاذا . والثانية أوشكت أن تنضج

وفي المستقبل القريب سوف نرى سوارا من الحديد والنار يمتد من استمبول غربا الى قلب آسيا شرقا ، إلى حدود الهند ، إلى جبال التركستان ، الى سور الصين الجبار . . .

بشر فوق البشر

. . وهكذا تمر السنون وتتم الدائرة دورتها لتعاود الدوران من جديد . وهكذا يؤدي كمال أتاتورك رسالته الانسانية الكبرى حيث يجلس في مركز الدائرة

العالم كله يتراوح بين الشك واليقين ، فتقوم هنا شيوعية مدمرة حمراء ، وتقوم هناك اشتراكية ليست مدمرة وليست حمراء ــ ولكنها مقلقلة ، وتناهض كليهما تلك النكبة الانسانية الكبرى التى يسمونها « الفاشستية » أو « النازية » ــ وأقول « النكبة » لانها قائمة على أساس من الهمجية ، ولانها لاتعرف من الحياة إلا أن المانيا أو ايطاليا فوق الجميع ، ولاشيء إلا المانيا أو ايطاليا ، ولا حياة الا لالمانيا أو ايطاليا ، ولا سعادة إلا لالمانيا أو ايطاليا ، أما الباقون فشعوب نجسة ومدنيات مضمحلة . .

هذا العالم المصطخب ما أشأمه إذا قيس بعالم أتاتورك المؤمن العامل !

إن هذا الرجل الجاثم فى مركز الدائرة فى انقرة ليس شيوعيا أحمر ، ولا اشتراكيا أغبر ، ولا نازيا أزرق ولا فاشستيا اسود ، بل هو « انسان » . انسان يدافع عن بلده حتى يستقل ، ثم يعمل على توفير اسباب الرفاهية له ، ولا يفكر فى الحرب الا مدافعاً عنه

وهو فى « انسانيته » هذه صاحب مذهب عالمى جديد ورسالته انسانية كبرى قوامها « السلام . والحرب للدفاع عن السلام والوطن » . والجديد فى أمره أنه يختلف عن أصحاب المذاهب والرسالات فى أنه عملى ومعظمهم خياليون ، وأنه عاكف على قطعة من الارض يصلحها وهم يعكفون على الكون كله يصلحونه . فالسلام عندهم حب وصفاء وسعادة ، وعنده مال وزرع وضرع وصناعات وحديد ونار : فالمال والزرع والضرع والصناعات لتوفير اسباب الرخاء ، والحديد والنار للدفاع عن هذا الرخاء . وهو اذ يعكف على رقعة تركيا وحدها ليصلحها يؤدى للانسانية من الخدمات مالا يؤديه مصلح الكون أجمع ، فاصلاح قطعة من الارض يسهل على الانسان القصير أجله ، ويصبح بعد ذلك مثلا يحتذى وأنموذجا يقلد . أما اصلاح الكون فمحال . . ثم ان المصلحين وأصحاب الرسالات لا يملكون من وسائل الاصلاح الا الفكرة ــ والفكرة وحسب ــ أما هو فيملك الفكرة ووسائل التنفيذ

* * *

ولا يظنن ظان أننا اذ نتحدث عن كمال أتاتورك « الانسان » نود أن نقول إنه انسان مثلى ومثالك ، نصفه عاطفة وغرائز ، ونصفه خيال ، وما يبقى منه بعد ذلك عقل ومنطق وفكر راجح ! كلا . . . فكمال أتاتورك زعيم ، وأول صفات الزعيم أنه « بشر فوق البشر »

ولو أن المؤرخ أو العالم النفساني يتاح له تحليل الناس الى عناصرهم الأولية ، اذاً لرأينا فى جسم كمال أتاتورك عجبا : فكل ذرة من ذرات جسمه هو خلاصة طبع من طباع الاتراك . وهذه الذرات كلها مجتمعة هى التى تتيح له ان يكون « بشرا فوق البشر » و « تركيا فوق الاتراك » و « زعيما للقبيلة التركية »

وهذا الزعيم يجلس مع أفراد قبيلته بجسمه ، ومع الفكر المطلق بروحه . فاذا ثاروا رأيته حديداً . وإذا انصهروا رأيته جليدا . وإذا جمدوا رأيته ناراً . وإذا تشعبت بهم الطرق رأيته فى مجمع الطرق . وإذا انقسموا رأيته واحداً . وإذا انقلبوا على أنفسهم رأيته معتدلا . الفاس والسيف عنده سيان ـ والحقل وخط النار . والحياة والموت عنده صنوان ـ والميلاد والشهادة . كل هذا لابد منه فى هذه الحياة الدنيا ما دمنا فيها نعيش

لا صديق له ولا يصادق أحداً . ولا أحد يحبه وهو لا يحب أحداً . ولا عدو له وهو لا يعادى أحداً : الصداقة والحب والعداوة كلها من مظاهر الانسانية العادية . أما هو فبشر فوق البشر ، وزعيم يطاع ويخشى ، وهذه الطاعة وتلك الخشية تلبسان لبوس القداسة

ولطالما كافأ كمال أتاتورك رجالا وشنق آخرين . بيد أنه فى كلتا الحالتين كالبناء يضع الصخرة المهذبة فى مكان ممتاز ويحطم الأخرى ليدسها فى جوف الحائط . فالانصار الذين كافأهم ، والرجعيون الذين علقهم فى حبال المشانق ، كلهم صخور بنى بها أتاتورك بيته العتيد

وسيكافىء كمال أتاتورك ويشنق رجالا آخرين . وسيبنى بيوتا أخرى ومعاقل فوق رقعة بلاده . فلا يعودن أحد ممن انتقدوه أو لاموه الى انتقاده ولومه ، فهو فى مركز الدائرة وعلى قنة البشرية يفكر ويعمل ، ولا يعبأ بشىء بعد ذلك

* * *

وفى القبيلة التركية الكبرى يعيش كمال أتاتورك الآن وحده ، فلا أب ولا أم ولا زوجة ولا عيال ولا عقار ولا مال

له مرتب ضئيل يدفع منه ضريبة الدخل كما يدفعها أى فرد من أفراد القبيلة
كانت له ضيعة فوهبها للاتراك

كل ذرة من ذرات جسمه ، وكل عنصر من عناصر عبقريته ، يعمل فى سبيل الترك ــ والترك وحدهم

لم يهبط الى مستوى البشر العادى إلا فى يومين اثنين : أولهما يوم تزوج « لطفية هانم » ، والثانى يوم ماتت أمه « زبيدة »

فأما « لطفية هانم » فقد أسرته بجمالها يوم دخل أزمير ظافراً ، وما كان لها أن تأسره لولا أنه كان خارجا من حرب الاستقلال كما يؤوب البدوى من تيه طويل فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء . . فروت « لطفية » من ظمئه وخففت عنه من ويلات الحرب وأهوالها . فلما استقرت الأمور فى نصابها ولم يعد كمال ذلك البدوى الصادى ، نبذ زوجته نبذ النواة وهجر فراش الزوجية حيث يستقر البشر ، وصعد الى القنة حيث الرحل بطيع ، والمرأة تطيع ، ولا شىء إلا الطاعة للزعيم

وأما أمه « زبيدة » فقد أحبها حقاً . ولعلها الشخص الوحيد الذى نبض له قلبه وتحركت عاطفته . « زبيدة » الأم الرءوم التى أحبها كمال الحديد الجليد ولم يعص لها أمراً . « زبيدة » التى كانت تؤمن ــ وابنها مصطفى فى حجرها ــ بأن الخليفة يملك قوة سبعة من الاولياء ، فأصبحت فى أخريات أيام حياتها تؤمن بأن ابنها وحده يملك قوة سبعة من الجبابرة . . « زبيدة » هذه قضت نحبها . فانقطع بموتها آخر خيط كان يربط كمالا بالبشر وعواطف البشر

خاتمة

الدائرة الـكبرى ما زالت تدور

وما أسرع ماتدور !

انى لا أكاد أرى الجهاز الجبار ذا الاذرع الست

وكل ما استطيع أن اتبينه خلال الدوامة الهوائية الـكبرى مارد جبار لايزال كما كان وحيثما كان حديدا جليدا ، فأقول : « لعله كمال أتاتورك »

مراجع الكتاب ومصادره

مراجع انجليزية :

Memoirs of Halidé Edib, London 1926.
The Memories of Ismail Kemal Bey, London 1920.
Memories of a Turkish Statesman, by Djemal Pasha, London 1919.
The Turkish Empire, by Lord Eversley, London 1918.
The Turkish Empire from 1288-1916, by Lord Eversley. And from 1914-1922, by Sir Valentine Chirol, London 1923.
The Ottoman Empire, 1801-1913, by William Miller, London 1913.
Turkey, by Arnold J. Toynbee & Kenneth P. Kirkwood, London 1926.
A short History of the Near East, by William Stearns Davis, London 1923.
Life of Abdul Hamid, by Sir Edwin Pears, London 1917.
Turkey in Travail, by Harold Armstrong, London 1925.
Turkey, the Great Powers & the Bagdad Railway, by Edward Mead Earle, London 1923.
The Turks and Europe, by Gaston Gaillard, London 1921.
The Powers and the Turks, by Sir George Greenwood, 1923.
The Eastern Question, by J. A. R. Mariott, London 1918.
The Turkish Problem, by Count Léon Ostrorog, London 1919.
The Struggle for Power in Moslem Asia, by E. Alexander Powell.
The Western Question in Greece & Turkey, by Arnold J. Toynbee, London 1922.
The Holy War in Tripoli, by G. F. Abbot, London 1912.
The Turco-Italian Wars and its Problems, by Sir Thomas Barclay, London 1912.
With the Turks in Tripoli, by E. N. Dennett, London 1916.
Hellas and the Balkan Wars, by D. J. Cassavetti, London 1914.
The Struggle for Scutari, by M. E. Durham, London 1914.
Fourty Years in Constantinople : 1873-1915, by Sir Edwin Pears, London. 1915.
Gallipoli, by Masefield.
The Dardanelles Commission's Final Report, London 1919.
Gallipoli Diary, by Sir I. Hamilton, London 1920.
Five Years in Turkey, by Liman Von Sanders, London 1928.
War Memories of the Dardanelles, by E. Ashmeed Bartlett.
British Official History, by C. P. Aspinall, London 1928.
An Englishman in Angora, by Grace Ellison, London 1923.
Turkey To-Day, by Ellison.
Mustafa Kemal, by Wortham.
Grey Woolf, by H. C. Armstrong, London 1932.

مراجع فرنسية :

Le sort de l'Empire Ottoman, par A. Mandlestan, 1917.
La Révolution Ottomane, par Youssouf Fehmi, Paris 1911.
La Jeune Turquie et la Révolution, par A. Sarrou, Paris 1912.
La Turquie à la Guerre, par J. Aulneau, Paris 1915.
La Mort de Stamboul, par Victor Bernard, Paris 1913.
La Révolution Turque, par Victor Bernard, Paris 1909.
Cent Projets de Partage de la Turquie, par T. G. Djuvara, Paris 1914.
La Turquie, l'Allemagne et l'Europe jusqu'à la Guerre Mondiale, par Général M. Moukhtar Pacha, Paris 1924.
Les Balkans en Feu, par R. Poincaré, Paris 1912.
Histoire de la Guerre Italo-Turque, par un Témoin, Paris 1912.
La Guerre Turco-Balkanique, par Colonel Brevete Boucabeille, Paris 1912.
Journal du Siège d'Adrinople, par G. Civilli, Paris 1913.
La Tragédie des Dardanelles, par Delage Edmond, Paris 1931.
Angora, par Jean Schlicklin, Paris 1922.
Dictateurs et Dictatures, par le Comte Sforza, Paris 1931.
Le Visage Nouveau de la Turquie, par Eugène Pittard, 1931.
La Turquie Contemporaine, Ankara 1935.
Dictateurs d'aujourd'hui, Henri Bernaud, 1933.
La Turquie dans le Monde, Robert de Bischoff, Paris 1936.

مراجع ومصادر تركية وعربية :

— عبد الحميد ثاني ودور سلطنتى ، حيات خصوصية وسياسيه‌سى : استامبول ١٣٢٧ هـ

— عثمانليلر محاربة لريني ناصل غائب ايتدلير ؟ شيمدى ناصل تلافى وترقى ايده بيليرلر ؟ عادل ناجى : استامبول ١٣٣١ هـ

— جناق قلعة . محررى غرانويل فورتسكيو ، مترجمى رحمى : استامبول ١٣٣١ هـ .

— عثمانلى اردوسنك أسباب مغلوبيتى . واتحاد وترقى جمعيتى سياستى . جمال الدين هجرى : استامبول ١٣٢٩ هـ

— عثمانلى اردوسنك أسباب مغلوبيتى . احمد حمدى : القاهرة ١٩٣٣

— ادرنة سقوطنك ايج يوزى . جلادت بدرخان ـ كامران بدرخان : استامبول ١٣٢٩ هـ

— ١٩١٢ : بلقان حربنده . محمد علي نزهت : استامبول ١٣٣١ هـ
— أوجنجي قول أردونك وايكنجي شرق اردوسنك محارباتي . محمود مختار باشا : استامبول ١٣٣١
— خاطرات نيازي . أحمد نيازي : استامبول ١٣٢٦
— نطق
— نطق محتوياتنه عائد وثائق : غازي مصطفى كمال طرفندن ـ انقره ١٩٢٧
— مذكرات الغازي مصطفى كمال باشا (مترجمة عن التركية)
Tarih V vols : Istanbul 1931.

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٢٥	الصدر الاعظم	وزير الحربية
٣٠	٢٥	وتلت ذلك هزيمة المارن	وسبق ذلك الزحف على باريس
٣١	٢	١٨ اكتوبر	٢٨ اكتوبر
٤٦	٢	يقترضه من جمال	يبيع به خيوله لجمال
٤٨	٤	يا صاحب السمو	يا صاحب السعادة
٦٣	٥	انطاكية	انطاليا
٦٩	١٨	ادنه	ادرنة